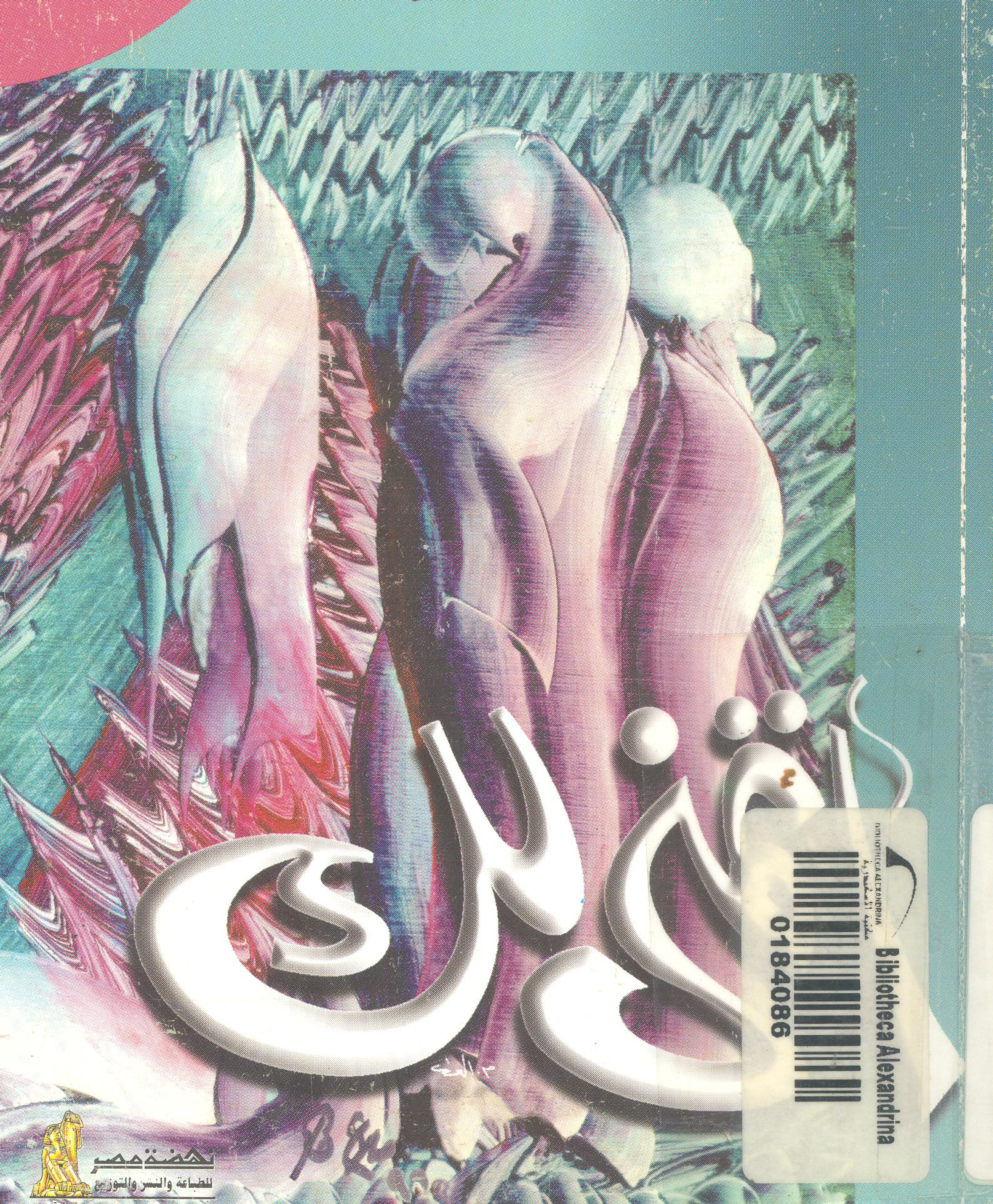
أنيس منصور



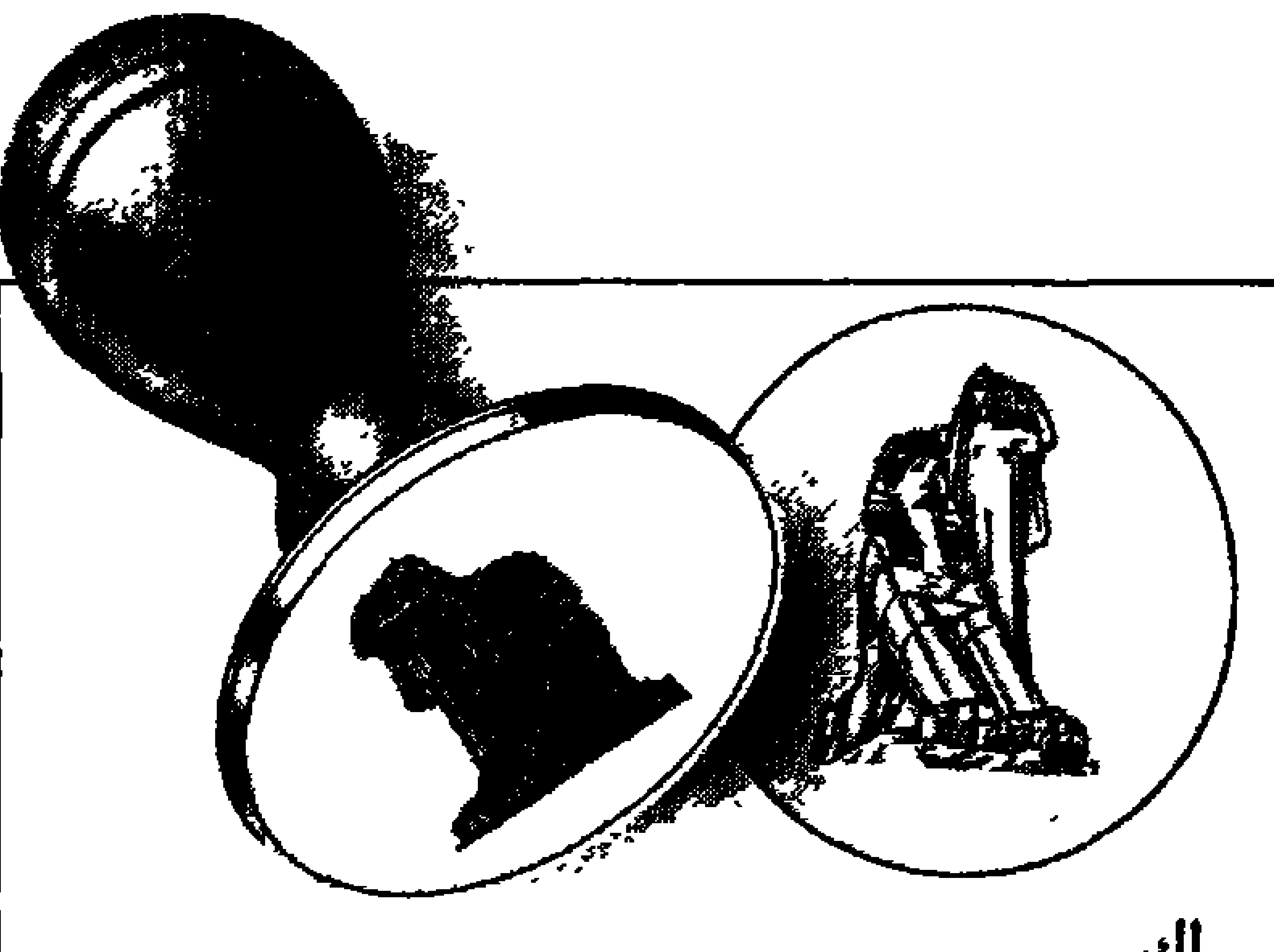
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

أنيس منصور



مقـــــالات





اسم الكتاب	أتمنى لك .
اسم المؤلف	أنيس منصور .
إشراف عام	داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر	طبعة أولى يناير ١٩٩٧ طبعة ثانية يناير ٢٠٠٠
تصميم الغلاف	م. محمد العتر
رسوم	الفنان صلاح طاهر
رقم الإيداع	٢٠٠٠/١٨١٣
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1185 - 3
الناشر	دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦ .
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ . فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ . فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

كلمة أولــى ..

سمعت كل أمنيات الناس فى الإذاعة والتلفزيون ، وهى كلها ذات معنى عام . . أو لا معنى لها على الإطلاق .

واحد يقول لك : أن يكون الناس جميعا فى صحة تامة!

كيف؟ أهو كلام!

وأن يكون الناس جميعا من الأغنياء . وأن تزول الفوارق بين الناس . . وأن يحب الجار جاره ، وأن تكون قلوب الناس فى لون القشدة . كيف؟

وأن تحقق كل أمانيك فى الحياة . . لك ولأولادك ولأحب الناس إليك . . وكيف؟

وألا يذهب إلى المستشفى مريض! فما رأ ى الدكاترة؟!

ونفرض أن أحدا لم يمرض ، ما القول فى الموت الذى هو نهاية كل سليم ومريض وكل طفل وشيخ والأجنة فى بطون أمهاتهم . كيف؟

وبعض الذين سألوهم فى الإذاعة والتلفزيون والصحف تحفظوا فقالوا : هذه أمنياتى للعالم كله وهى الأمنيات التى مات عشرات الزعماء قبل أن يحققوها أقول إن هذا الذى طلبوا إليه أن يتحدث فى التليفزيون عن أمنياته للدنيا بعد أن ذكر ذلك أعلن عن أمنياته هو الشخصية فقال : إن ربنا يعطينى الصحة والعافية والسعادة

ونجاح الأولاد وأولاد والصحة الدائمة لهم والعافية والستر وأولاد أولادى إلى يوم الدين . قل لى كيف ؟

يعنى أن وسائل الإعلام قد طلبت إلى عشرات الناس أن يطلبوا المستحيل . . كأنهم لم يطلبوا شيئا من الله . . لءنهم طلبوا ما ليس منطقيا ، ومالا يمكن تحقيقه بالفعل . . ولابد أن الحياء منعهم أن يطلبوا أن يعيشوا إلى الأبد حتى يروا سعادة ونجاح أولادهم وأولاد أولادهم؟!

إن مثل هذه الأمينات لا يمكن أن تكون جادة . . وإنما هى هلوسة طيبة . . هلوسة مشجعة . . بعض الناس يتفاءل بها كما يتفاءل قراء البخت فى الصحف والمجلات . . فكل واحد يطالع بخته هو يستريح إلى ذلك ، ولو قرأ البخت كله ، بخته وبخت غيره ، فسوف يجد نفس الكلام ولكن بصياغة مختلفة . . وليس مقبولا أن يتحقق النجاح والسعادة والصحة والحب والسلام لكل الناس كل يوم .

أما الذى أتمناه لك أيها القارىء العزيز فهو بعض السعادة وبعض الملايين فى البنوك أنت وبعض أولادك وأولاد أولادك؟!

وأن تسافروا جميعًا إلى الدنيا الواسعة . نظرة إلى السماء ونظرة الى الأرض ونظرة فى كتاب ونظرة إلى مصر . .

أنيس منصور

الناس هنا أحسن !

هناك عبارة شهيرة تقول : إن أخلاق الناس تسوء من الشرق إلى الغرب . . أى أن الناس فى الشرق أحسن خلقا وفى الغرب أسوأ وفى أمريكا أحط . . والعجيب الآن أن الشرق يقلد الغرب ومجنون بأمريكا!

أما الذى جعل الناس تفقد قيمها الأخلاقية هو أنها ربطت بين التقدم العلمى والأخلاق . مع أنه لا توجد أية صلة بينهما ، فكثير من العلماء كانوا من أحط الناس خلقا وأكثرهم جشعا ، وكثير من الجهلاء ألطف سلوكا وأطيب قلبا .

مثلا : الغرب اخترع الطائرة والصاروخ وسفن الفضاء . . واخترع العقاقير ورصف الطرق وأقام أجمل المطاعم وأفخم دور السينما وأروع الملاعب الرياضية . . ولكن الغرب أيضا هو الذى أشعل نار الحروب تأكل الملايين من الأبرياء وتهدم الدول وتمزق النفوس . . وننسى كل ذلك ولا ننظر إلا إلى ما أبدعه العقل والخيال؟

والعلم نفسه ليس خيرا وليس شرا . . وإنما العلم هو خادم لنا . . فالسكين الذى نقطع به البطيخ هو نفس السكين الذى نقتل به مجرما أو بريئا . . والقانون الوضعى الذى أضفناه إلى قوانين السماء ، هو القانون الذى يفتح السجن أمام المجرم ، وهو نفس القانون الذى يحميه من غضب الناس عليه . . إننا نطلب الإعدام

للقاتل بنفس القانون ، ولكن هذا القانون بين يدى المحامى والقاضى من الممكن أن يحكم للقاتل بأخف العقوبات . . ومن الممكن أن يطلق سراحه لأنه برىء . . فقد أدانته الظروف . إذن فالقانون الذى يحمينا هو الذى يحمى القاتل أيضا!

فما الذى تقدم فيه الإنسان؟ وما الذى تأخر فيه الإنسان؟

الإنسان تقدم فى تطوير العلوم وفى تطوير تطبيقات النظريات العلمية . . فالعلم أعطانا الراحة والسهولة والمتعة . . بدلا من ركوب الإبل ، نركب الطائرات المكيفة الهواء والتمدد على المقاعد . . فأنت تتمدد وتنام وتصحو وتتفرج على الأفلام وتأكل وتشرب وتقرأ والطائرة هى التى تنقلك من قارة إلى قارة . . فالإنسان صنع هذه الطائرة للسفر . . أى لراحة الإنسان ، ولكن هذه الطائرة قد اخترعها الإنسان قبل ذلك لإلقاء القنابل على العدو . . لإطلاق الصواريخ على الأهداف المدنية والعسكرية والصناعية .

والإنسان الذى قتل أخاه من مليون سنة ، هو نفسه الإنسان الذى لايزال يقتل ، فالمشاعر الإنسانية والغرائز لم تتغير ، هى هى ، وأدوات الحياة والموت هى التى تغيرت .

أو بعبارة أخرى : لا فرق بين إنسان وإنسان إلا فى أهداف من حياته .

نعود إلى حكاية السكين : السكين أمامك على المائدة نقطع بها اللحم . . وهى نفس السكين التى من الممكن أن تغرسها فى قلب جارك . فالسكين بريئة من أهدافك ونواياك . . السكين خادم لأهدافك ، لأغراضك العادية والإجرامية . . ولذلك فالعلم من أوله

لآخره لا هو خير ولا هو شر . . ولكننا نحن نجعله شرا ونجعله خيرا .

لقد فوجئ الشعب الألمانى بعد الحرب العالمية الثانية أن الشبان يقلدون الأمريكان . فهم يرتدون ملابس مبهدلة ، وهم يدخنون ، وهم إذا جلسوا مددوا أرجلهم فى وجه آبائهم وأمهاتهم . . ثم انهم يمضغون اللبان!

وقد فزع الألمان من انعدام السلوك الجرمانى المحترم . . أو الذى يحترم الكبير ، الأب والأم والمدرس والرئيس فى العمل ، ولذلك وجدنا بعض المؤسسات الصناعية قد أدخلت نظام الضرب للعمال والصغار . . تضربهم حتى يعتدلوا . . ويعودوا ألمانا لا أمريكان!

فما الذى جرى؟ إن الشعب الألمانى المهزوم راح يقلد الشعب الأمريكى المنتصر . . وخيل إليه أن سلوكيات الأمريكان هى الأصح ولذلك انتصروا وسلوكياتهم هى الخطأ ولذلك انهزموا .

شىء من مثل ذلك يسود العالم فى الشرق ، لولا أن ظهرت اليابان والدول الصناعية التى كانت نائمة وقفزت كالعفاريت تنافس الأمريكان والغرب . ومنافسة بالعلم والتطبيق بشىء آخر ليس موجودا فى الغرب هو التمسك بالقيم الأخلاقية والتقاليد ، ولولا اليابان والشرق الآسيوى لانحدر العالم كله وراء أمريكا لأنه يقلد سلوكها ولا يقلد علومها وانضباطها العلمى!

حرب النجـــوم !

نحن نقول : ان الإنسان يريد الخروج من هدومه . .

أى إنه زهق وضاق بنفسه فيريد أن يترك هدومه ويخرج منها ويمشى عاريا . . لقد زهق . .

ونقول : إنه يغير جلده . .

أن يتلون ويكون شيئا آخر لا يصح ، مع أننا فعلا لا نغير جلودنا . . بأن تموت خلايا وتظهر خلايا جديدة . .

صحيح أن الثعبان يغير جلده . وجلده عبارة عن غشاء كالبلاستيك . . وهو لا يغير جلده إلا بعد أن يكون قد ظهر له جلد جديد . . والطيور تغير ريشها . . ولكن الإنسان عندما يقول إنه سوف يخرج من هدومه . . تماما كما يقول أطفش من البيت . . وأهاجر من هذا البلد . والمعنى إنه لجأ إلى حل عنيف ما كان يحبه ، وهو أن يترك مالا يصح أن يتركه!

والحقيقة أننا نريد ذلك ، فلا يوجد واحد ليس زهقانا من حياته أو طهقانا من دنياه . . وهو يريد أن يغير الهدوم والبيت والبلد والقارة . . ونحن الآن نتحدث عن تغيير الكوكب ، أى : الأرض بحثا عن كواكب أخرى . .

ومن ألوف السنين أحس الإنسان بأنه يريد شيئا جديدا . . يريد مكانا أفضل وأناسا أحسن . وإن هذا ممكن . .

فالفلاسفة أفلاطون وفيكو ومور والفارابى حاولوا البحث عن مدينة فاضلة أو جزيرة يجعلونها فاضلة بعيدة عن المجتمعات الأخرى الفاسدة . .

وفى هذه المدينة أو الجزيرة الفاضلة سوف يعيشون حياة العقل والمنطق والأدب والأخلاق . . والمساواة المطلقة بين كل الناس . فلا سلطان إلا للعقل والأخلاق . . ولن يكون فيها جشع ولا حقد . . وإذا اختفى الحقد اختفت الغيرة وإذا اختفت الغيرة اختفت الكراهية ، وبغير كراهية فلا حرب . . لأن الحرب هى الكراهية المنظمة!

وظلت هذه أحلام الفلاسفة ولم يحاول تطبيق أحلامه إلا فيلسوف واحد هو أفلاطون . فقد أعطوه جزيرة وقالوا له : أرنا كيف تجعل الإنسان فاضلا نموذجيا . وحاول وفشل . . لأن المسافة كبيرة جدا بين أفكار الفيلسوف والتجسيد العملى لها . . أما الأفكار فهو حر فى تربيتها وتنظيمها . . ولكن تحويل الأفكار إلى واقع يصطدم بالناس . . فالناس أشكال وألوان والناس ليسوا جميعا سواء فى قبول الأفكار أو الاقتناع بها أو الاستسلام لها ، وعاد أفلاطون فاشلا حسيرا كسيرا كثيرا . ومن مائة سنة حاول صحفى استرالى اسمه وليام لين أن يقيم استراليا الجديدة فى دولة أورجواى بأمريكا اللاتينية . فحمل فى سفينة ٢٢٠ من أتباعه والمؤمنين به . . واتجهوا إلى القارة الجديدة وكان شعارهم : لا أحد يملك شيئا . لا ذهب ولا فضة . . لا خوف ولا طمع . . وفى سنة ١٨٨٩ طلب متطوعين لبناء هذه الدولة الجديدة . .

ولا أحد يُعرف منذ خرجت السفينة تحمل شعب أستراليا الجديدة ، هل رست على البر . . هل غرقت . . هل اختفى الناس

فى الغابات بعد أن فشلوا فى إقامة الدولة وتحقيق السعادة لهم؟ نحن لا نعرف ولم يقل لنا أحد ماذا حدث.

ولكن من المؤكد أن الفكرة قديمة ولكنها تعاود المصلحين والحالمين من حين إلى حين . .

والمعنى : أنه لايزال الإنسان يحلم بما هو أفضل من عالمنا وعلاقاتنا وأحلامنا ومخاوفنا وأطماعنا . . وإذا كان الإنسان قد فشل ، فلن يثنيه الفشل عن المحاولة من جديد . .

ولكن حتى إذا حاول الإنسان فهو الإنسان بكل عيوبه . . ولن يغسل هذه العيوب أو يمحوها إنه عبر المحيط الهادئ أو الأطلنطى . . فالنفوس اتسخت ولم يعد الماء والصابون قادرين على إزالة هذه البقع السلوكية .

ويوم اتجه الإنسان إلى الكواكب الأخرى ، ظهر شىء جديد اسمه «حرب النجوم» أى استخدام سفن الفضاء فى معركة على أرفع المستويات دفاعا عن الأرض الجديدة . . كأن الإنسان عندما قرر الانتقال إلى فوق . . قد انحط فى نفس اللحظة إلى تحت . . فكأنه لم يصعد ولم يرتفع . . وإنما ذهب إلى الكواكب الأخرى بكل عيوبه وتعاسته وجشعه الذى جرب الأرض ولايزال!

فالكواكب جديدة ولكن النفوس والعقول قديمة استقرت فيها الرغبة فى القتل والانتقام والتسلط!

فكرة لسوزان مبارك ..

رأيت فى إحدى مكتبات مدينة جنيف السويسرية عددا من الأطفال يجلسون على الأرض ويقرأون سألت قيل : إن من حق كل طفل أن يدخل أية مكتبة ويمسك أى كتاب ويقرأ . والمكتبات قد أفسحت مكانا للأطفال فهى تشجعهم على القراءة .

فاذا اشترى الواحد منهم كتابا وقرأه واستطاع أن يعيده نظيفا أعطوه كتابين آخرين . . بنصف الثمن ، وهكذا تساعد المكتبة ألوف الأطفال على عادة القراءة وعلى عادة نظافة الكتب وعلى عادة شراء الكتب .

بل إن المدارس تطلب من الطلبة الصغار أن يقرأوا الكتب فى الإجازة وأن يلخصوها وأن يبعثوا للمدرسة بذلك ، والمدرسة تعتبر ذلك من أعمال السنة الدراسية أى عملا يستحق عليه التلميذ درجة .

ومن المؤكد أن أولياء أمور الطلبة لا يساعدونهم والأطفال لا يطلبون معونة أحد وإلا كان ذلك غشا .

ومن حق كل طالب عند نهاية العام الدراسى أن يذكر للمدرسة اسم الكتاب الذى اختاره ، فإذا تعذر عليه أن يجد نسخة من هذا الكتاب بعثت بها المدرسة إليه . . فإن أراد التلميذ الصغير أن يعدل عن هذا الكتاب لصعوبته أو لأنه لم يجده مسليا أو وجد نفسه عاجزا عن تلخيصه كتب إلى المدرسة عرضت عليه كتاب أخرى .

المهم أن يجد الكتاب المناسب وأن ينكفىء على قراءته وعلى تلخيصه ، وعلى إبداء الرأى فيه . . وأن يذكر بصراحة وهو صادق والمدرسة سوف تصدقه - من الذى ساعده فى قراءة أو تلخيص هذا الكتاب .

والمدرسة تطلب من التلميذ الصغير عاما بعد عام أن يذكر لها ما الذى يريد أن يكونه عندما يكبر والمدرسة حريصة على أن تعرض مسار تفكير التلميذ وما الذى دفعه إلى أن يغير رغبته أو أمله فى المستقبل .

وتلفت نظر الوالدين إلى ذلك . . فإذا لم تكن للتلميذ رغبة واضحة . . ناقشوه ، حتى يتبين الطريق أمامه .

أبعث بهذه الفكرة إلى السيدة الفاضلة سوزان مبارك التى ترعى مكتبات المدارس وكتب الأطفال والقراءة للجميع وتستحق احتراما مضاعفا لما تقوم به فى دنيا ثقافة الطفل .

ليس شأنها !

سألت نجمة السينما والألعاب الرياضية جين فوندا كيف تحبين أن يناديك الناس؟ مس فوندا أو مسز «ترنر» أو اللايدى سى . إن . إن؟

قالت بسرعة : جين . . جين فقط .

يعنى أن لها شخصية مستقلة . . هى «جين» وبس .

ولذلك يتساءل الناس فى مصر : كيف نحتفى بها كل هذه الحفاوة ثم يطلع علينا زوجها ترنر صاحب شركة «سى . إن . إن» التى انتشرت فى مصر بموضوعات فيها بهدلة لمصر؟ والجواب : أن جين فوندا لا علاقة لها بالشبكة ولا هى تتدخل فى عملها .

فالشبكة من شأن زوجها والعدد الهائل من القائمين على الشبكة ، وأن هذا صميم عملهم ، ولكننا نندهش كيف أن جين فوندا زوجة لصاحب الشبكة ليس لها أى تأثير عليه وعلى عمله ، نحن أحرار فى الذى نفهمه والذى لا نفهمه ، ولكن هذا هو الوضع ومن المؤكد أن جين فوندا التى لقيت حفاوة كبيرة فى القاهرة والأقصر سوف تتحدث عن كل ذلك فى أمريكا وفى كل جلساتها ، وسوف يكون لذلك أثر -لا شك- ولكن ما حجم هذا الأثر وعمقه ؟ هذا مالا نعرف .

والذين رأوا جين فوندا لم يخفوا دهشتهم من أنها ليست جميلة

ولكن صورها رائعة وهى رشيقة القوام نحيفة ، قوية العضلات وفى غاية النشاط ، فهى قد كسبت الملايين من أفلام الرياضة التى أنتجتها لحسابها ، وهى فى بعض الأحيان تظهر على شبكة زوجها وهو عمل تجارى .

وعندما جاءت إلى مصر كان معها عدد من أبنائها من المخرج الفرنسى فاديم وهو أول من قدمها للشاشة كأنثى وهو أيضا أول من قدم بريجيت باردوا ، وكان معها أيضا أبناء زوجها ، وهؤلاء الأولاد يجلسون دائما بعيدا عن الأم ، حتى لا تلتفت إليهم الكاميرات ، فالأم هى التى يجب أن تكون فى مركز الضوء . . وكانت .

وقد سئلت إن كانت الآثار الفرعونية قد أدهشتها؟ فأجابت بسرعة أن الدهشة ليست الكلمة المناسبة ، ولا الكلمة التى تعبر عن شعورها ، وقالت : إننى مبهورة . . مسحورة . . إننى لم أكن أتصور أن أجد نفسى وسط هذه العظمة الحضارية والأبهة التاريخية ، إن الذى أراه وأسمعه شىء لا يوصف ولا أعرف كيف أنقل هذه المعانى إلى الناس فى أمريكا ، ومن المؤكد أن زوجى سوف يحقد على . . فأنا رأيت ما لم يره . .!

ولكن الممثلة اعترضت على كل ما يمس الدين والقيم الأخلاقية ، ورأت أن أمريكا لم تأت إلى مصر لكى تجعل الإجهاض حقا بلا قيود ، ولا جاءت لتفرض رأيا أو رؤية على العالم وهذا ما قاله نائب الرئيس آل جور .

وأحس الناس أن آل جور إنما جاء ضمن الحملة الدعائية الجبارة التى يخوضها الرئيس كلينتون من أجل المعركة الانتخابية القادمة ، فالحزب المعارض له يقلب فى ماضيه ويقلب عليه حاضره لعله ينهار

أو يخسر المعركة الانتخابية قبل أن يدخلها ، ولكن الرئيس كلينتون الحليوة الهادىء الناعم ليس سهل الكسر ولا سهل الهضم أيضا .

وأنه لم يرتفع إلى هذا المكان العالى جدا ليسقط منه بسهولة لا هو يريد ولا حزبه أيضا .

ولذلك فالدور الذى يقوم به نائب الرئيس آل جور ، الذى يتوكأ على العصا بسبب كسر شديد فى إحدى ساقيه ليس فقط لتدعيم موقف الرئيس ولكن ليؤكد أن لنائب الرئيس دورا مهما أو من الواجب أن يكون مهما .

وجين فوندا عضوة فى الوفد الأمريكى الرسمى الذى يرأسه آل جور ولا خلاف بينم على أن حرية الشعوب فى اختيار ما يناسبها وما يتفق مع تقاليدها ودينها .

فى يوم الإجازة !

كنت أظن أننى لست فى حاجة إلى أن أجيب على هذا السؤال وكل ما استطيعه هو أن أتمنى أن أكون فى إجازة أو أجد إجازة أو أعثر على من يدلنى على طريقة نموذجية لكى أستمتع بها . ولكن يظهر أن فاقد الشىء هو الذى يعطيه -على عكس ما يقول المثل .

ففاقد الإجازة هو الذى يستطع أن ينصح الناس كيف يفعلون مالا يفعل ، كيف لا يكونون فى المكاتب أو المصانع أو الحقول فى يوم العطلة .

ولذلك كنت أسرع فى الإجابة فقلت : ألا يفعل شيئا من هذا .

والإجازة هى أحدث ما اهتدى إليه الإنسان . .

فهو عرف العمل وساعات العمل المحدودة وعرف الراحة وأيامها وهو حريص جدا على أن يكون له يوم ، وفى بلاد كثيرة له يومان ، وشعوب تحلم بأن يكون لها فى الأسبوع الواحد ثلاثة أيام راحة .

وقد ذكر المؤرخ الإنجليزى الكبير توينبى فى كتابة «دراسة فى التاريخ» .

فى الفصل الذى جعل عنوانه : «أوقات الفراغ» أن حدثا خطيرا قد وقع فى مدينة نيويورك لقد حاولت بعض الشركات استدعاء بعض الموظفات فى يوم الإجازة مقابل مبلغ من المال ، ولكن الموظفات رفضن!

وأهمية هذا الحادث أن الشركات حاولت إلغاء حق من حقوق الموظفات ورفضن أيضا أن يتقاضين ثمنا لمخالفة قانون أو النزول عن حق . أهم من ذلك أن العاملة تتمسك بحقها فى ألا تعمل حتى لو لم تجد مكانا تذهب إليه فى إجازتها!

ولكن ليس معنى ذلك أن كل من له إجازة أو كل من يتمسك بها ، يعرف كيف يستمتع بها . . أكثر الناس ينامون فى البيت . . وأقلهم يذهبون إلى الجلوس على مقعد بجوار النافذة ، أو على مقعد فى المقهى أو فى السينما . . وأقلهم جميعا من يمارسون أعمالا رياضية .

ومن أجل هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يستريحون فى أيام الراحة ، تكونت شركات للسياحة أو للنزهة . . أو شركات تكسب الملايين من العمل فى «اليوم السابع» من كل أسبوع . . هذه الشركات تأخذ أصحاب الإجازات إلى أماكن بعيدة عن مكان العمل مقابل مبلغ من المال .

المصيبة التى تواجه أكثر الناس هى أنهم اعتادوا على ساعات عمل معظم أيام الأسبوع ، فإذا جاء يوم الراحة كان نوعا من الاضطراب أو الارتباك فى حياتهم . . فهم اعتادوا على العمل ولم يعتادوا على الراحة . . ولذلك أكثر الناس يجدون أنفسهم عاجزين عن الخروج من هذه الدائرة المحكمة أو الساقية التى تعلقوا فيها من عيونهم أو آذانهم أو ألسنتهم . . وليس من الضرورى أن يكون العمل هو دورانا فى الساقية أو دورانا بالميكروفون على الذين يجلسون فى المكاتب فى أيام الإجازات ، فلا يجىء المرض فيكون إجازة إجبارية أو الموت ليكون إجازة من المرض!

الصدق أمل!

ما الذى ينقصنا؟ وما هو الشىء الذى لا نجده فى كل فكرة وكل تطبيق لهذه الفكرة؟ وما الذى يمنع الفكرة الجميلة من أن تعيش طويلا ويجىء من يضيف إليها فكرة أخرى أو تعديلات أخرى ويستمر كل شىء نحو ما هو أفضل؟ ما الذى يجعل الواحد منا يقف فى وجه الرأى الجديد . . والاجتهاد الجديد؟ كم مشروعا صفقنا له . وكان التصفيق نوعا من تشجيعه على الموت حيا؟!

كم من واحد منا أطبق على صدره رسه ومات حسرة لأن أحدا لم يتسمع إليه ، أو لم يمكنه من أن يقول شيئا ينفع الناس؟

وما من جلسة إلا وتدور فيها أشكال وألوان من هذه الأسئلة وتنتهى الجلسة عادة بعبارة واحدة وهى كفن لكل فكر وكل عمل : نحن المصريين هكذا!!

ولكن ما معنى هكذا؟

معناها أننا «عاطفيون» . . حتى هذه الكلمة ليست دقيقة ولكن معناها أننا نتحمس بسرعة وتخمد الحماسة بسرعة .

أو بعبارة دقيقة : نارنا : قش . والقش يشتعل بسرعة وينطفئ بنفس السرعة ويعود كل شىء إلى ما كان عليه قبل ذلك!

ولكن لماذا أيضا؟

هذا هوالسؤال الجوهرى فى كل مناقشة لنا ، أو كل نقد ذات – أو تجريح ذاتى ، ونحن ميالون إلى التجريح أكثر من ميلنا إلى النقد ، لأن النقد مناقشة هادئة .

والتجريح مناقشة دامية ، ونحن ميالون إلى الذم فى الكلام فلماذا كل هذا؟!

لأننا ينقصنا : الاستمرار والاستمرار معناه القدرة على الصبر على تحقيق فكرة ، بشرط أن نكون قد آمنا بالفكرة واقتنعنا بها ، وعندنا استعداد آخر على التضحية من أجلها .

وهذا الاستعداد لا يجىء إلا من صفة أخرى وهى : الصدق . ومعناه أن نكون صادقين عندما اقتنعنا وصادقين عندما قررنا المضى فى تحقيق هذه الفكرة أو هذا المشروع فإن توافر الصدق وأخطأنا لسبب ما ، كان الصدق شفيعا لنا ، لأن كل من يعمل يخطئ والذى يخطئ عن حسن نية غير الذى يتعمد الخطأ .

وهناك صفة أخرى كريهة وهى أننا أنانيون بمعنى أن كل واحد يقول : أنا وليس بعدى أو أمامى أو ورائى أحد . أنا أنجح . . ثم لا ينجح أحد غيرى وهذا خطأ فكرى مذهبى عملى . أن أحدا لا يستطيع وحده أن يحقق شيئا . . فلابد من الآخرين أى لا بد من إقناع الآخرين ودفعهم بالفعل إلى أن يعملوا معنا ، لكى ننجح معا . . ولا يهم من الذى ننسب إليه هذا العمل .

وهذا الأسلوب من العمل الذى لا يجىء إلا نتيجة الحياة الجماعية أو المشاركة العملية . . ولكن قبل أن نصل إلى أسلوب المشاركة يجب أن نتهيأ لقبول هذه الفكرة على أنها أصح الأفكار لكى نحقق عملا عظيما . وفى استطاعتك أن تستعرض كل الأفكار الجميلة ، والمشاريع التى كان يمكن أن تكون نافعة لنا جميعا . . وتضع يدك على العيب . . فالعيب فى داخلنا . . ونحن نحتاج إلى تربية طويلة . . أساس هذه التربية النموذج السليم والقدوة الحسنة ، على كل المستويات .

يكون الصدق هدفا وأسلوبا فى الفكر وفى الحياة .



يا أخى كل يوم أفتح الصحيفة فلا أجد إلا وجع القلب . . الله يلعن الأقارب أينما كانوا!

وسكت الرجل ، وكان لابد أن أسأله طبعا ، فليست عبارته هذه إلا مثل الدقات التقليدية على المسرح وبعدها تنفتح ستائر الكلام ، ولكنى فهمت ما الذى يريد أن يقوله فسكت أنا لحظات لعل ذلك يضاعف عذابه مرة أخرى ، فعاد يكرر المعنى بعبارة أفضل : يبدو أن الذى يبحث عن الحزن يجده وبأسرع مما يتصور ، ما من يوم إلا وأجدنى أمشى فى جنازة أو أتلقى العزاء!

فهو كثير الأقارب والأصدقاء ، أو شديد المجاملة للناس أيا كانت صلتهم به ، ولذلك فهو حزين معظم الوقت ويحاول أن يبرر ذلك بأنه من الحكمة أن يمشى الإنسان فى جنازة غيره ليتعظ وليعرف أن كل شىء إلى نهاية ، وأن هذه الحياة الدنيا فانية ، وأنه لا داعى لأن يتمسك بها ، ويكفيه أن يعيش بلا متاعب فإذا مات كانت نهايته بلا عذاب ، وهو كلام يقال فى مثل هذه المناسبات وينساه الناس عادة عند أول لقمة حلوة أو وجه جميل أو تهديد فى لقمة عيش أو لمقعد يجلس عليه .

وسألنى : وما رأيت أنت؟

ولم يكن يريد رأيى ولكن يريد أن أوافقه على رأيه ولكنى وجدت حلا فذكرت له حادثة معروفة ، قلت له إن المشرع

الأغريقى سولون زار صديقا له وتحدثا فى أشياء كثيرة ، ثم اتجه إلى سولون ليقول له : ألم يكن يجدر بك أن تتزوج ويكون لك أولاد . . ثلاثة . . سبعة . . عشرة ، أنا أحب أن يكون لى عشرون من الأولاد!

وسكت الصديق ثم قال : إن رجلا جاء من أثينا سوف يتناول الغداء معنا . .

قال سولون : أريد أن أراه لأسأله عن حال الناس هناك ، فأنا تركت أثينا منذ شهور .

وجاء الرجل على الغداء . . وسأله سولون عن أخبار الدنيا فقال الرجل : إنه سمع عن وفاة شاب وهو ابن رجل مشهور .

وسأله سولون : ما اسمه؟

- لا أعرف

- وفى أى مكان يسكن

- عند أطراف المدينة

- هل اسمه باولوس؟

- أظن

- هل تعرف أباه؟

- يقولون : رجل مشهور جدا . . وحكيم جدا

- هل اسمه سولون؟

- أظن ذلك

وانهار سولون . . وتقدم منه الصديق يقول له : لا تحزن إن هذه مداعبة ، إنما أردت أن أقول لك إنه من أجل هذا لم أتزوج وليس عندى أولاد . . فالذى عنده الكثير يخاف أكثر ويحزن أعمق!

ثم إن الناس والدنيا لا تساوى شيئا !

لابد أن تقترب !

فى مواجهة العدوان أو الغضب يقوم الإنسان بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان ، مثلا يشعل سيجارة أو يمسح النظارة أو يلعب فى الشارب أو ينظر إلى الساعة أو يحرك عقاربها . أو يرتب الأوراق التى أمامه أو ينظر من النافذة أو يطلب أى رقم تليفون أو يقضم أظافره بأسنانه أو يطقطق أصابعه .

والإنسان قادر على الكذب بملامحه ولكن لا يقدر على الكذب بانفعالاته أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم وهناك أناس كذابون محترفون . الممثلون فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والإنسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة ، وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله . نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى . ملايين السيارات الأخرى التى تشبهها ، وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب إنه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى . . وإذا سألته لماذا؟ قال لك : إنها هكذا ألطف وأجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا ، وإنما الصحيح أنه يريد أن يجعلها مختلفة يريد أن يجعلها خاصة به هو ، يريد أن يؤكد أنه هنا . . وأن هذا المكان خاص به وحده وأنه مضطر أن يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد . .

وهذه تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور . مثلا عندما نكسر إشارات المرور ويدركنا عسكرى المرور فما الذى نفعله؟ الأفضل أن تتحدث إلى عسكرى المرور وأنت فى سيارتك . . أى فى مكانك . فى أرضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا سوف يجىء العسكرى إليك أى إلى حدود مملكتك . وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى إلى اقتراب ودى وبذلك تكون أنت وديا وهو أيضا .

ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك ولكن إذا نزلت من سيارتك . أى تركت أرضك . وذهبت إلى إرضه فالموقف فى يده هو سيده . . والنتيجة ضدك عادة!

وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا . . ومن أعدائنا فكان لابد أن يقترب الإنسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال . فأصبح فى الإمكان قتله عن بعد . . والآن تحولت السهام إلى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لا نصيب العدو وإنما نقتله . .

المسافات بيننا..

ما الذى يبقى على الصداقة والمودة والمحبة وكل ما يربط الناس بالناس؟

– الاعتدال فى ملامسة الناس!

أروع ما قال أحد الحكماء ، الذى بين الناس هو أنواع مختلفة من اللمس باليد وبالأصابع وبالعين وبالفم . . فالمسافات التى بين الناس تتفاوت وتتباعد وبمقدار الصداقة والعداوة والمحبة والكراهية والأبوة والأخوة والأمومة والزمالة والزواج والطلاق . . وبالمداعبة بالضرب بالقتل بالقراءة بالكتابة وكلها أنواع من اللمس من قرب أو عن بعد .

فاللمس هو أبو الحواس أو أبو الإحساسات كلها .

ويبدو أن العلم الحديث أصبح يباعد بين الناس ويجعل الاتصال بهم بصورة أخرى فالناس يتقاربون فى السكن ولكنهم يتباعدون فى المشاعر ويتجاورون فى العمل والأمل ، ويتباعدون فى كل شىء آخر .

ولم تعد هناك العائلة المتشابكة ، لم يعد هناك «بيت العائلة» التليفونات جمعت بين الناس والتلغرافات والسيارات والطائرات والمسارح والملاعب والشوارع ولكن الناس يتجاورون ، ولكنهم لا يتقاربون ولكنهم لا يتلامسون أو يتلامسون ولكنهم لا يتعاطفون .

ونحن نستخدم فى لغتنا العادية كلمات تدل على اللمس بالجسم لأن شيئا غريبا يحدث عندما تلمسنى أو المسك . فنحن نقول هزتنى التجربة أو شدنى المنظر ، أو جرح شعورى أو دوخنى الفيلم ، وكلها تعبيرات تدل على أن شيئا معنويا لمسنا بعنف كأنه

شيء مادى ، فاللمس هو الينبوع الحقيقى لكل المشاعر التى نحبها أو التى نكرهها ، التى نحرص عليها أو نحرص على التخلص منها .

ولنرجع إلى القاموس «لمس الشيء» معناه مسه أو اقترب منه ولمس المرأة أى عاشرها . . والضوء يلمس العين ، يخطفها وهذه المرأة لا ترد يد لامس ، أى أنها امرأة سهلة ، والمرأة اللميس : أى اللينة الناعمة ويقال مس الشيء : أى لمسه والقرآن الكريم يقول :« أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر» ويقول أيضا «لا يمسه إلا المطهرون» ويقال : لمص العسل أى تذوقه باصبعه . «ولمصه أى راح يقلده ويسخر منه ويقال لمظ الماء : تذوقه بطرف لسانه ، ويقال : «لمز أى ضرب» ولمز الشيب رأسه أى ظهر فيه .

ويقالك قرب وأقرب والقريب والقربى ، والقرآن الكريم يقول : «ولا تقربوهن حتى يطهرن» «ولا تقربا هذه الشجرة» .

ويقال : وصل يصل «فى الحب والغرام . . والوصال والوصلة والتوصيلة . . إلخ» . وأصل هذه المعانى كلها أن أحدا يلمسك أو تلمسه بيدك . . مصافحا أو مقاتلا ، معانقا أو مطاردا ، وعلى أساس شكل اللمس باليد تكون معانى هذه العلاقة أو الملامسة بينك وبين الذين حولك ، وفى عصرنا الحديث وفى العصور التالية ، سوف تتباعد المسافات بين الناس وسوف يتباعد الأطفال عن الأمهات فى سن مبكرة وقد دخلنا بالفعل فى العصر الذى لا ينام فيه الطفل على صدر الأم -الخادمة تكفى والذى لا يرضع فيه ثدى الأم -الزجاجة تكفى ، والذى لا تجد فيه الأم وقتا لكى تكون أما- مثلا : تهدهد طفلها حتى يكف عن البكاء أو حتى ينام -إن عربات كهربية تهتز من تلقاء نفسها وتؤدى نفس العمل ويجد الطفل كل ما يحتاج إليه- إلا شيئا واحدا هو المشاعر!

جيل يضحى لجيل..

إننا نولد فى ظروف خلقت قبلنا عبارة مشهورة معقولة لكارل ماركس! ومعناها : هات عربجى حنطور واجعله سائقا لسيارة مرسيدس فإن أول شىء سوف يعمله هو أن يفتح النافذة ويبصق فى الشارع!

وأرى أنه لم يخطىء فى ذلك ، فهو قد اعتاد أشياء كثيرة ، وفجأة تغيرت الظروف ولكنه لم يتغير فالظروف قد سبقته إلى الحياة بل إنه هو الذى جاء متأخرا عن ظروفه ، وليس من السهل أن يتغير الإنسان بين يوم وليلة ، لمجرد أن الظروف تغيرت ، فالذى يتصور أن الإنسان يمكن تغييره بهذه السرعة لا يفهم معنى الطبيعة الإنسانية ولا يفهم معنى الفرق بين الكرسى والجالس على الكرسى ، لأنه من السهل تكوين الكرسى وتغييره وتعديله ولكن ليس كذلك تغيير من يجلس على الكرسى فى حنطور أو فى سيارة أو وزارة ، فنحن جميعا نطالب أنفسنا بالتغيير هذا واجب ولكن نخطىء فى فهم أنفسنا ، لأننا نتصور أن التغيير سهل جدا ، وأنه بقرار يمكن إلغاء الكسل ، وبقرار آخر نقفز من القرن العشرين إلى القرن الواحد والعشرين ومن دولة نامية إلى دولة عظمى .

إن أول شىء يدل على جدية ما نقوله هو أن نتصور أن التغيير صعب ، فالذى يقول ذلك جاد ، والذى يقول عكس ذلك هازل أو خرافى أو مخرف ، فنحن نستطيع أن نشترى مفاعلا ذريا فى هذه

اللحظة ، ولكن نحتاج إلى ملايين اللحظات لكى لا تبصق على أرض المفاعل الذرى ، أو نلقى الزبالة من نوافذه ، أو نلغى الاستمارات الخاصة بتسلم أحدث الأجهزة ووضع الأختام والإمضاءات وأوراق التمغة عليها!

إن أحد رواد الفضاء الأمريكان قد حمل فى عنقه خرزة زرقاء لينجو من الموت! هل هناك خرافة أكبر من ذلك ، هل هناك تحد للعلم والعالم أكثر من هذا ، هل يمكن لعقل إنسان متطور جدا أن يصدق أن هذه الخرزة تستطيع إنقاذه من الموت فى الوقت الذى يعمل على سلامته عشرات الألوف من العلماء ومئات العقول الإلكترونية وألوف الملايين من الدولارات!

ولكنها طبيعة الإنسان أصعب من كل شىء آخر حولها ، إن الظروف تتغير ويمكن تغييرها ولكن الإنسان لا يتغير بهذه السرعة ، ولذلك فبناء العمارات وتمهيد الطرق وزراعة الأرض وإبادة الحشرات أسهل جدا من بناء الإنسان وتيسير الحياة له وغرس الأمل فى خطاه ، وإبادة الفقر والجهل والمرض والخوف من حياته .

إن الذين يتعجلون التغيير على حق ، ولكن الذين يتوهمون أنه يمكن فى يوم أو فى شهر أو فى سنة واهمون ، لأن هذا يحتاج إلى جيل يضحى من أجيل جيل!

قال لى الرئيس!

لم أسمع اسم رانيا علوانى إلا من الرئيس حسنى مبارك . . فهو رجل رياضي وهو يهتم بالرياضيين . ولكننى لست رياضيا . وان كنت أهتم أحيانا بمباريات كرة القدم وكثيرا بمباريات التنس . أما السباحة فهى المستحيل فقد حاولت أن أتعلم السباحة والكوتشينة فلم أستطع ، وقف عقلى وتجمدت عضلاتى وحاولت أن أطفو فكنت أهبط بهدوء إلى القاع . حاولت وانتهت المحاولات باليأس . ودفعنى اليأس إلى النظر إلى السباحين والسباحات مثل رانيا علوانى على أنه المستحيل!

وكانت لى تجربة وحيدة وأنا طفل . فقد وجدت الأطفال فى إحدى الليالى المقمرة يسبحون فى النيل . . ودون أن أفكر خلعت ملابسى وألقيت بنفسى فى النيل مثلهم . ولم أدر ما حدث ، ولكن وجدت نفسى على السرير ومن حولى أبى وأمى وأخوتى وفى عيونهم الفزع والدهشة . المسألة ببساطة أننى لم أتصور لحظة واحدة أن السباحة فن ، وأننى يجب أن أتعلم قبل أن ألقى بنفسى فى الماء ، ومن يومها لم أنزل إلى الماء ، لأننى عجزت عن أن أكون تلميذا للسباح الكبير عبد الباقى حسنين والسباح العالمى أبو هيف . وقد وعدتنى رانيا علوانى بأن تعلمنى ولن تفعل فهى مشغولة بأمجادها وجمع الميداليات الذهبية من الدنيا .

ودهشتى لم تنته حتى الآن عندما أرى أحدا يسبح ولا أعرف كيف يطفو ولا كيف يحرك يديه ورجليه برشاقة وانسجام . وأقفلت ملف السباحة إلى الأبد!

وأذكر أننى كنت أتفرج على مباراة دولية فى الرقص الإيقاعى فى الماء . وكنت أجلس إلى جوار الصديق زكى بدر وزير الداخلية الأسبق ، وسألته طبعا لابد أن تكون أرض الحمام نظيفة وإلا فضحتنا هذه السباحات من كل الدنيا .

فقال لى : لا أفهم!

وهو لم يفهم طبعا علاقة الرقص بأرضية الحمام . فقد تصورت أن الفتيات عندما يرقصن ورؤسهن تحت الماء فإنهن يسندن أيديهن على أرض الحمام . . ولم أتصور لحظة أن الفتيات عائمات . وكذلك لم يتصور زكى بدر أننى جاهل إلى هذه الدرجة . . ولم يفهم .

ومعه حق . ولم تنته دهشتى لقدرة الفتيات على أن يتعلقن فى الماء ويرقصن مع الموسيقى التى يسمعنها من تحت الماء .

باختصار إننى لا أزال أنظر إلى السباحة على أنها نوع من الخرافات يصدقها الذين يعرفون السباحة ويتصورها أمثالى أنها مثل الأطباق الطائرة جاءت من كواكب أخرى لا نعرف كيف .

وأحب أن أطمئن البطلة الشابة . رانيا علوانى بأن مهمتها معى سوف تكون سهلة جدا .

فقد نزلت أخيرا إلى الماء . . إلى حمام سباحة . . وسبحت أى اندفعت إلى الأمام لبضع لحظات ولم أكن أفعل ذلك من قبل ، ولكن مشكلتى بسيطة جدا : أننى أسبح تحت الماء ولا أستطيع أن أخرج برأسى من تحت الماء . . بس . . وهناك مشكلة أخرى بسيطة جدا . . وهى أن هذه الحركة الجبارة تتم بشرط أن تكون أرض الحمام قريبة جدا ، فإذا أحسست بالخوف وقفت على حيلى! بس .

والمطلوب من رانيا أن تجعل رأسى يطفو ، وأن يكون ذلك بعيدا عن أرض الحمام!

توازن الجنـون !

الصحة هى مجموعة رغبات مجنونة . وأنا أقول لك كيف ذلك . . فالذى يحب هو الذى يخاف أيضا ، أكثر الناس حبا أكثرهم خوفا أن يذهب هذا الحب . أن يختفى فجأة . فالحب خائف على قلبه .

خائف على المتعة الجميلة التى يعيشها . خائف على اللهفة على الشوق على الحنان على الأحضان . ولذلك فالمحبون خائفون!

والذى لا يعرف من الدنيا كلها غير الحب ، هو إنسان مجنون ، ففى الدنيا ضرورات أخرى كثيرة!

والذى عنده طموح عنده خوف شديد أيضا . وأكثر الناس طموحا أكثرهم قلقا وأشدهم فزعا ، إنه يريد أن يصل ويخاف أن يزاحمه الناس . ويخاف إذا زاحموه أن ينحوه أو يدوسوه أو يسقطوه . ولذلك فطموحه أنياب وأظافر وأرق وكراهية وحقد . . وكلها ملفوفة بالخوف من الناس والخوف على النفس والخوف على السلم الصاعد أن يقع به أو ينكسر تحت قدميه ، وألا يجد قدميه إذا وجد السلم . . وأن يجد فى نهاية السلم طريقا مسدودا .

ومجنون كل إنسان ليس فى حياته إلا السلم والصعود دون حب أو أخوة أو أبوة أو تذوق لطعام أو شراب ، أو دون شعور بالأسرة أو بالمجتمع أو بالقيم الأخلاقية .

والذى يريد أن يكون فى صحة جيدة شديد الخوف على نفسه من المرض . . ويدفعه هذا الخوف من المرض إلى الوسوسة . فهو يخاف من الطعام إن لم يكن مطهرا ويخاف من الماء إذا لم يكن معقما . . ويخاف من الهواء إذا كان فاسدا . . ويهرب من الناس إذا كانوا مرضى ، أو توهم أنهم كذلك . . ويفزع من الأدوية إذا أسرف فى تناولها ، ويفزع إذا لم يجد الأدوية ، ويطارد الأطباء حتى يعالجوه ويطردهم إن لم يفلحوا فى ذلك .

ولو كان أى إنسان مشغولا فقط بصحته ، دون أشياء أخرى كثيرة فى حياة الناس ، لقلنا إنه مجنون تماما .

فكل عاطفة أو رغبة قوية تسيطر على الإنسان وحدها هى رغبة مجنونة . أو هى جنون انطبق على هذا الشخص . ولذلك يجب ترويض هذه الرغبات ووضع القواعد فى طريقها .

فالحب -مثلا- طبيعى ولكن إذا كان الحب هو الإضراب عن الطعام والكلام والعمل والحركة انتظارا للمحبوب . . وإذا كانت الحرية هى أن ترفع الفرامل عن كل قول وكل فعل . . وأن تحرر نفسك من المجتمع ، من قيوده وعقده ووحوشه وعاداته ، فليست هذه حرية . . إنها فوضى . . وإذا كانت الفوضى مرادفة للحرية ، فالجنون هو الوصف المناسب للإنسان .

ولكن الصحة العقلية والنفسية والجسمية هى كل هذه العواطف الملتهبة أو الرغبات المحترقة والنزوات المشبوبة . . كلها معا بصورة متوازنة ، فالصحة هى حالات من الجنون قد توازنت واعتدلت بالعقل وبالناس!



لا مانع من أن أضيف إليك بعض المعلومات الفلكية المهمة . . . آخر اكتشافات المرصد الفضائى الأمريكى هابل .

فقد اكتشف لنا منذ شهور أن الله قد خلق الكون من ١٣ ألف مليون سنة وليس ١٤ ألف مليون كما قيل من قبل .

واكتشف أيضا أن الكون قد نشأ من الغازات .

ولكن أحدث ما اكتشف هو : من أين تهبط على الأرض تلك الحجارة التى هى أحجام وأشكال مختلفة بعضها فى حجم رأس الدبوس وبعضها فى حجم ألف هرم خوفو .

ومن المعروف أن الكثير من الأحجار والكتل الجليدية تدور ضائعة فى الكون . . وأن مساحاتها بألوف ملايين الكيلومترات وأنها دائخة هكذا من ألوف ملايين السنين ، وأن من هذه الأحجار تكونت الشمس والكواكب فى مجموعتنا الشمسية ، أى أن بعض هذه الأحجار راح يتجاذب ويتقارب ويتماسك ويدور حتى كانت هذه الكواكب وهذا النجم الواحد : الشمس وبقية المواد الأولية لهذه الأجسام السماوية الضخمة لاتزال دائرة فى الكون . . تهرب من جاذبية وتدخل فى جاذبية إلى ما شاء الله .

ومن المؤكد أن ألوف الأجسام تسقط على أرضنا كل يوم . . ولكنها قبل أن تهبط على الأرض يؤدى احتكاكها فى الغلاف

الجوى إلى أن تتحول إلى رماد . . والحفر الموجودة على سطح القمر هى بسبب هذه النيازك أو الشهب أو المذنبات التى اصطدمت بأرض القمر . . وبكل الكواكب الأخرى ، وفى العام الماضى رأينا المذنب «شوماكر ـ ليفى ٩» وقد هبط على كوكب المشترى الذى يبعد عنا ٥٠٠ مليون كيلو متر على فترات وكان طول المذنب ملايين الكيلو مترات من الأحجار والجليد والتراب والغازات ، وقد سجلت المراصد الفلكية اقتراب هذا المذنب ودخوله جو كوكب المشترى واختراقه وما حدث بعد ذلك من أثر .

وقد أسعدنى الحظ أن أرى ذلك ، ولكن لم يسعدنى الحظ أن أكمل التلسكوب الفضائى الذى عندى ، وإلا كنت رأيته بنفسى ودعوت إلى ذلك الأصدقاء من المهتمين بالفلك .

وقد سقط على الأرض من ستين مليون سنة جسم فضائى ضخم ، هذا الجسم أشعل النار فى الأرض قبل سقوطه وكان من جراء ذلك اختفاء كل الحيوانات الكبرى : الديناصورات التى سيطرت على الأرض سبعين مليون سنة . . وفى أمريكا تشققات فى الأرض طويلة وعميقة . . هذه التشققات كانت بسبب النيازك والشهب الضخمة التى سقطت على الأرض وأحدثت فيها هذه التجويفات الهائلة ، ومن أعجب أحداث القرن العشرين ما حدث فى سيبريا سنة ١٩٠٨ ، لقد اشتعلت النيران فجأة فى مساحة ألف كيلو متر من غابات سيبريا ، وأضاءت أوروبا كلها وصارت نهارا بسبب هذا الانفجار لم يترك أثرا فى الأرض . وحار العلماء فى تفسيره ، قالوا : جسم ضخم تحول إلى تراب قبل لأن يدخل جو الأرض .

وقيل إنه انفجار ذرى روسى . . أو جاء من أماكن أخرى من الكون . وقيل سفينة فضاء جبارة احترقت قبل أن تصل إلى الأرض . . وقيل بل هى «ثقب أسود» . . والثقوب السوداء هى مجموعة هائلة من النجوم تقاربت وتجاذبت لدرجة أنها شدت إليها النجوم الأخرى وراحت تبلعها ، وسميت سوداء لأن الجاذبية الشديدة فى داخلها قد ابتلعت الأضواء الصادرة عنها . فظهرت لنا سوداء شديدة الجاذبية والكثافة ، ولو أفلتت من الثقوب السوداء قطعة حجر فى حجم رأس الدبوس فسوف يكون وزنها ألوف ملايين الأطنان . والذى حدث فى سيبريا سنة ١٩٠٨ هو ثقب أسود أحرق الغابات وأحرق الكرة الأرضية وخرج من الناحية الأخرى إلى الفضاء الخارجى! فمن أين تجىء كل هذه الأحجار الصغيرة والكبيرة؟ هذا ما كشفه المرصد هابل ، لقد وجد حول المجموعة الشمسية حزاما اسمه «حزام كويبر» يمتد إلى ٣ آلاف مليون كيلو متر حول المجموعة الشمسية وهو مكون من الحجارة والتراب والغازات والجليد وهو يتساقط حسب الجاذبية . . جاذبية الأرض أو الشمس والكواكب الأخرى . . وقد أطلق عليه هذا الاسم لأن عالما فكليا أمريكيا اسمه كويبر هو الذى أكد وجوده سنة ١٩٥٠ ، وهذا الحزام يتكون من بقايا المادة الأولية التى جاءت منها المجموعة الشمسية . . ومادام الحزام بهذه الضخامة فلا نهاية للأحجار التى سوف تتساقط على أرضنا إلى الأبد!



إذا ذهبت إلى البيت ووجدت الهواء فاسدا ، ووجدت الحجرات مظلمة ووجدت جوها صفراء ذابلة ، وجلست إلى المائدة ولم تجد للطعام رائحة ، أو لونا أو طعما وجاءت زوجتك أو أمك أو اختك تحدثك فى أمر مهم ، فأحسست أن صوتها يكوى أذنيك ، وأن كلامهما سخيف ، وأنك تتمنى لو كان ذلك حديثا فى الراديو يسمعه معك ملايين الناس ليعذبوا عذابك ، أو لتقوم إلى الراديو فتقفله وتستريح من هذا الكلام ، وإذا أحسست أن الوقوف على السلالم أحسن من دخول هذا البيت ، وأن الوقوف فى الشارع أحسن من الوقوف على السلالم ، وأن التطلع إلى وجه المارة والسيارات أجمل إذا أحسست بهذا كله . . فأنت فى حاجة إلى شىء . .!

وإذا ذهبت إلى مكان عملك وخيل إليك أنك مشدود من عنقك ، أو أن هناك حبلا طويلا يربطك من معدتك ، وأنه لولا هذا الحبل ولولا الحاجة ولولا الديون التى عليك ولولا أن هذا العمل خير من التسول لما ذهبت إلى هذا المكان المقرف . . إذا أحسست بهذا كله فأنت فى حاجة إلى شىء . .!

وإذا تركت البيت وتركت مكان العمل وذهبت إلى المقهى أو إلى المطعم أو إلى النادى تتردد كل يوم وأحسست أن وجوه الناس كالحة وأن أصدقاءك عبارة عن ملابس ممزقة تتحرك كما لو كانت

ألواحا خشبية وأن عيونهم زجاج ، وأصابعهم خشب ، وأظافرهم مسامير ، وكلامهم رصاص ، وأنهم عصابة من اللصوص وإنك فى غنى عنهم ، بل الخير لك أن تبعد عنهم ، إذا أحسست بهذا فأنت فى حاجة إلى شىء . إذا ابتعدت عن أصدقائك فى المقهى والسينما والنادى ، وذهبت إلى فتاتك . . خطيبتك . . ورحت تنشد عندها الخيال والجمال والهدوء ، وتطلعت إلى وجهها فلم تجد إلا خنادق سمراء تلمع فيها عيون صفراء . . تظهر منها أنياب كلها صدأ ، وإلا أنفا كأنه مقبرة ، وإلا شعرا كأنه مكنسة ولم يدخل أنفك إلا رائحة الورنيش الذى وضعته على حذائها وعلى جلدها . . وإذا أحسست ببلاهتك وبسخافة المرأة وتفاهة عقلها . وإذا أحسست أن المرأة لا يعجبها إلا كل تافه من الناس ومن الكلام .

وإذا أحسست أن صديقتك ككل امرأة تبحث عن الإنسانية فى الحيوان فتصادق الكلاب والقطط والخيول والقرود . . وإذا أحسست أن الحياة يمكن أن تكون بغير صديقة أو بغير حب أو بغير عاطفة ، وأن كل النساء سواء الصديقة ، الزوجة ، الأم والأخت ، إذا أحسست بهذا كله فأنت فى حاجة إلى شىء . .!

وإذا هربت من هؤلاء جميعا وخلوت إلى نفسك . . ورحت تهرش رأسك بيدك ثم رحت تهرش يدك برأسك . . وحاولت أن تنام فهرب النوم ، وحاولت أن تصحو فهاجمك النوم . إذا أحسست أن القهوة السادة تأتى لك بالنوم ، وأن اللبن الساخن يبعد عنك النوم ، إذا حاولت أن تفكر فى مشاكلك فى ماضيك أو حاضرك أو مستقبلك . . وأحسست أن رأسك بليد وأن أعصابك ميتة وأنك

كمن يمسك مفتاحا قديما ويديره فى أحد الأقفال ، فلا يدخل المفتاح ولا ينفتح الباب .

وإذا هربت من نفسك . . ورفعت يدك إلى السماء وأغمضت عينيك ، وفتحت قلبك وجمعت خطاياك كلها فى لحظة واحدة ، وآمالك كلها فى لحظة واحدة ثم لم تجد ما تقوله فأنزلت يدك إلى جوارك وأحسست أن رأسك يدور وأن صورا كثيرة قد التفت حولك . . صورة زوجتك وأمك وأخواتك . .

إذن أنت تحتاج إلى شىء واحد . .

هذا الشىء هو الراحة!



قليلون فى هذه الدنيا الذين عندهم هذه القدرة الفذة . حين يقول : سوف أفعل كذا ، فإنه يفعل كذا بالضبط . . فى الساعة والدقيقة!

مثل هؤلاء الناس عندهم الإرادة والقدرة والهدف . ويكون الهدف أعظم قوة تشدهم من الأيام . . وهو الذى يحدد كل قدراتهم وإرادتهم ، والإغريق ضربوا لنا مثلا رفيعا : ذلك الشاب الذى كسب الماراثون لأول مرة فى التاريخ . . ظل هذا الشاب يجرى ويسبق كل الشباب . . وعندما سقط ميتا عند خط النهاية فإنه تجاوزه بعدة أمتار . . أى أن هذا الشاب ظل يجرى حتى مات عند خط النهاية . . ولكن عندما سقط على الأرض فإن جسمه قد تجاوزه ، فقد خرج إلى ما بعد ذلك . .

ففى يوم ٢ أبريل من العام الماضى وقف شاب وحده فى درجة حرارة ٨٠ تحت الصفر فوق القطب الشمالى وراح يصرخ بأعلى صوته . . فلم يسمعه أحد . . بل أن الصوت كأنه يخرج من فمه متجمدا وسقط الصدى جليدا على الأرض . . حتى دموعه كانت تنزل على خديه كرات من الثلج هذا الشاب استطاع وحده أن يصل إلى القطب الشمالى . . وحده . . قطع ٦٠٠ كليومتر فى ٥٢ يوما وهو يجر عربة وزنها ٢٨٦ رطلا . . وعلى هذه العربة توجد

بعض الأطعمة الجافة : اللوز والبندق والزبيب ومسحوق والبطاطس وزيت الصويا . . ولما نظر فى ساعته ووجد أن هذا يوم عيد ميلاد ابنه السادس فإنه صنع لنفسه تورتة صغيرة وأشعل شمعة وقال لابنه الذى يبعد عنه ألوف الأميال سنة «حلوة» يا جميل!

هذا الشاب النرويجى اسمه بورج أوسلاند . . هو أول انسان فى التاريخ يصل وحده إلى القطب الشمالى . ولم تكن هذه هى المرة الأولى . فقد وصل إلى القطب الشمالى هو وصديق له قبل ذلك . وعرف كل ظروف الطريق القاتل ، ثم قرر أن يذهب وحده . . أن يفوز وحده أو يموت وحده . . المهم أن يكون وحده .

عندما عاد سألوه كيف حدث ذلك؟

أجاب : حدث .

كيف؟

قررت أن أذهب مهما كانت الصعوبات ، قررت أن أقدم لابنى أعظم وأصعب وأندر هدية من الممكن أن يقدمها أب لابنه فى عيد ميلاده . . وكان الوقوف فوق سقف الدنيا هى الهدية!

وأما كيف كان يقضى الوقت المخيف البارد حتى الموت ، ووسط الرياح التى تصرخ وتعوى وتزأر وأصوات الذئاب والديبة والثعالب فكان يقرأ الكتاب المقدس . . ثم يتوجه إلى الله أن يساعده على بلوغ هذا الهدف ، وكان معه أيضا جهاز تسجيل صغير ، وفى هذا الجهاز كاسيت عليه أغنية للمطرب جمى هندركس والأغنية اسمها : الهدف الأخير . .

ألم تفقد الأمل لحظة واحدة؟

لا . ولا لحظة!

وفى مواجهة الموت؟

كنت حيا .

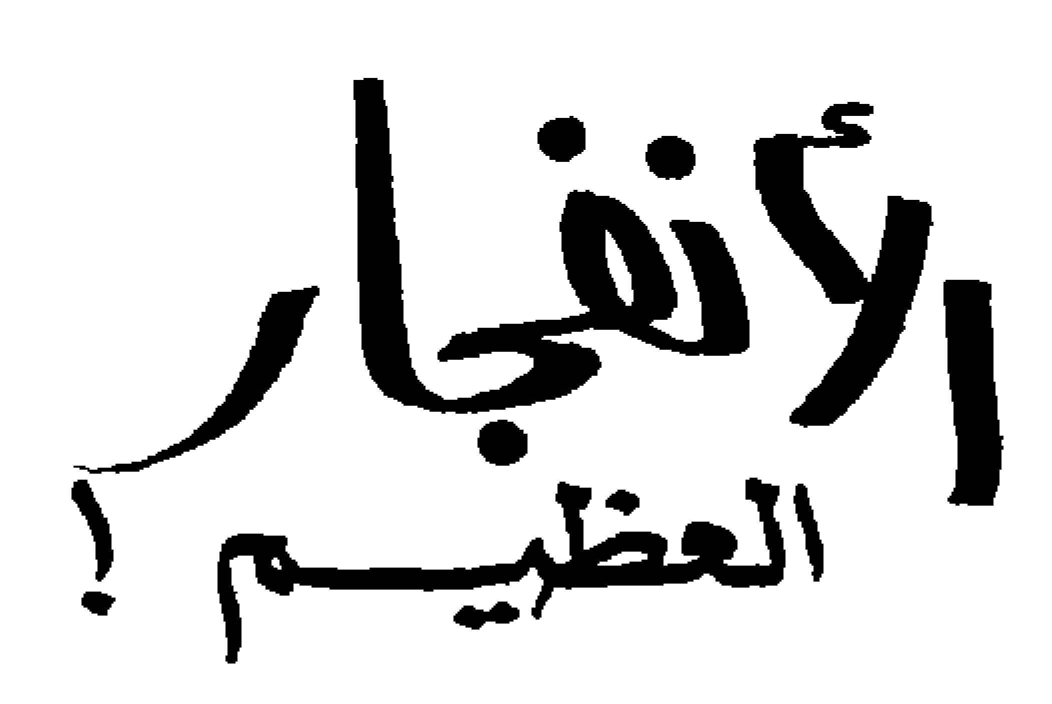
هل كتبت مذكراتك!

كتبت بعض النقاط .

وهل من الممكن أن تقرأ لنا بعض ما كتبت .

فقرأ صفحات تقول : لابد أن يكون الإنسان الذى خلقه الله على صورته عظيما عبقريا جبارا ، ولكنه لا يدرى . . إنه لم يضع نفسه فى امتحان عظيم . . لقد سمعنا عن أناس عاشوا أياما بلا طعام . . وأناس أقفلوا عليهم قبورهم شهورا ، ولم يمت أحد . ومعنى ذلك أن قدرة الإنسان على الاحتمال هائلة ، ولكننا لم نجربها . . أنا شخصيا قد جربت قدرتى على الاحتمال والصبر . . ولم أفقد الإيمان ولا الأمل!

وقرأ أيضا : تمنيت لو أستطيع أن أترك أثرا فى كل طريق مررت به حتى يهتدى الناس إلى مكانى . . إن القدرة الهائلة عند الحيوان على أن يشم آثار الحيوانات الأخرى قدرة خرافية ولابد أن الإنسان كانت لديه مثل هذه القدرة . ولكن هذه القدرة تلاشت لأنه لم يعد يستخدمها فعلينا أن نجرب قدراتنا دون خوف . . فى الأرض وفى أعماق البحر وفى الجو . . إن الإنسان قد خلقه الله عظيما ، ويجب أن يبقى كذلك!



لا خلاف بين العلماء الآن على أن الكون بدأ بانفجار عظيم أى بدأ مرة واحدة ، وأن البداية كانت من ذرة صغيرة جدا ربما كانت واحدا على مليون مليون مليون من المليمتر . . وكان هذا الانفجار قويا لدرجة أنه لاتزال ذراته وشظاياه تتباعد بسرعة ملايين الكيلومترات من الساعة -ويرى العلماء أن الكون قد انفجر من ١٤ ألف مليون سنة! ويقال ١٥ ألف مليون . . وأن الشمس عمرها خمسة آلاف مليون سنة والأرض عمرها أربعة آلاف مليون سنة . .

أما قبل نشأة الكون فلا نعرف ماذا؟ ولا نعرف كيف كان الانفجار؟ ولا نعرف الحكمة من كل ذلك . . فكل ذلك عند الله . ونحن فقط نحاول أن نفهم ما حدث وكيف حدث . . ولا نستطيع أن نعرف لماذا حدث؟

وأطلق الأمريكان أعظم مرصد فضائى سنة ١٩٩٠ والمرصد اسمه هابل . وهو اسم عالم فلك أمريكى . هذا المرصد بدأ يبعث لنا بمعلومات ثورية . . هذه المعلومات أخذت تهدم ما فى أدمغتنا من معلومات . بعض علماء الفلك يقولون : إن مرصد هابل لم يكتف بهم المعبد فوق أدمغتنا . . إنه بدأ يهدم أدمغتنا ذاتها . . فالصور التى بعث بها لنجوم ولثقوب سوداء وسدم تؤكد أن عمر الكون هو ١٢ ألف مليون سنة .

وأن هناك ثقوبا سوداء أكثر عددا مما كنا نتصور . . وأن هذه الثقوب في غاية القوة . . وأن هناك شعاعات من نجوم ربما كانت أقدم من الكون نفسه؟!

تعالوا نفهم هذه العبارات السابقة . أما الثقوب السوداء فهي مساحات تبدو سوداء في السماء ، وهي سوداء لأنها عبارة عن نجوم ومجرات انقضت عليها نجوم شديدة الجاذبية . . وهذه الجاذبية سحبت هذه النجوم . . وشدتها وابتلعتها ولاتزال توالي ابتلاعها . . وأخطر ما ابتلعت هو أشعتها . . ومادامت قد ابتلعت أشعتها ، فهذه الأشعة لا تصلنا . . ولأنها لا تصلنا فإننا لا نراها ولذلك كانت سوداء . . وإذا كانت الثقوب السوداء كثيرة في الكون فمعنى ذلك أن الكون يتقلص في ناحية ولايزال يتباعد ويتمدد في ناحية أخرى ولابد أن يجيء وقت بعد ألوف ملايين السنين أن يتقلص الكون حتى يصبح كله مادة سوداء تتضاءل حتى يعود الكون كما بدأ ذرة صغيرة . . ثم يعود الكون -بإذن من الله- إلى الانفجار من جديد!

أما النجوم التي أطول عمرا من الكون فمعنى ذلك أنها بقايا كون آخر . . أي أننا الآن أمام كون جديد هو الذي نحن طرف في إحدى مجراته ، وأن هناك كونا آخر بعيدا . . ومعنى ذلك أنه ربما كانت هناك أكوان كثيرة لا أول لها ولا آخر ولكننا نحن لا نعرف . . لابد من توضيح صغير . . فنحن -أي المجموعة الشمسية- نقع عند طرف مجرة اسمها (الطريق اللبني) هذه المجرة تضم ألوف ملايين النجوم مثل الشمس . . وفي الكون ألوف ملايين المجرات هي التي اسمها الكون . . هذا الكون الذي نحاول

أن نعرفه . . وإن كنا لا نعرف إن كانت هناك أكوان أخرى . . وقد جاءنا مرصد هابل يقول أن هناك نجوما أقدم من نشأة كوننا هذا . . فالنجوم مثل الإنسان والحيوان والنبات . . تولد وتكبر وتزدهر وتذبل وتموت . . أو تفترسها نجوم أخرى . . فكما إن الإنسان يعيش على الحيوان والحيوان يعيش على النبات . . فكذلك نجوم الكون كبيرها يأكل صغيرها وضعيفها . . سبحان الله العظيم!

لطف الله..

لا شىء أمتع من التردد على المكتبات كل يوم . نعم كل يوم . كنت أفعل ذلك عندما كانت فى القاهرة مكتبات أنيقة بسيطة ، أصحاب هذه المكتبات من الخواجات -لا لأنهم خواجات ، ولكن لأنهم يعرضون كتبا أوروبية ، كانت هناك مكتبة «الكتاب الفرنسى» التى تملكها الآنسة ايفيت فرزلى . ومكتبة كادموس . ومكتبة زلزل ومكتبة الغليون وغيرها من المكتبات الصغيرة . وكانت هذه المكتبات حريصة على أن تعرض فى فاتريناتها كل الكتب الجديدة . . وكانت تغير شكل الفاترينة حتى تلفت العيون . .

ومن أهم هذه المكتبات عندنا -عند جيلى من المثقفين المصريين مكتبة لطف الله سليمان ، وأينما ذهب لطف الله فنحن من ورائه . . ولطف الله بلدياتى نحيف وصوته غليظ وشعره أسود . وعيناه خضراوان ، وهو ماركسى متطرف . ومن محبى تروتسكى الذى انشق عن الشيوعية وظل ستالين يطارده حتى قضى عليه فى المكسيك سنة ١٩٤٠ ، فقد أرسل وراءه رجلا أسبانيا غامضا اغتاله فى هدوء . وكان تروتسكى كاتبا ذكيا وشخصية عنيفة . وقد دخل السجن كثيرا ونفى إلى سيبريا عدة مرات . . وكان أول محافظ لمدينة لينجراد بعد نجاح الثورة . . وهرب إلى خارج روسيا . . ثم عاد لينشىء الجيش الأحمر . . وطرد . . وكان من أهم آرائه أنه لا

وسيلة لبقاء الشيوعية إلا بالثورة المستمرة . . فقد كان يخشى ألا تعيش الشيوعية طويلا فى روسيا ولذلك كان من رأيه انعاشها بالثورة المستمرة . .

وكذلك كان رأى صديقنا لطف الله سليمان الذى كنا نلتقى به كل يوم فى مكتبته نتحدث ونقلب فى الكتب . . ونطلب المزيد من الكتب الجديدة . وكان يأتى بهذه الكتب . ولكن لطف الله سليمان وهو أهم ما فى هذه المكتبة . . أو جميع المكتبات . . وكان يلتقى فى مكتبته كل المثقفين المصريين ذوى الثقافة الماركسية . . وكان الأستاذ العقاد يتردد على مكتبته ويدور بينهما نقاش معروف مقدما . . فالعقاد يهاجم الشيوعية ويلعن الشيوعية ، ولطف الله سليمان يضحك ولا يناقشه طويلا . . وعندما كنت تلميذا فى الجامعة كنت أتردد كثيرا وطويلا على أكبر مكتبة إنجليزية فى مصر «د .هـ .سميث» التى احترقت يوم حريق القاهرة ، وكان لطف الله يدعونى إلى المجىء يوم الثلاثاء من كل أسبوع . . ففى هذا اليوم يفتحون صناديق الكتب الواردة من بريطانيا وبعض الكتب كانت تتمزق أو تنكسر بسبب النقل العنيف لهذه الكتب فى الموانىء المصرية . . وكان يعطينى هذه الكتب التى لا تصل للعرض . وتكون عشرة أو عشرين أو تكون قواميس -منتهى السعادة . . سعادتى وسعادته هو أيضا . . فقد كان مثقفا يشجع المثقفين . وكان موظفا فى مكتبة سميث . . ثم صار صاحب مكتبة .

آخر مرة رأيت لطف الله سليمان يرحمه الله . كان فى بيته فى باريس زرته مع الناشر المصرى أحمد رائف وكان الهدف هو أن يساعدنا على ترجمة كتاب «وصف مصر» الذى بدأه المرحوم زهير

الشايب الذى اختار فصولا من هذا الكتاب صدرت له فى عشرة مجلدات وكان عملا جليلا!

وحدثنى لطف الله سليمان عن ابنته الوحيدة التى اشترى لها شقة تقيم فيها وحدها . . وكان مهموما بماذا سوف يتركه لابنته . . أما زوجته جانيت عراقى وهى مصرية يهودية فكانت رقيقة لطيفة . وكانت شديدة الحب للطف الله وشديدة الغيرة عليه . .

وأشهد أننى عرفت لطف الله سليمان كما عرفه كل المثقفين من جيلى فلم يتغير لا شكلا ولا رأيا ولا حيوية . ورغم تقدمه فى السن . . فقد ظل حالما مؤمنا بأنه لابد أن تنتشر الشيوعية فى الدنيا . . وفى مصر . . وكان من أوائل الذين اتصلوا بالزعيم الجزائرى بن بيلا . . وقد عمل معه وكذلك عدد كبير من المثقفين المصريين وجاء بومدين وطرد بن بيلا وكل المصريين أيضا .

وظل لطف الله سليمان حالما . . وفى بيته فى باريس رأيت الكرة الأرضية . . ورأيته يقلبها وهو جالس سارحا شاردا . إنه لايزال يحلم كما كان تروتسكى!

وقد عاش لطف الله حتى انهارت الشيوعية فى روسيا فى كل دول أوروبا الشرقية . . وحتى تمزقت الكتل الشيوعية الكبرى : فى الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا . . وبدأت الجمهوريات المتحالفة مع موسكو تتفكك وتنسلخ عن الدولة الشيوعية الأم : روسيا . .

ولم تنتشر الشيوعية فى مصر بل انكمشت . . ولم يكن للشيوعيين دور فى مصر إلا فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر . . وكان ذلك أعلى ما بلغه الشيوعيون فى مصر ثم انهاروا وتفككوا حتى أصبحوا «عينة» تاريخية . .

ولم أعرف أن لطف الله سليمان قد مات -وأنا فى قطر- إلا من مكالمة تليفونية من ابن اخته . . وقد دفن لطف الله سليمان كما عاش . . غريب الدار والأهل . . عاش مجهولا ومات مجهولا . . ولكن لا أنسى ساعات طويلة من الحوار معه . . ولا المناقشات الطويلة المضنية مع معظم المثقفين المصريين فى مكتبته!

والقمر أيضـا ..

ليس فى آثارنا الفرعونية المصرية ما هو أوضح من الأهرامات . . خوفو وخفرع ومنقرع . . ولكن ظلت هذه الأهرامات لغزا ألوف السنين . حتى جاء نابليون إلى مصر ومعه عدد من العلماء الشبان من بين هؤلاء الشبان واحد عبقرى مفتون بالتاريخ الفرعونى . . هذا الشاب هو شامبليون الذى عثر على حجر رشيد سنة ١٧٩٩ واستطاع أن يفك اللغات المنقوشة على هذا الحجر ولأنه فك طلاسم اللغة الفرعونية القديمة فقد عرفنا منه أن هذه الأهرامات العظيمة هى مقابر لملوك مصر . . وعرفنا من النقوش على جدران المعابد والمقابر . . ما هى مصر الفرعونية . . ما عظمتها ما عبقرية أجدادنا وروعتهم . . وكيف أنهم كانوا أسبق من كل الحضارات فى الطب والفلك والزراعة والصناعة . . وكيف عرفوا أسرار الحياة وسر الكون . . فقد اكتشف العلماء أن بناء الهرم الأكبر يسجل نظريات فى الفلك لم نعرفها إلا أخيرا . . ولم نعرف حتى الآن ما هو سر التحنيط عند الفراعنة . . وغير ذلك من الأسرار التى كانت وراء هذه الأهرامات والمقابر .

ولولا اكتشاف شامبليون لتأخرنا كثيرا جدا فى معرفة معنى هذه الآثار الجبارة الواضحة أمام أعيننا ، ولكنها كانت غائبة تماما عن عقولنا .

ومثل الأهرامات الآن : القمر الذى يبعد عنا ربع مليون كيلو

متر . . والذى بلغه الإنسان ونزل عليه وصوره . وعرفنا جاذبية القمر . . وعرفنا طبيعة سطحه . . ونفكر الآن فى الحياة هناك . . الحياة تحت قشرة القمر . . وبذلك نتقى البرودة والحرارة على سطح القمر . . وهذا ما يدركه رواد الفضاء . . فملابسهم المواجهة للشمس ساخنة جدا ، والبعيدة عن الشمس باردة جدا . . ولذلك فقد رأى العلماء أن الحياة الأسلم هى تحت سطح القمر وقد أجريت تجارب هذا العام فى أمريكا لمعرفة صعوبات الحياة تحت أرض القشرة القمرية . . فأقاموا مستوطنات تحت الأرض وفى مثل جاذبية القمر . . التى هى خمس جاذبية الأرض . .

وقد جرب رواد الفضاء الحياة شهورا طويلة فى منطقة انعدام الوزن حول الأرض وقد أدت هذه الحياة إلى اضطرابات فى كل وظائف الجسم وفى عمليات الترسيب . . وفى تكوين العظم . . وقد عاد أكثر الرواد سالمين . . وقد قابلت واحدا منهم فى الرياض وهو رائد الفضاء الروسى تيتوف . .

إذن فالحياة فى منطقة انعدام الوزن ممكنة . . ولابد أن تكون ممكنة أيضا فى منطقة فيها جاذبية تساوى خمس جاذبية الأرض . .

ولكن جاءت معلومات من سفن فضاء تدور حول الأرض وأجهزة رصد الزلازل على سطح القمر أن هناك ظواهر غريبة . . هذه الظواهر جعلتنا نشعر بأننا أمام جسم غريب . . تماما كأننا أمام الأهرامات لم نكن نعرف منها إلا سطحها .

فقد سجلت بعض المراصد وسفن الفضاء أن هناك هزات على سطح القمر -هزات معناها أن القمر لم يستقر . . وأن هناك قوة فى

داخله تحرك السطح أو تهزه . . فهل هناك نار فى داخل القمر . . كالتى فى بطن الأرض! ثم ماذا يحدث لو كانت هناك زلازل وحدث انفجار . . فإن ذرات هذا البركان أو ترابه أو غازاته سوف تظل عالقة فى جو القمر مئات أو ألوف السنين تجعل السفر إليه مستحيلا مميتا .

وهذا معناه أن كل معلوماتنا عن القمر ليست صحيحة ، وأننا لابد أن نعيد النظر إليه . . وإلى ما لدينا من معلومات . .

إننا -إذن- نمشى عكس شامبليون . . فقبل شامبليون لم نكن نعرف . . ثم عرفنا . . أما بالنسبة للقمر فقد كنا نعرف ، والآن يجب أن نغير معلوماتنا . . أى أن نرفض كل ما كنا نعلم . . وأن نعود إلى البداية . . وهى أننا لا نعرف طبيعة أوضح الأجسام حول الأرض؟!

هذا ما نتمنى أن نعرفه فى سنة ١٩٩٥ وما بعدها !

إنما الفلوس !

أظن أنك لست في حاجة إلى من يقول لك : إن الإنسان القوى هو القادر على أن يفعل أى شىء .

فلا يوجد شىء فى هذه الدنيا لا ينحنى ويضرب تعظيم سلام للفلوس . . والفلوس قوة . ليس الورق الذى فى جيبك ولكن قيمة هذا الورق وقدرته الشرائية . . فهى تستطيع أن تشترى القانون والذين يحرسون القانون فى أية ساعة من ساعات الليل والنهار .

وفى استطاعة الفلوس أن تحول الفضيلة إلى رذيلة والرذيلة إلى فضيلة وأن يفتح الأبواب المغلقة وأن يغلق المفتوحة -ولا أظن أننى أتحدث عن اختراع جديد استطاعته الفلوس أخيرا ، إنها دائما كذلك .

تريد أن تعرف قيمة القرش الذى فى جيبك والذى فى جيب غيرك . . اذهب إلى مطعم وفى جيبك قرش صاغ ، وقل لى ما الذى تستطيع أن تحصل عليه بهذا الشىء الذى اسمه فلوس . . واذهب إلى فندق خمس نجوم وانظر إلى واحد جلس فى صدر مائدة بها خمسون من ضيوفه وانظر إلى المائدة ماذا لديهم من طعام وألوان الشراب ثم انظر إلى هؤلاء الذين يدورون حول هذه المائدة من الجرسونات كيف التوت أعناقهم وانكسرت ظهورهم تحية لصاحب الفلوس ، ومن ١٧ قرنا قال شاعر صعلوك يعيش على السلب والنهب . . قال لزوجته التى أرادت أن توقفه عن المال الحرام . . فقال لها : إن أحقر الناس هم الفقراء . . تتطاول عليه زوجته وأولاده الصغار . . ومهما كان كلامه حكيما ، فهو كلام فارغ . .

والغنى مهما كان كلامه سخيفا فهو يقول الحكمة والفلسفة البليغة . . والناس على استعداد للعفو عن أكاذيبه وجرائمه . . أما الفقير فهو متهم دائما ، قال الشاعر الجاهلى عروة بن الورد :

ذرينى للغنى أسعى لأنى

رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم

وأن أمسى له حب وفير

ويقصيه الندى وتزدريه

حليلته وينهره الصغير

قليل ذنبه والذنب جم

ولكن الغنى رب غفور

وأصبحت علي رقاب الناس عبارة حقيرة السمعة تقول : كل إنسان له ثمن . . أى أنه يمكن شراء أى إنسان . الصغير والكبير ، ولكن المشكلة ليست من يأخذ ومن لا يأخذ . . ولكن المشكلة هى : كيف الوصول إليه . . أى من هو الشخص الذى يتقاضى رشوة أو أجرا نيابة عن الرجل الكبير الذى هو لص والذى هو قادر على أن يبيع الدنيا والدين من أجل الملايين . . إنهم كثيرون ، وليس كل ذلك أن الفلوس قد كثرت ، فهى كثيرة دائما ، ولكن السبب أن الفقر قد زاد وأن العنف عام والانحلال شامل . ولذلك فالعلاقات الإنسانية فى البورصة . . طالعة نازلة . . ولكن كلها لها ثمن . . ولا يوجد معدن من المعادن لا يلتوى ولا معدن!

وأمام الجنس والمال والسلطة والشهرة يلتوى الحديد وكل المعادن الأخرى . . وإذا فوجئت بشخص -أو بنفسك- قد التوى . فلا

تسـأله ولكن ابحث عن القـوة الجبـارة التى تكويه وتلويه . . لن تخرج عن المرأة والفلوس والكرسى والشاشة .

والذين يملكون النساء والفلوس ومقاعد السلطة وأساليب الشهرة التليفزيونية أو الصحفية هم القادرون على تحويل الحديد إلى حرير . . والحرير إلى عجين ، وهم القادرون على أن يدوسوا القانون والأخلاق بالجزمة الذهبية فى كل مكان ، ولا تسرع باتهام أحد ، وإنما حاول أن تفهم لماذا الذى كان مستقيما قد التوى . . والذى كان قويا قد انهار والذى كان فاضلا صار ضالا . . هناك سبب قوى جدا جدا!

الماضى هنا!

هناك عبارة تقول : الماضى يعيش فى البحر الأبيض . . والحاضر على جانبى المحيط الأطلسى . . والمستقبل فى المحيط الهادى -أى الدول الآسيوية .

وهناك زيادة هائلة فى السياحة فى العالم . . ومن المتوقع أن ترتفع الدخول السياحية فى العالم كله إلى مليون مليون دولار .

ومن المواضح أن أكثر السياح زيادة وانتشارا فى العالم هم السياح الآسيويون . . من اليابان أولا وبعد ذلك من بقية الدول الآسيوية الغنية . . ويجب أن تدخل الصين فى هذا الحساب . . فسوف يزيد عدد القادرين على السفر حول العالم من أبناء الصين إلى ثلاثين مليونا من الأغنياء .

وفى إحصائيات «مركز السفر والسياحة العالمى» فى بروكسل أن الشرق الأوسط ترتفع نسبة الإقبال عليه بصورة واضحة . . كما أن دول الشرق الأوسط قادرة على ضرب السياحة بماضيها العريق وحسن استقبالها للسياح . . سوف ترتفع نسبة السياحة فيها إلى مئات المليارات فى السنوات العشر القادمة .

وفى كتاب لمؤلف يابانى اسمه «توجو أرو - شوشو» عن السياحة فى الشرق الأوسط قال : إن الشرق الأوسط قد أصابته مشاكل وأزمات وحروب وأعمال عنف كثيرة . . ولكنه استطاع ببراعة شديدة أن يخرج منها خروج الشعر من العجين فانتعشت

السياحة في مصر أكثر من أى وقت مضى . . وسوف تنتعش أكثر . . وقد أدرك المصريون بذكاء وخبرة طويلة ذلك فأقاموا قرى سياحية رائعة الجمال . . وسوف يقيمون قرى متوسطة التكاليف للشعب المصرى وللسياح المتوسطى الدخل .

وجاء أيضا أن دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قد عدلت نفسها تماما لكى تستقبل مزيدا من السياح الوافدين من آسيا وهم لا يزالون يتصورون أن كل آسيوى يابانى . . وهى تحية عظيمة للشعب اليابانى . . ولكنها غلطة كبيرة فى حق ألوف الملايين من الشعوب الاسيوية الأخرى التى دخلت العالم الأول وهجرت العالم الثالث إلى الأبد . . إنهم ليسوا جميعا يابانيين .

وقد جاء فى مقال لوليام وتثورب المحرر السياحى للوس انجلوس تايمز أن عيب المصريين أنهم ينظرون إلى السائح على أنه «قضية مسلمة» -أى أنه قادم لا محالة وإلا أين يذهب!

أكبر غلطة فى مبادئ السياحة . . فمبادئ السياحة تقول لك : إن السائح فرصة لكى تكسبه . . ولو رأيته فى اليوم عشرين مرة يجب أن تتحدث إليه كأنك تراه لأول مرة لكى تجعله يعود إليك دائما . . ولذلك يتفنن الأسبان واليونانيون فى الحفاوة بالمصريين . . فرجل السياحة الأسبانى يمسك فيه بيديه وأسنانه حتى يعود إليه . . أما الرجل اليونانى فهو يكاد يجعل نفسه خادما لك فى بلاده وفى بلادك . . فهو يتابعك بالورود والتحيات والقبلات والدعوات والتهنئة فى كل المناسبات . . وبذلك إن لم تكن أنت فردا فى عائلته ، فمن المؤكد أنه جعل نفسه أحد أفراد عائلتك!

ويقول أيضا : لابد لدول الشرق الأوسط أن تكون لها مشاريع مشتركة لأن الذى يزور إسرائيل يريد أن يزور الأردن ومصر ولذلك

فالأمريكى الذى يزور مصر لابد أن يذهب إلى إسرائيل والأردن . . وسوف يتغير هذا الوضع عندما تفتح أبواب لبنان . . أقوى جاذبية من معظم دول الشرق الأوسط .

والسياحة هى صناعة المستقبل . . وهى أعظم مصدر لكل الناس فى الشارع وفى الفنادق والبلاجات والمطارات . . ولذلك يجب أن تلقى العناية من الجميع وفى المدرسة والبيت وكل مكان حتى يجىء السائح مرة أخرى . . وحتى يتحول السائح نفسه إلى داعية إلى بلادنا .

ربما..
يجوز..

هناك قاعدة فى تاريخ الحضارة الإنسانية . . هى : أنه إذا تقدم علم من العلوم ، فإن العلوم الأخرى تمشى وراءه . وتحاول أن تقلده . ففى عصر الفيزياء كانت كل العلوم والفلسفات تمشى وراء الفيزياء . . وكذلك فى عصر الكيمياء . . ولقد رأينا العالم العظيم نيوتن ينادى بأن كل شيء فى الكون منضبط انضباطا رياضيا فحاولت كل العلوم الأخرى أن تقلده وأن تجعل الرياضيات والمعادلات الرياضية هى أساس كل العلوم . . حتى السلوك الإنسانى . . حتى علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الإنسانيات كلها تحولت إلى معادلات رياضية . مثلا : ما هو الحب؟ الحب = إعجاب + تعود + رغبة فى الامتلاك + غيره .

وفى أوائل القرن العشرين ظهر الفيزيائى العظيم أينشتين الذى أدخل «النسبية» فى كل شيء . . فكل شيء نسبى . . فكل شيء ليس دقيقا ولا منضبطا وأن الكون لا يعرف الانضباط . . ولكننا نحن الذين نريد أن يكون كل شيء منضبطا لكى نفهمه . . أو أن يكون كل شيء كبيرا لكى نراه . . أى أن الذى لا نراه ليس موجودا . . وكان هذا الرأى قبل ظهور الذرة والجهر الإلكترونى الذى تستطيع أن ترى تحته جزءا من ألف مليون من الذرة!

وكان من نتائج نظرية النسبية هذه أن ساد التفكير الإنسانى . أن كل شيء بالتقريب . . وأننا يجب أن نستبعد من كلامنا

كلمات مثل : بالضبط . . من المؤكد . . من المحتم . . لا مناقشة فى ذلك!

فالأصح أن نقول : تقريبا . . يجوز . . ربما . . هذه قضية لم يحسمها العلم بعد!

وجاء بعد ذلك عالم فيزيائى أعظم هو هينرنبرج ليقول : إن الكون لا يعرف إلا قاعدة واحدة هى أن أى شىء ليس منضبطا ولا دقيقا . . وأن الكون يكره الانضباط ويكره الدقة .

وأيام انتشار الفلسفة الماركسية والتفسير المادى للتاريخ سيطرت هذه الفلسفة على كل شىء . فأصبحت كل العلوم فى خدمة الماركسية . . فهى الملكة وكل النظريات مثل النحل الشغال فى خدمة الملكة . . فاتجهت الفسلفة والأدب والفن بكل العلوم إلى محاكاة الماركسية وتقليدها . .

وعلم النفس اتجه إلى تفسير كل شىء تفسيرا ماديا . . اجتماعيا . . فالمجتمع هو صانع كل شىء . . والناس ضحاياه . وكل الأمراض مصدرها المجتمع . أما الإنسان فهو ضحية .

ولذلك وجدنا الإنسان ضحية . . فكل شىء أقوى منه . والمجتمع هو الأقوى . والعوامل الاقتصادية والسياسية هى القوى القاهرة!

وكل المحامين أمام القضاة وقفوا يبررون الجرائم والانحرافات بأن المجتمع هو الذى فعلها أما المجرم الواقف أمام القاضى فهو برىء . ولذلك طلب كل المحامين الحكم بالبراءة لموكليهم . . لأنهم ضحايا قوى جبارة هى : المجتمع!

والآن ظهرت «الهندسة الوراثية» مسيطرة على كل الفكر العالمى . ومن آثار ذلك أن فى داخل المخ توجد كل الأمراض ، فالإنسان ليس مخيرا ولكنه مسير أى ضحية الخلايا الموجودة فى العقل .

مثال ذلك : هناك أطفال يستخدمون اليد اليسرى بدلا من اليمنى . . وقد كنا نظن أن الوالدين لو تنبها إلى ذلك فى الطفولة لجعلا الطفل يستخدم يده اليمنى ، ولكن انشغال الأبوين بالعمل هو الذى صرفهما عن الاهتمام بطفلهما الذى «انحرف» ولكن الهندسة الوراثية تؤكد لنا الآن أن هذا العيب خلقى ، ولا يمكن علاجه ، لأنه ليس مرضا فرؤساء أمريكا مثلا الذين يكتبون باليد اليسرى : ريجان وبوش وكلينتون وفى أمريكا ١٨ مليونا يستخدمون اليد اليسرى والسبب موجود فى المخ!

والمعنى أن هذا الانحراف موجود فى المخ ، وليس بسبب التربية أو إهمال الوالدين . . وسوف يبقى هذا الرأى مسيطرا على الفكر والعلم والمجتمع والأدب والفن . . إلى أن تظهر نظرية مخالفة تجعل بقية العلوم تمشى وراءها !

الذى ينقصنا . !

تغيرت بلادنا . .

لا أنسى يوم ذهبت إلى الغردقة أتفرج على شىء عجيب اسمه : مجاويش . . وشىء آخر اسمه الجفتون . .

لقد أقيمت قرية جميلة جريئة فى الصحراء كيف؟ لا أعرف ، ولكن أنا أمام تكوينات هندسية جميلة وكأن الصحف -كما هى العادة- تنشر أخبار مثيرة وكاذبة عن هذه القرى السياحية التى يمشى فيها الناس عراة . . فأين الأخلاق وأين الدين وأين حماة الفضيلة؟!

ولابد أن مثل هذه الأخبار قد أثارت الناس ودفعتهم إلى أن يذهبوا ويروا الأجسام الفرنسية العارية التى جاءت خصيصا لإفساد الأخلاق فى مصر؟!

وذهب الناس ، وعادوا . ثم ذهبوا فقد وجدوا شيئا جميلا ، ولم يجدوا هذه الفضائح التى تحدثت عنها الصحف كنوع من الإثارة وفى نفس الوقت نوع من الرفض لكل مبادرة جريئة . . أو محاولة جديدة لتفجير الصحراء والشواطئ وجرجرة الناس بعيدا عن الحياة المملة فى المدن الكبرى ، واستخراجا لفلوسهم أيضا فلا يذهب إلى المقاهى والنوادى والكباريهات الملوثة الهواء . . وإنما أن يذهب إلى الصحة والعافية والهدوء والجمال . .

وكذلك (الجفتون) الذى كان عملا رياديا من الدرجة الأولى فقد استطاع صاحب الجفتون بلدياتى المحمدى حويدق أن يجعل

الطائرات تجىء مباشرة من ألمانيا إلى الغردقة . . وكانت هذه أول تجربة من نوعها . . وتكاثر الألمان فى الغردقة . . وأقام «آل حويدق» نصف القرى السياحية فى الغردقة . . وهم أبناء أسرة تخصصت فى صناعة الفندقة ، فهم يملكون فنادق مدينة المنصورة . . الرجال والنساء على السواء . . وقد أضيفت إلى الغردقة قرية جديدة اسمها (الفرعون) بناها ويملكها بلدياتى المهندس أحمد المسرى . .

وقد حدثت نفس المغامرات المعمارية الحالية فى شرم الشيخ أيضا ، وتحولت شرم الشيخ ذات الاسم القبيح إلى تحفة معمارية جميلة . . كل قرية لها لون وطعم ومذاق . . إن فى مصر أجمل بلاجات الدينا -هذه عبارة يقولها واحد رأى كل بلاجات الدنيا . . ولست مبالغا ، وإنما هى الحقيقة ولأننا قد عدمنا الثقة فى أنفسنا فنحن نسارع برفض مثل هذه العبارات ونرى أنها نوع من الفشر أو التعصب الوطنى ، أبدا ، إنها الحقيقة .

ومنذ أيام شاهدت عملا رياديا جميلا ، فقد أقام المصريون فى مدينة القصير قرية سياحية رائعة (مفنبيك-القصير) . . إنها تقع على مساحة مليون متر . . أى فى مثل مساحة طابا . . ولن يمضى وقت طويل حتى تقام إلى جوارها قرى أخرى متنوعة . . وحتى ينتقل الناس إليها بالطائرة بدلا من الأتوبيس الذى يتعرض للسيول أو للمطلبات ويضيق المصطافون بحرارة جنوب مصر .

كل ذلك من أجل أن نستفيد من الإجازة ، وأن تكون الراحة تامة . . وهذا يدفعنا إلى أن نعمل أكثر وأحسن لكى نستريح بعد ذلك . . فالذين يعرفون الراحة ويستفيدون منها ، هم الذين يعرفون العمل وفائدته الشخصية والوطنية!

عارف ما الذى ينقصنا؟

أنا أقول لك : حسن المعاملة وحسن الأداء وهذا يحتاج إلى صبر وإلى مرونة وإلى علم . نعم . فالفندقة علم . ومعاملة الناس علم . وحسن المعاملة فن . وعقد الصداقة والمودة فن . . وكل الذين سافروا إلى الخارج وإلى أقرب الشواطئ المنافسة لنا فى قبرص واليونان وأسبانيا يقولون لك شيئا واحدا : أنهم فى غاية الأدب والذوق والامتنان ولا تنقطع صلتهم بنا . . فهم يرسلون لنا بطاقات التهنئة فى الأعياد الوطنية والأعياد العائلية .

الماء الماء!

فى الشرق الأوسط توجد مشكلة للمياه . .

فسوريا والعراق يحصلان على الماء من نهر الفرات والدجلة اللذين ينبعان فى «تركيا» . . و«تركيا» لها حق التصرف فى الماء . . واللعب به والمساومة عليه .

وإسرائيل تحصل على الماء من آبار الأرض المحتلة ومن أنهار الأردن والليطانى والحصبانى ومن تحت الأرض .

ولابد من بحث مشكلة المياه فى الشرق الأوسط حتى لا تكون السبب المباشر فى حروب قادمة . . تحت أى اسم آخر .

فالأمن المائى هو المشكلة القادمة . . أو هو السبب الجديد لقلاقل الشرق الأوسط . .

وقد درس الكونجرس الأمريكى هذه المشكلة ورأى ضرورة أن تجلس دول المنطقة معا وتبحث هذه القضية قبل الأوان . إن لم يكن قد آن الأوان ، فهذه المنطقة كانت تعانى من الجفاف ومن موت الملايين بسبب نقص الأمطار . . ونقص مياه الشرب أو المياه الصالحة للشرب . . مع اختفاء الأشجار واحتراق الغابات . .

فالسعودية مثلا تستمد ٩٠٪ من الماء من آبار تحت الأرض ومن تحلية مياه البحر . وكانت هناك مشاريع كثيرة لتوفير المياه بأشكال أخرى .

من بينها مشروع نقل الماء من مصر عبر البحر الأحمر . . وكان لابد من مفاوضة دول أعالى النيل-أثيوبيا بالذات . . هل توافق أو لا توافق . .

وكان عند السعودية مشروع نقل الماء على شكل جبال جليد تجيء من القطب الجنوبى ، وهذه الجبال تعالج بشكل خاص بحيث لا يؤدى احتكاكها بالماء إلى ذوبانها . . وبحيث إذا تعرضت لأشعة الشمس عند خط الاستواء لا تذوب . . هذا المشروع تولته بعض دور الخبرة الفرنسية . . وذهبت إلى شوط بعيد ، ثم توقف العمل نهائيا بعد أن أنفق عشرات الملايين .

و« تركيا» فاتحت السعودية والكويت ودول الخليج فى أن تبيع لها الماء عبر سوريا وعبر العراق ، لأن تركيا هى الدولة صاحبة الماء ، ولكن السعودية والكويت معا رفضتا هذا المشروع لأن الماء سوف يمر فى بلاد أخرى لا تضمن مودتها . . وسوف يصبح الماء فرصة للتحكم فى مصيرها وأمنها القومى . .

وقد سمعت أنا من الرئيس التركى «تورجوت أوزال» أنه سوف يحاول مرة أخرى لدى السعودية والكويت وكل دول الخليج . . وإنه بحث فى نفس الوقت عن ضمانات دولية . .

كما أعلنت بعض الشركات اليابانية أنها تبحث مع تركيا مشروعا لنقل الماء إلى إسرائيل عبر بالونات عائمة بين السواحل التركية .

وقال «لى شمعون بيريز» زعيم حزب العمل الإسرائيلى إن هناك مشروعا بإقامة محطات لتحلية مياه البحر بين مصر وإسرائيل . . المشروع يقوم على مسافة ثلاثة كيلومترات مربعة بين

مصر ومثلها من إسرائيل . ويكون هدف هذا المشروع هو رى صحراء سيناء وصحراء النقب أيضا . المشروع يدرسه خبراء من إسرائيل ومن أمريكا . . ولم يفاتحوا مصر بعد . .

وليبيا نفذت مشروعا عملاقا لضخ المياه الجوفية من أقصى الجنوب إلى الشمال لرى الأرض الزراعية بمعاونة فلاحين ومهندسين من مصر . . والمشروع الليبى يستمد مياهه من بحيرات طبيعية على مدى ألفى كيلومتر من شاطىء البحر المتوسط .

وإسرائيل -مثلا- تحصل على ٣٦٪ من مياه نهر الأردن -أى ما يعادل ٦٠٠ مليون متر مكعب . .

و٣٩٪ من المياه السطحية والجوفية من الضفة الغربية .

و١٤٪ من نهر العوجا

و٦٪ من حجز مياه الفيضانات

و٥٪ من إعادة تكرير المياه المستخدمة . .

وفى نفس الوقت ارتفع منسوب المياه المالحة . .

وسوف تظهر مشاكل جديدة لاستخدامات المياه وسرقتها . .

وفى نفس الوقت سوف تظهر مشاكل جديدة مع «تركيا» التى أقامت سد «أتاتورك» الذى كلفها ٢١ مليار دولار لتوليد الطاقة ، وسوف تقام سدود أخرى على مياه الفرات فى «تركيا» .

ولابد من الاتفاق على مشاكل المياه ، قبل أن تصبح هذه المياه مصدر النار والموت جوعا وحربا فى المستقبل القريب .



ثمانية رجال ونساء قرروا أن يحبسوا أنفسهم لمدة سنتين فى بيت من الزجاج مساحته ثلاثة أفدنة ونصف الفدان . . . ماء وبحيرات وغابات ومزارع وطيور وحيوانات . وأطلقوا على هذا البيت الزجاجى فى صحراء فلوريدا اسم «الجو الحيوى رقم ٢» لأن الجو الحيوى رقم واحد هو الأرض .

المشروع تكلف ١٤ مليون دولار دفعها أحد أصحاب مئات الملايين أما الهدف فهو معرفة ما هى أسباب الانهيار الصحى والعذاب فى كوكب الأرض . . هؤلاء الثمانية وبينهم طبيب واحد سوف يعيشون هذه الحياة المنعزلة تماما عن كوكب الأرض . . ولن يتم الاتصال بينهم وبين أى أحد إلا من بعيد . . فإذا جاء الأقارب فمن وراء النوافذ الزجاجية يرفعون لافتات ، يقولون فيها ما يريدون من أخبار سارة أو سيئة . . ولكن لا دخول للبيت الزجاجى ولا خروج منه . .

ولذلك فالبيت الزجاجى قد أغلق بابه الوحيد من الخارج وليس من الداخل . . ولديهم جميعا ما سوف يعملونه فى الزراعة والصناعة . . وإدارة المزرعة وضبط درجات الحرارة . . إسقاط الأمطار الصناعية وتربية الحيوان وعلاجه وذبحه وتخزين لحومه . . وهؤلاء الثمانية يؤمنون بأن خللا قد أصاب الأسرة الإنسانية . . ولم يتسع وقت أحد لكى يدرس الأسباب ، وهم قد تفرغوا لدراسة هذه الأسباب وتحليل كل تصرفاتهم . .

والروس لهم محاولات من نوع آخر ، فقد اهتم الروس بالحياة حول الأرض فى مدن فضائية ولفترات طويلة . لابد أن يعتمد فيها الإنسان على القليل من الطعام والماء . . لأن استيراد كوب ماء من الأرض يتكلف مئات الملايين لكى ينقلها صاروخ من قاعدة فضائية إلى المدينة الفضائية حول الأرض . .

وقد درس الروس أيضا الحياة تحت الأرض استعدادا للحياة تحت قشرة القمر ، ولذلك أقام رواد الفضاء فى كهوف تحت الأرض وفى عزلة تامة ولوقت طويل يأكلون ويحولون مخلفاتهم بعد المعالجة الكيماوية إلى طعام من جديد . . وكذلك الماء الذى يستخدمونه يعيدون معالجته لشربه . . ثم البول أيضا!

وقد درس الروس أيضا الحياة الجنسية فى سفن الفضاء فقد تزوج اثنان من الرواد ، وحملت الرائدة «فالنيتنان» فى الفضاء . . وانجبت طفلها الأول الذ ى تكلف حمله وولادته مئات الملايين . . فهو أغلى طفل فى العالم كله . . والدراسات كلها عن الحيوانات المنوية فى منطقة انعدام الوزن . . وعن حياة الحيوان والبويضة وتكوين الجنين فى منطقة انعدام الجاذبية . .

ولكن البيت الزجاجى الأمريكى هذا مختلف تماما عن كل هذه التجارب الفضائية . . فهو تجربة لحياة ثمانية من الرجال والنساء معا وعلى حريتهم تماما فى كل شىء . . ثم دراسة الآثار النفسية للعزلة والانطواء . .

وقد حمل الثمانية عددا من حشرات البيت وحشرات الحقل . . شىء عجيب أن يحرموا أنفسهم من الإذاعة والتليفزيون والتليفون والصحف . . إنهم مثل أهل الكهف . . غير أن هذا الكهف على سطح الأرض . . وهو كهف علمى مضىء!

ولم يكن هذا المشروع الغريب حماسا من العلماء وإنما قالوا : إنها فكرة فرقعت فى دماغ واحد استطاع أن يقنع مليونيرا أمريكيا . .

ويتوقع كثيرون أن ينفض هذا المشروع إذا أصيب واحد منهم بمرض كان من الصعب علاجه ، أو أن واحدا إنهار بسبب الملل والقرف و«الخنقة» . . والسجن الانفرادى الاختيارى بلا نتائج واضحة . .

ولكن العلم لم يتقدم إلا بمثل هذه الجرأة والإنطلاق بلا خوف . . فالعلم وتقدمه أكبر دليل على أن الإنسان لا يعيش على الأمل فقط . . وإنما بأن يحول الأمل إلى عمل . . إلى حقيقة ، فمن يدرى ربما اكتشفوا شيئا جديدا ؟!

تقتلنا المبيدات !

وللحيوان حقوق أيضا!

فإذا كانت للإنسان حقوق أن يعيش آمنا متحررا من الفقر والمرض والجهل والظلم ، فمن حق الحيوان أيضا . .

ولذلك فهناك دعوات كبيرة لقلوب طيبة تنادى بالرحمة بالحيوان الذى بدأ ينقرض بسبب وحشية الإنسان . . فحيوانات الغابة الإفريقية أخذت فى التلاشى . . الفيل يصطاده الأفارقة لأنهم يبيعون العاج المستخرج منه . . فمن أجل هذا العاج يتحول إلى أساور وأدوات للزينة عند المرأة الآسيوية والأفريقية والأوروبية أيضا تدور مذابح الفيلة فى تنزانيا وكينيا . . وكذلك الحيتان فى البحار .

والحيوانات ذات الفراء فى الشمال كلها تنقرض بسبب حاجة المرأة إلى جلد الدب والثعلب التى يجب أن يستخرج جلدها وهى صغيرة جدا . . أو يستخرجونها من بطون أمهاتها قبل أن تولد ، فيكون شعرها ناعما لينا لا يجرح أعناق النساء .

وفى الهند كانت مذابح للثعابين التى يسلخون جلدها ليصنعون منها الحقائب والأحذية والأحزمة وبعض ملابس المرأة . . ولكن فجأة أحست الحكومة الهندية أن شعبها سوف يموت من الجوع إذا مضت تبيع جلود الأفاعى . . لماذا؟ لأن الأفاعى تأكل الفئران التى تأكل حبوب القمح والأرز ، ولذلك قررت الإبقاء على الأفاعى حتى تأكل الفئران التى تهدد الشعب بالتهام طعامه!

ولما اقترب العلماء من الفيل أدركوا أن هذا الحيوان اجتماعى يعيش فى عائلات صغيرة ، ويعاقب الفيلة الصغيرة إذا خرجت عن الصف ولم تحترم تقاليد الأسرة ، ثم إن الفيل حيوان خجول ، فإذا أراد أن ينفرد بالأنثى فإنه يتخذ مكانا بعيدا عن القطيع . ثم إن الفيل يصدر أصواتا لا تدركها الأذن . . ويستطيع أن يحذر الفيلة التى تبعد عنه عدة كيلومتراتن بإطلاق أصوات لا تدركها أذن الإنسان . . ولذلك يلاحظ العلماء أن الفيلة إذا داهمها خطر فى منطقة من المناطق فإنها تتحرك جميعا فى وقت واحد . . وقد سجل العلماء كل ذلك وهم يتابعون نشاط الفيلة من بالونات فى الهواء ، وكذلك من أجهزة الرصد الإلكترونى التى ثبوتها فى أماكن مختلفة من الغابات ، كما أن الفيل يغنى ويرقص . ثم إنه حيوان وديع ودود . . إذا مرض واحد من هذه الفيلة فإنها تختار له مكانا نائيا . حتى لا تلتهمه الوحوش وتدور الفيلة حوله . . فاذا ابتعدت عنه جاء لزيارته واحد من الفيلة وقد يكون هلاكه فى هذه الزيارة . . ولكن الفيلة لا تترك مريضها دون أن تزوره أو تطمئن عليه .

ويحاول علماء البيئة وعلماء الحيوان أن يؤكدوا لنا أن هذا الفيل ليس ضارا ، ولكنه وديع لطيف ومن حقه أن يعيش . . فإذا مات . فسوف يكون فى استطاعتنا استخراج العاج منه .

وقد اتخذت الدول الأفريقية قرارات مشددة بتحريم صيد الفيلة ، وإعطائها فرصة أن يتزايد عددها . . فإذا تزايد حددت عدد الفيلة التى يمكن بيع لحومها واستخراج العاج منها . . أما الآن فلا!

وقد نادت ممثلة الإغراء الفرنسية برجيت باردو بحماية

الحيوانات البحرية . . والحيوانات ذات الفراء . . وطالبت النساء بعدم استخدام الفراء ، حماية لهذه الحيوانات الجميلة المسكينة . . ورصدت أموالا كثيرة -أموالها وأموال الناس الطيبين- لحماية الحيتان والدببة والثعالب فى أوروبا وأمريكا .

وفى مصر ندعو لحماية البيئة الحيوانية أيضا . . فأبو قردان الذى يأكل الديدان فى الحقل ، محرم صيده . . وكذلك الطيور الأخرى . . ولكن استخدام المبيدات الحشرية فى الزراعة والمواد الكيماوية أيضا قد تقضى على الطيور صديقة الفلاح وعلى الأسماك فى الأنهار والبحيرات . . حتى ماتت الحياة فى بحيرات شمال الدلتا . . وفى الترع أدت المبيدات التى نستخدمها فى رش «ورد النيل» إلى القضاء على الأسماك أيضا . . وأدى استخدام الرش فى الحدائق إلى أن أصبحت الزهور مسمومة فماتت ملايين النحل .

فكل هذه المبيدات انتقلت إلى اللحم واللبن والماء والخضروات التى يأكلها الإنسان!

وهكذا نرى أنه من الصعب أن نصدق الدعوة للرحمة للحيوان . ونحن لا نرحم الإنسان ويبدو أننا لن نفعل!

قم لنسألك !

(١)

وأنا فى الطائرة إلى موسكو كنت أسبق الأحداث وأحاول أن أرسم صورة سريعة لما سوف أراه فى شوارع موسكو ولننجراد . . هذه الصورة مأخوذة من أفلام الحرب ومن فيلم أنا كارينا والحرب والسلام وناراس بوربا وعن رواية د . زيفاجو التى كان قد طلبها منى الأستاذ مصطفى أمين لكى يقدمها للرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر . . فلم يكن قد قرأ هذه الرواية . . وبسرعة رحت أمحو الخطوط التى وضعتها تحت سطور هذه الرواية . . حتى لا يتصور الرئيس جمال عبد الناصر أننى ألفت نظره إلى ذلك . .

فالصورة بيضاء . . والأرض مغطاة بالجليد . . والناس يرتدون الملابس القاتمة لأنها من جلد الدب . . والناس يقفون يتكلمون ولا أسمعهم . . ثم كل واحد يمضى حتى يتلاشى من الجليد . .

والشوارع كلها من الجليد والطين . . والعربات تجرها الكلاب . . عشرات الكلاب تجر زلاقة واحدة . . والدخان يتصاعد من البيوت المصنوعة من الخشب . . فإذا دخلت البيت فهو دافىء تماما لأن هناك أخشابا تحترق . . ثم إن الناس يشربون مشروبا عبارة عن نيران سائلة!

أما الأشجار فهى مرسومة على أرض بيضاء . . ليست خضراء ولكنها باهتة الألوان . . ولا توجد طيور . . فالدينا برد جدا . . ولو طار طائر واحد لدقيقة واحدة لسقط كتلة من الجليد . . ولكن لابد أن هناك طيورا تتحمل الجليد ، كما أن هناك حيوانات وأناسا!

وتخيلت حوارا بينى وبين واحدة روسية جميلة جدا -فالروسيات جميلات- الوجوه والعيون ، ليس لهن مثيل فى أوروبا كلها . . ولكن عيب هذه اللوحة الفنية البديعة هو رائحة الكرنب المسلوق الذى يأكله الروس والذى يأكله الروس ونشمه فى بيوتهم -الروايات كلها تقول ذلك . ولابد أن الروس قد اعتادوا على رائحة البصل والكرنب تماما كما اعتدنا نحن على رائحة الحلبة أو رائحة الفسيخ . . وما داموا قد اعتادوا عليها ، فإنهم لا يتضايقون من رائحتها . . وأنا لم أكن أتصور أن رائحة (الجوافة) مؤذية للأنوف إلا عندما وجدت صديقا سوريا يلقى بها فى دورة المياه . . ثم إنه لا يطيق رائحة الفسيخ . . واندهشت لذلك!

ولما ذهبت إلى الفلبين وجدت أن ألذ الأطعمة عندهم : البيض الفاسد . . فهم يضعون عليه الفلفل والملح . ويا حبذا لو كانت البيضة بها كتكوت لم يتم تكوينه . . إنهم يأكلونها بلذة . . ولا تهم رائحة العفونة التى لا تختلف كثيرا عن رائحة الملوحة والفسيخ عندنا!

ولكن تهون رائحة البصل والكرنب أمام الجمال الروسى . . بل لو طلبت منى أن أضع البصل فى عينى فسوف أفعل ذلك -إنها تضحية متواضعة جدا أمام الجمال!

ورأيتنى فى الصورة التى أرسمها لأول لقاء مع أول فتاة جميلة أقول لها : يا خسارة . . أنت خسارة فى الشيوعية . .

فتقول : لا أفهم . . هل تريد أن تقول إن الشيوعية خسارة علينا . . هل تريد أن تقول إن الشيوعية هى التى أفسدت هذا البلد . . هل الفساد عندنا أكثر من الفساد الأمريكى والفرنسى . .

هل الجوع عندنا أسوأ من الجوع عندكم وفى أواسط أفريقيا!

قلت : لا . . لا . . إنما أريد أن أقول إن واحدة مثلك كان من الواجب أن تعيش فى أمريكا وألمانيا ترتدى أجمل ملابس وتتمتع .

تقول : أنا مهندسة . . ولست عاملة ملهى . .

وأفقت من خيالى عند هذا الحد من الحوار . . عندما هبطت الطائرة فى مطار موسكو . . وانفتح باب الطائرة ونزلت السلم أحاول أن أجد الفتاة التى بعثوا بها لكى تستقبلنى باسم الأدباء السوفييت فى أول زيارة لموسكو . .

ولم أجد أحدا . وجلست أستأنف حوارا آخر . هكذا :

أنا : الله يلعن أبو الشيوعية على أبو الأدب . . كيف لا يستقبلنى أحد ، مع أنكم الذين دعوتمونى للحضور . .

عندما ارتطمت جزمة غليظة بجزمتى ، ورفعت رأسى ، أنه رجل البوليس يقول لى بإنجليزية ركيكة : أنت نائم هنا من ساعة . . قم فعندنا بعض الأسئلة نوجهها لك!

. . . .

(٢)

كنا فى طريقنا إلى حضور مؤتمر (القارات الثلاث) فى «هافانا» عاصمة كوبا . . كنت ضمن الوفد الذى يرأسه «يوسف السباعى» . ومن أعضائه «سهير القلماوى» و«خالد محيى الدين» وعدد من الكتاب الشيوعيين المصريين والمرحوم «رفعت المحجوب» الذى اشتركنا معه فى غرفة واحدة فى فندق هافانا ليبرى (أى هافانا الحرة) -هيلتون سابقا .

الصورة لشوارع موسكو فى الأتوبيس مثل الصور التى نعرفها! جليد . . وأناس يرتدون الملابس السوداء يدقون الأرض . . أشباح فى كل اتجاه . . لا أحد يتوقف ولا أحد يكلم أحدا . . الكل يمشى ، وليس فى الإمكان أن ترى وجوه الناس ولا أن تميز معالم وجوههم . . ولا أعرف كيف يعرفون بعضهم البعض . . لابد أنهم يعتمدون على الشم . . فالرؤية لا تكفى! .

نحن ركبنا الأتوبيس أما «يوسف السباعى» والشيوعيون فقد ركبوا سيارات خاصة . . هذه بلادهم . . وهذه فنادقهم . . ومن أجل موسكو وطاعة موسكو وذل موسكو دخلوا السجون سنين طويلة . . وموسكو تفرح بهم وتعاملهم معاملة خاصة جدا : السيارة والفيللا والفودكا والكافيار والفتيات الجميلات . ونرى نحن الذين لسنا شيوعيين هذه التفرقة الواضحة الصارمة فى المعاملة -وهذا هو المطلوب ،لعلنا نغير رأينا ورؤيتنا . . أما الفندق فهو ساخن تماما . . ودرجة الحرارة خارج الفندق عشرون تحت الصفر وفى داخل

الفندق عشرون فوق الصفر . . والناس يدخلون ويخرجون من الدفء إلى البرودة دون خوف . . أما أنا فكنت خائفا أن انتقل من الدفء إلى البرودة مرة أخرى . . ولكنهم أكدوا لى أن الناس تحت الصفر لا يصابون بزكام ولا الانفلونزا . . لماذا؟ لأن فيروس الأنفلونزا لا يعيش تحت الصفر!

وكان لابد أن نذهب إلى الميدان الأحمر . . وفى الميدان الأحمر قبر الزعيم لينين . . أو لينين نفسه متمدد كأنه مات بالأمس . . أو كأنه لم يمت . . وهو مصنوع من البلاستيك الذى يتغير من حين إلى حين . . لإيهام الناس البسطاء إن «لينين» خالد لا يموت . . وعلى الرغم من أنهم جميعا كفرة ملحدون ، فإنهم ينظرون إلى «لينين» على أنه نبى أو نصف إله . . أو إله كامل!

وكنا نتزحلق ونقع على الأرض . . وينتهز الروس هذه الفرصة لكى يقفوا ويضحكوا أو يقولوا كلاما لا نفهمه . . فالأحذية التى أتينا بها غير مستعدة للمشى على الجليد . . ونحن أيضا غير مدربين . . وكان الروس يتوقفون ليتفرجوا علينا ونحن نتساقط . . فنحن قد أدخلنا السعادة عليهم ، بقدر ما أدخلوا علينا البرودة والوحشة والتعاسة . .

أما هؤلاء الروس الذين يقتربون منا . . فهم الذين يريدون أن يشتروا الدولار بسعر السوق السوداء . . وصرخ أحد الشيوعيين يقول : احترس . . لقد صدر قرار بإعدام كل من يتاجر فى العملات ، وهنا لا يعرفون الاستثناء!

بل لا يعرفون إلا الاستثناء وإلا تجارة العملة وفى السوق وفى السفارات الأجنبية . . وعلنا . وجاء الناس بملابسهم العادية ودقوا أبوابنا وأعطيناهم الدولارات وأخذنا الروبلات . . وسألونا إن كنا نبيعهم

البالطو . . أو الجزمة أو البنطلون أو الملابس الداخلية . . ونظر واحد منهم إلى ساعتى ، قلت : عشرة آلاف دولار . . يعنى نصف مليون روبل!

فلم ينطق الرجل بكلمة . .

ثم أشـار إلى الشـبـشـب إن كنت أبيـعـه . . فـقـلت : نعم . . واختلفنا على السعر . وفى الليل رأيت فتاة جميلة ترافق المرحوم يوسف السباعى» . فقالت : لماذا لم تبع له الشبشب؟ .

فاندهشت أنها تعرف . فقالت : اشتريه أنا .

قلت : بل هدية لك !

(٣)

فى الزيارة الثالثة لموسكو قالوا لى : الدنيا تغيرت . . تعال «اتفرج»!

وذهبت إلى فندق روسيا . وكان يوم أحد . . ودخلنا أحد الكازينوهات . . ووجدت عددا من الشبان يرقصون على إيقاع (الروك -اند-رول) . . وكانت حركاتهم عنيفة . . واحد يراقص خطيبته . . كأنه يقتلعها من الأرض ثم يعود فيغرسها فى الأرض . . إنهما مثل جذع شجرة جميز . . فهم يرقصان بالبالطو . . أليست بيضاء كالقشدة . . حمراء كشراب الورد . . عيناها فى صفاء الثلج والسماء معا . . ولها بريق الثعالب . . ولها عطش الإبل . . أما الشاب فقد حلق رأسه (ظلبطة) . . وأنفاسه عالية والبخار يخرج من أنفه . . أما هذه الانفعالات التى تظهر على وجه الفتاة وهى ترقص ، فلابد أنها (دوخة) بسبب رائحة البصل والثوم والكرنب التى تناولها هذا الشاب قبل الرقص!

سألت المرافق الروسى : هه؟

قال : ما رأيك؟

قلت : فى أى شىء؟

- فى هذا الذى تراه . . إن الرقص الأمريكانى لم يكن مسموحا به مطلقا . . أما الآن فمن حق كل شاب أن يرقص وأن يمرح . . علنا دون خوف . . انظر إلى الناس إنهم «يتفرجون» على هؤلاء الشبان وهم سعداء بهم . . وبهذه الحرية الجديدة!

- انظر أنت إلى الأمريكان الذين يرقصون معهم . . إنهم يرقصون فى غاية الرشاقة والإنسياب . . الرقص الروسى

ميكانيكى . . الرقص الأمريكى موسيقى . .

- هذه هى الخطوة الأولى . . وسوف نجد عشرات . . مئات الروس يرقصون أرق وأجمل وأنعم . . اصبر علينا . . إنها البداية!

وجاء الراقصان وجلسا بالقرب منا . . وسألت إن كان أحد منكم يتكلم الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية . .

قالت الفتاة : أنا أتكلم الألمانية فأجدادى من الألمان . .

قلت لها : أنت أجمل من الرقص : إن الذى يراك يتمنى لو جلست كما أنت دون حركة . . فأنت لست فى حاجة إلى أن تضيفى الموسيقى إلى جمالك . . فجمالك هو الذى يضيف إلى الموسيقى كل شىء . .

- أنت تجاملنى كثيرا جدا . .

- أنا أقول لك الحقيقة . . ولا بد أنك سمعت مثل هذه العبارات من ألف واحد وواحد . .

- ثم وقع كوب العصير الذى كان فى يدى لهول ما رأيت . .

إنها أجمل من رأيت فى موسكو . .

- ثم قفزت فى رشاقة الغزال وهى تقول : ماذا جرى؟

- أنت يا سيدتى قنبلة . . وهذه شظاياك . . آه . . لو انتقل جمال الجسم إلى جمال الفكر . .

- لا أفهم .

-خسارتك فى الجوع والفقر والقهر . . خسارتك فى الشيوعية!

- لا أفهم .

- إننى أتكلم بالعربية أدعو لك بالصحة ولجمالك بطول العمر . . وبالسم الهارى لكل من يراك ولا يصلى على النبى!

(٤)

ذهبت إلى لننجراد -عاد إليها اسمها القديم سانت بطرسبرج- أى مدينة القديس بطرس . المدينة جميلة واسعة . . مثل كل شىء فى الاتحاد السوفييتى . . درجة الحرارة ٣٢ تحت الصفر . . الفوانيس تضاء من نفسها عند غروب الشمس . وأدهشنى ذلك . أدهشنى أكثر أننى عرفت أن فى مصر فوانيس مثلها ، ولكننا لم نلاحظ ذلك . .

أما أعجوبة الدنيا الثانية فهى متحف أرميتاج الذى يضم ١٦ مليون لوحة فنية -تصوروا . . والذى يريد أن يتفرج عليه لابد أن يأخذ له إجازة من ثلاثة شهور إلى ستة لكى يرى ويتأمل ويتذوق!

سألت المرافقة : إلى أين اليوم؟

قالت : سوف نذهب إلى فيلا أحد الشعراء خارج المدينة .

الفيلا باللغة الروسية اسمها (داتشا) . . وقد اختاروا لى شاعرا يتكلم لغة أوروبية ، وكانت الإيطالية . لا بأس . فأنا أتكلمها أيضا وبطلاقة . وهو يتكلم الإيطالية لأن أجداده من الإيطاليين . .

الفيلا صغيرة . نظيفة . أنيقة . فيها كل ما هو ضرورى . الصالون به خمسة مقاعد وتربيزة وأهم قطعة فى الصالون هى الثلاجة . ضخمة . طويلة . عريضة . وأهم ما فى الثلاجة هى المشروبات .

وتحدث الشاعر عن هذه المشروبات ثم سألنى : ماذا تشرب؟

قلت : يانسون!

فالتفت حوله يطلب النجدة ويسأل عن معنى هذا الشراب . . فضحكت قائلا : ولكنى لا أشرب .

- إذن .

- كوكا . .

- لسنا فى سان فرانسيسكو!

- قلت : لبنا ساخنا!

- وتنام بعد كم ساعة من تناوله؟!

- إذن قهوة سادة .

وأشار إلى زوجته . . وبدأنا نقول النكت . . ولما تعمقنا فى النكت أشار إلى ابنته (١٦ سنة) أن تنهض وتتركنا وحدنا . . إذن هو رجل محافظ . . ولا يحب لابنته أن تسمع مالا يليق بالبنات فى مثل سنها!

وتحدثنا عن الشعر المعاصر القديم والحديث والرومانسى . . والسريالى . . وكيف أن الروس يجدون فى الشعر والموسيقى أعظم لذات الحياة . . وأعظم الناس وأكثرهم احتراما : الشعراء والموسيقيون . . وأنهم يعيشون أحسن من الوزراء بسبب هذه الموهبة . . وأنهم أكثر حرية . . وأكثر انتقالا بين روسيا وبقية الدول الأوروبية .

وفجأة قال : ألم تلاحظ شيئا هاما؟

فنظرت حولى فوجدت على الحائط قبقابا من الخشب الملون . . فقلت : صناعة مصرية . .

فقال مستنكرا : فقط . . إنه أكبر من ذلك . .

وانتظرت أن يوضح لى ذلك . فقال : كيف لا تعرف أن هذا القبقاب نسخة طبق الأصل من القبقاب الذى استخدمته (شجرة الدر) فى قتل زوجها . . ومن قباقيب الزوجة الأولى التى قتلت بها شجرة الدر -فهى قباقيب لها تاريخ وطنى!

وبسرعة مددت يدى إلى جيبى . واخرجت سلسلة المفاتيح . . ونزعت منها كل المفاتيح وقدمتها له . . ونظر إليها . . فوجد أنها سلسلة المفاتيح فى آخرها جزمة صغيرة . . فقلت له : وهذه الجزمة نسخة من الجزمة التى رفعها خروشوف وراح يدق المنصة فى الجمعية العمومية للأمم المتحدة!

وضحك . . وجاءت ضحكته مصطنعة . . فهو لا يستطيع أن يضحك ، فلايزال خروشوف على رأس الاتحاد السوفييتى!

(٥)

ذهبت إلى مدينة بخارى فى جمهورية أزبكستان . . إنها جمهورية إسلامية . . ومثل كل المدن السوفييتية الكبرية بها دار للأوبرا -لابد من مسرح يظهر عليه الباليه والفنون الشعبية والفرق الموسيقية .

كان الذى يرافقنى هو ابن شيخ الإسلام واسمه (زيف الدين) . . وحاولت أن أقنعه بأن اسمه يجب أن يكون سيف الدين . . ثم شرحت له الفرق بين المعنيين . ولكنه أصر على أنه زيف الدين . . وهو بالفعل كذلك .

سألنى : تصلى .

- طبعا .

- كم مرة؟

- خمس مرات .

- كل يوم!

- نعم .

كل يوم؟!

- الدين يقول كده .

وأنتم هنا كم تصلون فى اليوم .

- ليس كثيرا .

- أنت شخصيا .

- لا أصلى . . ولكن إذا جاءنا ضيوف أو إذا جاء ضيف كبير!
وذهبنا معا إلى المسجد . . لقد كان مغلقا تماما . لم نفتح بابه إلا بصعوبة شديدة جدا . . ثم فتحناه بالقوة . . الآيات القرآنية على الجدران . . اكتشفت أن آية قرآنية ناقصة . . الآية تقول : «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . . وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش (إلا) الله . .» .

ولم أجد من المناسب أن أقول لشيخ الإسلام إن هذه الآية غلط . وأنه من الضرورى تصويبها . . ولكن أحدا لم يتنبه إلى ذلك . . ولا أحد يدخل المسجد . . ثم أن أحدا لا يعرف اللغة العربية . .

قلت لمرافقى سيف الدين : عندك عروسة؟

- لمن؟

- لى .

- ألوف الفتيات هنا يردن الزواج والحياة فى البلاد الإسلامية . . ما هى عاصمة بلدك .

- القاهرة .

- كم تبعد عن مكة؟

- حوالى ألف كيلومتر . .

- وهل الحياة فى مكة جيدة .

- جدا . .

- لماذا؟

- مكة فى السعودية كما تعلم . . والسعودية دولة مسلمة وغنية والحمد لله .

- ما هى شروط الحياة هناك؟

- أن تسافر إلى هناك .

- ولماذا تريد أن تتزوج من هنا . . ما هى صعوبة الزواج فى بلادكم . .

- إنما أردت أن أعرف كم يتكلف الزواج هنا . .

- ليس كثيرا . . ولكن الزوجة الواحدة تكلفك أكثر من الزوجات الأربع التى عندك .

- لا أحد يتزوج أربعا . . واحدة كثيرة جدا . .

- كيف أنت لست زوجا لأربع؟

- طبعا . . لا . . من النادر أن تجد واحدا قد تزوج اثنتين . . رغم أن من حقه شرعا أن يتزوج أربعا . . ولكنه لا يستطيع ماليا أن ينفق على واحدة فكيف إذا كن أربعا .

- هل تعجبك المرأة هنا؟ أنا لا تعجبنى! إلا المرأة الروسية فهى أجمل أجمل .

ولكن المرأة الروسية لا تتزوج واحدا مثلى من أصل آسيوى ومسلم . . إنها تتعالى علينا . . وتنظر لنا من فوق . . ولكن أنت تستطيع أن تتزوج من أمريكا ومن فرنسا ومن ألمانيا . . أجمل نساء الدنيا . . أما من هنا ، فلا داعى مطلقا . . سوف تأكل الأرز بالزبدة

والبصل والثوم والكرنب حتى الموت . . ثم كيف تخرج من الاتحاد السوفييتى . . لن يسمحوا لها . . وإذا خرجت معك فسوف يراقبون أباها وأمها . . وربما أدخلوهما السجن . . بتهمة الاشتراك فى شبكة المخابرات الأمريكية ضد الاتحاد السوفييتى . .

– وكيف تجرؤ أن تقول على بلادك مثل هذه الاتهامات . ثم تقولها لواحد أجنبى مثلى .

– أنت أجنبى ولكنك مسلم . . والمسلم لا يخون المسلم .

– هذا صحيح . . ولكنى أدعوك إلى الاحتراس .

– ولكن والدى هو الذى نصحنى أن أكلمك بحرية ودون خوف منك . . فنحن نريد العالم أن يعرف عنا . . ولن أجد خيرا من واحد مسلم مثلى ينقل هذه الرسالة بأمانة!

ثم اقترب منى ليقول : لا تحاول أن تتزوج من هنا . . فالمرأة هنا ليست أنيقة ولا نظيفة . . وكلامها كثير . . ومن الممكن أن تبعث بك إلى السجن!

(٦)

الكلام فى دماغى كثير عن الطب فى الاتحاد السوفييتى . . أناس يقولون : متقدم جدا . . وأناس يقولون : بدائى جدا . والعقل يقول : إن الروس متقدمون فى كثير من العلوم . . ولكنهم متأخرون فى صناعة الأدوات . . أى فى التكنولوجيا . . فهم قد سبقوا الأمريكان إلى الفضاء الخارجى . . ولكن الأمريكان بسرعة لحقوا بهم وتقدموا عليهم جدا . . والروس متقدمون فى صناعة السلاح . . عندهم أسلحة أكثر تقدما من الأسلحة الأمريكية . . والأمريكان أيضا تقدموا وتفوقوا . .

ولكن البيت الروسى ليس فيه ثلاجة . . ولا تقف أمام بيت كل مواطن سيارة صغيرة أو كبيرة . .

وذهبت إلى طبيبة الفندق وقلت لها : (وأنا شديد الوجع) هنا . . وهنا . . يا دكتورة وخصوصا هنا . . بطنى . . مغص . . انتفاخ . . تقلص . . مع عرق بارد وأوجاع فى الجانب الأيمن . . ثم فى الأيسر . . ثم وخز فى الصدر وفى فقرات أصابع اليدين . . وصداع فى العين . . ما رأيك يا دكتورة . . أعمل إيه . . وسكتت الطبيبة . . ثم أخرجت قرطاسا صغيرا من درج المكتب . . وأعطتنى حبة بيضاء كأنها مصنوعة من الجير . . أو من الدقيق . . ولم أكد ألمسها حتى سقطت منها فتافيت على المكتب ، وسألتها : ما هذا؟ قالت بلغة إنجليزية ركيكة ذات لهجة روسية : قبل النوم . . وتعال غدا صباحا!

سألتها : هل معقول كل هذه الأوجاع . . ويكون العلاج قرصا واحدا . . ثم أنك لم تكشفى على لسانى ولا على عينى ولا

بطنى . . ولا قلبى . . ولا عرفت ضغطى ونبضى . . كيف؟

ولم تشأ أن تعلق على كل هذا الذى قلت ، ولكنها عادت فسألتنى : ماذا أكلت أمس؟

- الأرز بالزبد . . والسلطة . . والكافيار والبصل .

- وماذا شربت؟

- شايا خفيفا . . فهنا كل شىء أحمر إلا الشاى . .

- ثم ماذا؟

- لم أشرب غير ذلك .

- وهل ضايقك الشاى؟

- نعم . .

- وهل ضايقك الأرز؟

- نعم . .

- وهل ضايقك البصل؟

- نعم . .

- غدا سوف تكون أحسن . .

وذهبت إلى غرفتى . . وتناولت قرصا من الأسبرين ، ونمت نوما عميقا ، وألقيت من النافذة بالقرص الذى أخذته من الطبيبة ، ورأيت القرص وهو يتدحرج على الشارع الجليدى . . ويتلاشى بعيدا .

وذهبت إلى الطبية ، فبادرتنى بقولها : أرى أنك أفضل . . لا بد أنك أخذت القرص ونمت فورا .

- هذا ما حدث ، فما هى أسباب هذا الاضطراب الذى أصابنى؟

- لا شىء . . ليس عندك أى شىء . . ولا يمكن أن تكون كل هذه الأعراض التى أصابتك صحيحة . . إنها وهم . . ولا يمكن

لقرص واحد أن يعالج كل هذه الأعراض . . فالقرص الذى أعطيته لك من البودرة . . ليس دواء . . ولكننا نعالج به المرضى الموهومين . . أو الصحفيين الذين يفتعلون الأمراض والمشاكل لكى يكتبوا عنها . . هاها . . هاها!

وضحكت أنا أيضا وقلت لها : كيف تعرفين أننى أتظاهر بالمرض ثم لا يبدو عليك أنك عرفت من أول لحظة؟

- إنه تدريب طويل . . أنا أصادف الكثيرين من السياح الذين عندهم حب استطلاع شديد . . فقد اعتدت على ذلك . . واعتدت على الموهومين . . ثم اعتدت على الذئاب الذين يعاكسون طبيبة جميلة . . لمجرد أنها جميلة . .

وهى بالفعل جميلة . . كل شىء فيها بديع . . إلا ملابسها . . فهى مواضعة ولا ترتديها ممرضة أرياف . . قلت لها : متزوجة؟

قالت : عندك عريس؟

قلت : أنا!

قالت : كذاب!

قلت : عندنا أغنية مشهورة اسمها : حلو وكذاب . . أنت الحلو وأنا الكذاب . . ما رأيك؟

- فى الأغنية؟

- فى الزواج؟

- أقدم لك زوجى . .

ونظرت ورائى لأرى شابا طويلا عريضا وسيما . .

قالت : ما رأيك؟

قلت : رأيى هو رأيك!

(٧)

قبل أن أذهب إلى موسكو هذه المرة كنت مبهورا بما قدمه جورباتشوف إلى الشعوب السوفييتية . . وإلى الدنيا . . فقد أعلن عن فساد الحكم فى بلاده وفشل الشيوعية فى أن تحقق الرفاهية للشعب . . أو الحد الأدنى من الاحتياجات الإنسانية . .

يعنى إيه؟

يعنى أن الشيوعية بعد سبعين عاما لم تحقق إلا الفشل . . وإلا خراب الدنيا كلها . . وإثارة الطبقات بعضها على بعض . . وإلا المؤامرات والجواسيس والعمالة والخيانة فى كل مكان . . وإشاعة الأحقاد وإشعال النار بين كل الناس أملا فى هدم الكرة الأرضية لصالح البوم والدمار . . ولكى تسود الشيوعية فى كل مكان . . وتهدم الرأسمالية الأمريكية والأوروبية . . ولم تفلح الشيوعية فى أن تغزو أمريكا . . ما الذى تستطيع أن تقدمه للمواطن الأمريكى؟ . . أن تقدم له ثلاجة؟ . . عنده أكثر من واحدة . . وعنده أكثر من شقة . . وعنده أكثر من تليفون ومن تليفزيون ولا يخاف من الفقر . . ولا يخاف من البطالة فإذا لم يجد عملا أعطوه مرتبا شهريا . . لا خوف عنده من المرض ومن الجوع ومن الظلم . .

وأصدر «جورباتشوف» كتابة (بريسترويكا) ومعناها إعادة البناء . . بناء الاتحاد السوفييتى . . وقد وصف الحزب الشيوعى بأنه رمز الفساد والانحلال والرشوة وأن أقطاب الحزب الشيوعى يعيشون كالرأسماليين تماما . . لهم مزايا ولهم هدايا . . ثم إنهم فوق

القانون . . بينما الشعب لا يجد قوتا ولا شرابا . . ولكن أقطاب الحزب ملوك بلا تيجان . . ثم إنهم يتجرون فى المخدرات والمهربات ، يعنى إيه؟ يعنى لابد من إصلاح الخلل فى روسيا بالقضاء على الحزب الشيوعى الذى أوقف نمو العقول وأوقف تطور أداة الحكم . . ولابد من القضاء على المخابرات التى أرهبت الشعب وملأت قلبه بالرعب . . فلا أحد لا يعرف ما مصيره إذا همس بكلمة أو اعترض . . إنه يختفى فى الصحارى الجليدية حتى الموت . . كذلك فعل «ستالين . . لقد قتل وحده عشرين مليونا . . ولا أحد يعرف الأسباب الواضحة لذلك!

والتفت «جورباتشوف» إلى شباب الاتحاد السوفييتى . . لقد لاحظ أنه ضاع .

ضاع لأنه لا يجد طريقا ، وإذا وجد الطريق لم يجد العلامات ولا اللافتات التى تهديه . . والشباب الشيوعى يتعاطى المخدرات . . أى أنه فى غيبوبة . . هارب من حياته . . بينما الشباب فى الدنيا كلها ينعم بشبابه ويشارك فى بناء بلاده بالعقل والوعى والصحة والعلم والأمل . . ولا شىء من ذلك عند الشباب الروسى ، ولابد من الإصلاح ، والإصلاح هو إعادة البناء . . وليس بالحديد والنار ، وقبل كل شىء بالحرية . . حرية الكلام والاختلاف . . وحرية الانفتاح وإطلاق الأيدى . . وإطلاق الألسنة والأقلام . . والانفتاح على العالم . . ويجىء العالم كله إلى روسيا . .

وتحررت الصحف وهاجمت الحكومة والحزب . . وتحرر التليفزيون فراح يذيع الأفلام الأمريكية . . وجاءت البضائع الغربية . . وارتدى

الروس بنطلونات الجينز . . وأكلوا الهامبورجر ومضغوا اللبان وشربوا الكوكا . .

وأطلق «جورباتشوف» سراح كل الدول الشيوعية . . وترك ألمانيا شرقا وغربا تتحد . . انقلبت الدنيا الشيوعية ، وراحت تختار حكوماتها وتقيل زعماءها الشيوعيين الطغاة . . وتخففت روسيا من أعباء الدول الشيوعية التى أنفقت عليها ألوف الملايين أملا فى الاحتفاظ بها وفى إسقاط الرأسمالية الأمريكية!

فسقطت الشيوعية بيدى «جورباتشوف» أعظم أبنائها . . سقطت فى روسيا وفى أوروبا الشرقية . . وانتهت الحرب الباردة . . وتنتهى الحرب النووية . . وسوف يتلقى «جورباتشوف» المساعدات المالية والاقتصادية مكافأة له على الثورة الهادئة العظيمة ، التى ليس لها نظير فى التاريخ ، وأصبحت أمنيتى وكل الناس ، أن نرى «جورباتشوف» هذا العظيم الفريد فى تاريخ القرن العشرين! .

(٨)

كانت ألمانيا الشرقية ترعى الإرهاب العالمى . . ففيها يتدرب الإرهابيون على كل أنواع الأسلحة . . بمساعدة روسيا طبعا . . فكان من الفلسفة الشيوعية خراب الدنيا حتى يتحقق العدل بين الناس : أن نصبح جميعا متسولين مفلسين حاقدين مخربين مثل الاتحاد السوفييتى .

وفى نفس الوقت يزيفون كل شىء . . ففى الألعاب الرياضية التى تفوق فيها الألمان الشرقيون كان السبب هو حقن الجميع بالهرمونات . . هذه الهرمونات لا تظهر فى تحليل الدم والبول بعد المباريات . .

ولكن أخطر ما كشفه توحيد ألمانيا شرقا وغربا هو دوسيهات المخابرات الشرقية (اشتاسى) . . فقد وجدوا ستة ملايين ملف . . كلها عن الألمان شرقا وماذا يفعلون . . عن الجيران والأصدقاء والأبناء والزوجات . . وفى استطاعة أى واحد أن يضيف وأن يلفق لأى إنسان أية تهمة . .

والرئيس «السادات» عندما أعلن زوال دولة الملفات والتقارير فطلب إحراق الشرائط المسجلة . . وكان ذلك غضبا واحتقارا لهذه السفالة الرسمية . . ولكن بقى كل شىء على ماهوعليه بعد ذلك . . فهى ضرورة من ضرورات الأمن . . ولكنها شريرة وضارة . . وقد أعلن الرئيس «حسنى مبارك» أنه لا يأخذ بهذه التقارير لأنها ليست دقيقة وبعضها كيدية . .

والرئيس «السادات» قد سخر من الذين يكتبون التقارير والذين ينقلون معلومات غير دقيقة عن مصر . . فقال إنهم يجمعون معلوماتهم من (بتوع البطاطة) أى من أى أحد .

ولم تكد تتحقق الوحدة بين ألمانيا الشيوعية والاتحادية حتى

حاول كثير من رجال المخابرات سرقة الدوسيهات أو إحراقها حتى لا ينكشفوا أمام الرأى العام الألمانى .

وكثير من مندوبى المخابرات استقالوا وهربوا . . ولكن الحكومة استولت على الدوسيهات التى إذا وضعت الواحد إلى جوار الآخر لبلغ طولها ٢٠٠ كيلومتر من الأكاذيب والدسائس والمؤامرات ضد الشعب البرىء الآمن .

ولذلك أصدر البرلمان الألمانى قانونا يعطى لكل إنسان الحق فى أن يطلع على الدوسيه الخاص به . . وأعطى البرلمان الحق للصحفيين أن يطلعوا على هذه الدوسيهات بشرط ألا يستخدموا ما فيها إلا بإذن من أجهزة الأمن . . هذا القانون يجعل رجال المخابرات أكثر دقة وأمانة . . ويصبح عملهم هو رصد المواطنين وجمع المعلومات عنهم فقد تنفع رجال الأمن عند الضرورة .

سمعت من الرئيس «السادات» أنه اطلع على ملف أحد السياسيين فوجد العجب العجاب . . وجد أنه متزوج من ثلاث . . وأن زوجته الثانية لها قضايا معروفة ومسجلة . . وأنه يملك عدة عمارات وسيارات .

واندهش الرئيس «السادات» لكل هذه العلومات عن رجل واحد . . وكيف أن مندوب المخابرات قد تخصص فى هذا الرجل وتابعه دون غيره من الناس . . ثم إن هذا الرجل لم يقع مرة واحدة فى أيدى رجال الشرطة أو مكافحة المخدرات . . ولا مرة!

وكانت دهشته بالغة عندما علم أن هذا الرجل لم يتزوج قط . . وأنه فقير جدا . . وأنه لا يختلط بأحد . . ولذلك توهم الناس أن له علاقات . . وأن بواب العمارة هو مصدر كل هذه المعلومات لأن الرجل بخيل جدا . . وهو بخيل جدا لأنه فقير جدا ، وهو فقير جدا ؛ لأنه شريف جدا!

(٩)

من سنوات كنت فى سانت بطرسبرج ، وأروع ما شاهدت فيها : المتحف وأكاديمية الباليه . . أما المتحف فهو أرميتاج أعظم متاحف الدنيا وأكثرها تحفا فنية ، وهو يحتاج إلى شهر على الأقل لكى تتفرج وتتأمل أروع ما أبدع الإنسان الفنان . .

أما أكاديمية الباليه فهى بديعة الشكل . . بها ٥٠٠ طفلة قد تفرغن تماما للرقص . . ومنظر الفتيات الصغيرات كأنهن أوز أبيض يمشى برشاقة راقصة . . وكنت مبهورا مسحورا وأنا أتفرج على الصغيرات الجميلات . . نحيفة ممشوقة القوام . . لها طرق خاصة فى الوقوف وفى السير وفى شدالرقبة والرأس والشعر . . تماما كراقصات الباليه الآتى نراهن على المسرح . . فهى -إذن- تتدرب على كل هذه الحركات وهى فى الخامسة من العمر . .

هذه الأكاديمية العتيدة هى التى أخرجت للدنيا عظيمات الرقص مثل : ياملوفا ونجنسكى ونورييف وأولا نوفا وتوماتوفا . . ومعظم هؤلاء قد رأيناهن على مسرح الأوبرا القديم فى القاهرة .

وأنا كنت أعرف تمارانومانوفا . . وأعرف أولاتوفا . . وإلى جانب هذا الانضباط العنيف فى الحركة والأداء ، فقد كن سيدات فى غاية الأنوثة . .

هذه الأكاديمية تشكو من الجوع الآن؟ فليس عنها طعام يكفيها لمدة شهر . . هذه الأكاديمية تضم الآن ٥٥٠ طفلة ، وقد أنشئت هذه الأكاديمية أيام الإمبراطورة «آن» سنة ١٧٣٨ .

ولا يزعج القائمين عليها الآن إلا أنهم لا يجدون أطعمة غنية بالفيتامينات تساعد على نمو الفتيات الصغيرات ، وهو فى مرحلة تكوين العظام والعضلات .

وقد ظهرت على الصغيرات بوادر سوء التغذية فى الهالات السوداء حول العيون . وعلى الرغم من أن كثيرا من المعاهد الغنية فى أمريكا وأوروبا تبعث لهذه الأكاديمية باحتياجات الأطفال ، فإن هذه المساعدات لا تصلها مباشرة ، لابد أن تمر بالثكنات وأن تبقى هناك بعض الوقت قبل تسليمها إلى الأكاديمية -ولا يصل الأكاديمية عادة إلا بعضها!

فالأطفال يحتاجون إلى خضراوات طازجة ، وليس إلى طعام مسلوق . . والأطفال يحتاجون إلى فيتامينات لتقوية العظام والعضلات . . وقد انزعجت إدارة الكلية عندما سقطت إحدى الفتيات فانكسرت ساقاها . . وقد كشفت هذا الانكسار إلى أن عظام الفتاة لم تكن قوية . . وإنها كانت جائعة إلى الكالسيوم . . وقد رفضت الأكاديمية ترحيل الأطفال إلى معاهد فنية أخرى فى أوروبا وأمريكا لإكمال الدراسة فى ظروف صحية أفضل . .

قال رئيس الأكاديمية أنه أثناء حصار المدينة فى الحرب العالمية الثانية ، كانت الفتيات يتدربن على الرقص ، فى ظروف فى غاية القسوة ؛ فلا طعام ولا تدفئة . . وكانت الفتيات يلقين الماء على الأرض لكى تثبت أقدامهن أثناء الرقص . . وكان الماء يتحول إلى جليد . . ولكن الرقص لا يتوقف . . فالروس ينظرون إلى الباليه على أنه من مفاخرهم القومية . . ولذلك لم تتوقف الدراسة فى هذه الأكاديمية فى كل الظروف القاسية . . وكانت القوات المسلحة

الروسية فى أقسى ظروف الحرب ، تقسم الطعام مع راقصات الباليه . . فهناك إيمان عميق بأن الباليه من أعظم الإنجازات القومية للبلاد . . وأن الباليه فى خطورة الجيش والقوات المسلحة . . . وأنه يمكن أن تنهزم روسيا فى مجال الفن . . ومجال الباليه بصفة خاصة!

وقد حدث أثناء الحصار أن أعلن رئيس الأكاديمية عن حاجته إلى معونة عاجلة لإطعام الأطفال الصغار . . وقد استولى الروس على طعام كان قد خلفه الألمان وراءهم . . ولما استرد الألمان هذا الطعام أعلن الأسرى الروس أن هذا الطعام كانوا سيبعثون به إلى أكاديمية الباليه . فأصدر القائد العام الألمانى بإضافة مزيد من الطعام إلى أكاديمية الباليه احتراما للفن الروسى الذى يعجب به العالم كله!

وقد أرسلت الأكاديمية طفلة صغيرة تحمل رسالة من جميع طالبات الأكاديمية لشكر القائد الألمانى على هذه الهدية . . وقد سألها القائد الألمانى إن كانت تحب الألمان فأجابت الطفلة وهى تنحنى تحية له : لا يا سيدى!

فسألها : لماذا؟

فأجابت : لأنكم حرقتم بلادى ودمرتم حصونها وقتلتم والدى . .

وسألها القائد الألمانى وقد أجلسها على ساقيه : وما العمل الآن؟

أجابت بسرعة : اخرجوا من بلادنا!

وسألها : ماذا تريدين الآن؟

قالت : مزيدا من الطعام والأدوية لزميلاتى فى الأكاديمية . .

فأعطاها . وانحنت تشكره . والرجل معجب بالراقصة الصغيرة!

ذكرى كولمبوس !

العيون والآذان كلها سوف تتجه إلى أسبانيا هذا العام . . فهى تحتفل بمرور ٥٠٠ سنة على اكتشاف كولمبوس لأمريكا . . وعندها الدورة الأوليمبية . . وعندها المعرض الصناعى اكسبو ٩٢ . . وعندها أيضا مدريد اختاروها مدينة للثقافة هذا العام .

وهذا مالا يقدر على مواجهة الاستعداد له إلا دولة كبرى عندها كل القدرات على تحقيق المعجزة فى استقبال عشرين مليونا زائر هذا العام .

فمعرض (كسبو ٩٢) قد جعلت له موضوعا واحدا : الاكتشافات الإنسانية من القرن الخامس عشر حتى اليوم والغد .

ولذلك سوف تقيم لذلك فى مدينة استيليه على نهر الوادى الكبير أربعة أجنحة ضخمة .

الأول : جناح القرن الخامس عشر . على شكل الكرة الأرضية وكيف بدت للإنسانية فى ذلك الوقت .

والثانى : كيف كانت الملاحة البحرية وما هى الأدوات التى اتخذها الملاحون والمكتشفون فى بحثهم عن الأراضى المجهولة فى القارات الخمس .

الثالث : سلسلة الاكتشافات الانقلابية من القرن السادس عشر حتى اليوم .

الرابع : ما الذى يتطلع إليه الإنسان فى مستقبل الأيام فى مجالات الطاقة والمواصلات والبيئة والكواكب الأخرى .

ومنذ أبريل الماضى أعلنت ١١١ دولة عن اشتراكها فى هذا المعرض العالمى (٣٣ من أمريكا و٣١ من أوروبا و٢٠ من آسيا و١٩ من أفريقيا و٨ من جزر المحيط الهادى) وكل جناح سوف يكون صورة مصغرة للدولة التى أقامته . . فهى تعرض القديم والحديث (وهكذا تتنوع صور الإبداع الفنى والعلمى والهندسى) .

ومن المتوقع أن يكون رواد المعرض ١٨ مليونا نصفهم من الشعوب الإسبانية . . أما عدد العروض التى سوف تقام فهى ٥٥ ألف عرض للمسرح والموسيقى والرقص والأوبرا والباليه والفنون الشعبية .

والمعرض مزود بمائة مطعم وسبعين مقهى وعشرة بنوك وعشرة مكاتب سياحية ، وقد تكلف هذا المعرض ١٤٥ مليون بيزيتا أسبانية ومن المؤكد أن نفقاته سوف تغطى تماما . . وزيادة .

وهناك سبعون فدانا من الأرض الخضراء زرعت بها نصف مليون شجرة جاءت من أمريكا اللاتينية . . يضاف إلى ذلك ما مساحته ثلاثون فدانا من بحيرة صناعية وعدد من القنوات وسبعة كبار على نهر الوادى الكبير . . وهناك أرض شاسعة لوقوف أربعين ألف سيارة وألف أتوبيس . . وقد أصلحت أسبانيا الطرق وزادت التليفونات ووسعت مطارى اشبيليه وملقا .

ومنذ وصول علم الدول الأوليمبية يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٨٨ من مدينة سيول إلى مدينة برشلونة وقداستعدت هذه المدينة لتكون بهجة الأوليمبياد والثقافة والفنون .

وسوف تكون هذه المدينة التى غسلت وجهها ورقمت آثارها . . وأعادت تصويرها وتجميلها والتعريف بها ، هى عروس المدن . . وسوف تقام فيها العروض المسرحية والفنية والموسيقية والثقافية . . والموسيقى القديمة . . وموسيقى العصور الوسطى . . والموسيقى الحديثة فى ولاية قطالونيا .

وإذا أنت رأيت أحدا من أسبانيا ولاحظت أنه قد طال شبرا عن الأرض فليس ذلك وهما . . وإنما هى حقيقة . . فقد استعدت أسبانيا بكل قواها ومواهبها فى الصناعة والفن والعلوم وقد نفذت كل أحلامها . . وعجلت . . وهى الان تنتظر الدنيا كلها لكى تتفرج عليها .

وهى على يقين أنها سوف تبهر العالم الجديد والقديم . . فأينما اتجهت فى أسبانيا فأنت لا ترى إلا الفنون الجميلة . . إذا كنت تاجرا أو صانعا أو لاعبا أو سائحا . . إنها تحقق لك كل رغباتك . . فهى الدولة السياحية الأولى فى العالم .

إن أسبانيا هذا العام هى جامعة مفتوحة لكل شعوب الأرض لكى نتعلم من العرض ومن الإقناع -إقناع الآخرين- بأنهم قد حصلوا على ما يساوى فلوسهم ويساوى التعب الذى بذلوه من أجل أن يروا معجزة هذا العام فى العالم كله . . إن دول العالم كله يجب أن تذهب وتتعلم!

لا تريد أن تخيف !

اليابان هى السبب!

هذه هى التهمة المنتشرة فى أمريكا الآن . . فكل ما أصاب الصناعة الأمريكية من بطالة وركود وتخلف . فالسبب جاهز : أنهم اليابانيون هؤلاء الأقزام الصفر الخبثاء!

واليابانيون عندهم رد جاهز أيضا : إن الأمريكان يريدون منا أن نعتذر عن أننا ضربناهم ومسحنا بهم البحر يوم إغراق أسطولهم فى بيرل هاربور . . وقد اعتذرنا!

ولكن هل المطلوب أن نعتذر لهم أيضا عن نشاطنا وتفوقنا ويقظتنا لكل ما يجرى فى الأسواق العالمية ولكل ما يحتاجه المواطن الأمريكى العادى جدا!

وبمنتهى الصراحة والصرامة اتفقت الصحف اليابانية يوم وصول الرئيس بوش إلى طوكيو على عبارة واحدة : سيادة الرئيس أصلح نفسك . . رتب بيتك . . قل لرؤساء مجالس إدارة شركاتك أن يعملوا أكثر ويقبضوا أقل!

فرؤساء مجالس إدارة شركات السيارات فى أمريكا يتقاضون مليونى دولار سنويا سواء كسبت الشركة أو خسرت . . فالمسئول عن الخسارة هم اليابانيون والمسئول عن المكسب هو رئيس مجلس الإدارة . . بينما نظيره اليابانى يتقاضى نصف المليون سنويا . .

ويدفع نصف هذا المبلغ ضرائب . . وإذا خسرت الشركة فإنه يستقيل فورا أو يطلق على نفسه الرصاص!

ومنذ بداية النهضة اليابانية : كانت الأموال من أمريكا والرؤوس من اليابان!

لقد اصطحب الرئيس بوش فى رحلته إلى اليابان ١٢ رئيس مجلس إدارة شركة كبرى من بينهم أربعة من رؤساء شركات السيارات . . المطلوب هو أن يكف اليابانيون عن النشاط . . يهدوا اللعب شوية . . حتى لا تقفل المصانع الأمريكية أبوابها . . وهذا المطلب قد طلبته الحكومة اليابانية من شعبها . . فإن نشاطهم زائد وإبداعهم أيضا . . كما طلبت الحكومة اليابانية من شعبها أن يتفسح وأن يأخذ إجازة وأن ينفق كثيرا فى البلاد الأخرى لعل هذه البلاد أن تسكت عن الوحش اليابانى الذى يريد أن يبتلع كل صناعات الدنيا . . وقد فوجئت الحكومة اليابانية بأن شعبها لا يريد إجازة لا أسبوعية ولا سنوية فأصدرت قرارات تفرض على الشعب شيئا من الكسل . . والتراخى . . والاستمتاع بالحياة . . والرحمة بالأمريكان . فأمريكا هى عزيز قوم ذل . . وسقوط الرئيس بوش مغمى عليه فى طوكيو هو أكبر رمز لما أصاب الصناعة والتجارة والإبداع الأمريكى!

ولكن اليابانيين يعرفون أن أمريكا ليست بهذا الضعف . . وإنما هى دولة عظمى . . أو هى أعظم الدول وأنها قادرة على أن تقلب الدنيا كلها ضد اليابان . . وهى تعلم أن اليابان لها منافسون فى آسيا : كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وهونج كونج وتايلاند وأندونيسيا واستراليا . .

ولكن أمريكا تريد بالذوق أن يعقل اليابانيون وأن يتفرقوا بالميزان التجارى بين البلدين . .

وفى أمريكا ظهرت أفلام عنيفة تنتقد اليابان وكذلك عدد كبير من رؤساء المؤسسات الصناعية وكلها تتوعد الشعب اليابانى والحكومة اليابانية . . ومعنى ذلك أن الرئيس بوش ألطف كثيرا وأرق وأرحم من الشعب الأمريكى .

والمعارضة الأمريكية تتحدث عن فشل الرئيس . . وضعفه وأنه خير له أن ينسحب من الانتخابات القادمة ، وأن وأن . .

ولكن اليابان سوف «تهدى اللعب» . . كما يقال فى كرة القدم . . وأنها لن تخسر أمريكا ولن تخيف أوروبا . . فاليابان لا تستطيع أن تعيش فى عزلة مخيفة عن العالم كله . . أى تكون هى المخيفة الكريهة فى الدنيا!

اغتيال العظيم أسهل

حتى هذه اللحظة لا يعرف الشعب الأمريكى من الذى اغتال رئيسه جون كنيدى . . بعد تحقيقات دامت خمس سنوات وسؤال ألوف الناس . . قالوا : القاتل شخص واحد . . وقالوا : بل شخصان . . لا يعرف أحدهما الآخر . .

والرئيس الأمريكى قد اغتيل نهارا جهازا . . أقوى رجل فى الدنيا يخترقه الرصاص من كل ناحية . . فلا يعرف أحد من الذى قضى عليه . . هناك رأى : إنها المخابرات الأمريكية . . ومادامت المخابرات فهى أقدر على إخفاء جريمتها . . وهكذا يصبح من المستحيل أن يعرف أحد من القاتل ومن الذى اتخذ القرار ولا من الذى دبر الخطة ولا ما هى الأسباب التى دعت إلى ذلك .

ويقال : إنها المخابرات السوفييتية . . لأن القاتل زوج لسيدة روسية . . ولأنه سافر إلى روسيا . . ولكن لماذا؟ لا أحد يعرف . .

ثم إن الذى قتل القاتل رجل أمريكى يهودى .

وهكذا أضيف غموض جديد إلى الجريمة . .

وكانت الجريمة قد ارتكبت يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٣ . . وبعد ذلك الوقت والاجتهادات من كل نوع تحاول أن تجد جوابا .

ثم إن الرئيس قد اغتالوا أخاه أيضا . . وقاتل أخيه شاب فلسطينى . . ويقال : إن هناك علاقة بين الجريمتين . . ومعنى ذلك أن غموضا جديدا قد أضيف إلى الجريمة . .

ومنذ أسابيع استؤنف الحوار بين رجال الأمن والقانون فى الصحف والتليفزيون الأمريكى . . والسبب ظهور فيلم عن الرئيس الأمريكى يعرض القصة من أول وجديد . . ويقدم وثائق مصورة . . والفيلم قد اعتمد على وثائق جديدة وآراء مختلفة عن الآراء التى استقرت عند الناس على أنها الحقيقة -فالفيلم يشكك فى كل الحقائق التى أثبتتها لجنة القاضي وأربعة بعد سماع الشهود ومشاهدة الأفلام . . ولقد جاء الفيلم يزلزل كل الوثائق بفتح ملفات القضية لأنها لم تنته بعد .

وفجأة ظهرت حكاية جديدة . . فقد اعترف أحد المحامين أنه كان وسيطا بين هوفا نقيب السائقين ، وهى أكبر نقابة فى أمريكا وبين المافيا . . وكان الهدف هو اغتيال الرئيس كيندى . . وذهب المحامى واتصل بالمافيا ونقل إليهم تعليمات هوفا . . أما هوفا فقد قتلته المافيا . . وكذلك الشخصان الآخران اللذان ذهب للقائهم معهما . . فلم يبق إلا هو . . ويقول إنه اعترف بذلك لإراحة ضميره ولأنه أصبح رجلا كبيرا ، لم يعد يهمه ما سوف يقال .

ومعنى ذلك أن هناك جهات متعددة قررت فى وقت واحد أن تغتال الرئيس الأمريكى . . ومن الغريب أن الجهات المتعددة قد اتفقت على شىء واحد هو اغتيال الرئيس فى نفس اليوم . . كيف؟ وهل صحيح أنها جهات مختلفة . . وكيف تكون مختلفة وهدفها واحد وفى يوم واحد؟

إذن هى جهات مختلفة لا يعرف أفرادها بعضهم البعض . . ولكن لابد أنها جهة واحدة تصدر هذا القرار وتخطط له . . وتحرص على محو معالم هذه الجريمة . . أو على تنفيذ الجريمة بمنتهى الدقة

بحيث لو أن الرئيس أفلت من جهة فإنه لن يفلت من الجهات الأخرى . . وهناك ما يدل على أن الرصاص الذى انطلق على الرئيس كان من ثلاثة أنواع ومن ثلاث جهات أيضا!

والخلاصة : أنه ليس أسهل من اغتيال أقوى رجل فى العالم ، مهما كانت الحراسة حوله . . وأن يكون ذلك فى وضح النهار . . ولا يهم كثيرا أن تكون كل حركات الرئيس على شاشة التليفزيون . . فإن الرصاص والذكاء والتدبير المحكم أقوى وأبرع من أية احتياطات أمنية أخرى . . لأن الجهة التى خططت للاغتيال هى نفس الجهة التى تحمى الرئيس!

ولذلك فلم يستطع أى أحد أن يقطع برأى فى الأسباب وكيفية اغتيال الرئيس كيندى . . وقد حاول السناتور كيندى أن ينفى أن أخاه كان ضحية مؤامرة . . ولكنه لم يستطع أن يقول من الذى تآمر ضد الرئيس وما الذى استفاده من ذلك .

لم يبق إلا أن يقال : إن الرئيس انتحر .

أو أن الرئيس قد قتلته زوجته جاكلين كيندى لكى تتزوج أوناسيس!

زوجها حيوان !

قضية غريبة جدا أمام القضاء البريطانى : سيدة تشكو من أن زوجها يحاول أن ينال حقه الشرعى بالعنف؟

والغريب فى هذه القصة : أننا عادة لا نتحدث أو لا نتعرض لهذه العلاقات الحساسة جدا بين الزوج وزوجته . . وإنما يتغاضى الرجل وتسكت المرأة لأنها مشاكل خاصة جدا . . وأنها لا تحب ، وأنه أيضا ، أن يتعرى امام الناس . . وقد استمرت العلاقات بين الرجل وزوجته على هذا الأساس المؤلم دون أن يعرف الناس . .

ولكن المشكلة بدأت عندما لم تستطع سيدة بريطانية أن تكون لزوجها بالقوة وفى أى وقت دون مراعاة لحقها أو حريتها . . أو عدم استعدادها . . إن هذا الذى يفعله الزوج هو إهدار لإنسانيتها . . فهى بشر مثله ، ومن حقها مثله أن تقول لا وأن تقول نعم . . وهى فى نفس الوقت ترفض أن تكون مجرد «شىء» بلا إرادة . . أو كأنها حيوان . . مع أننا لو ذهبنا إلى حديقة الحيوانات وفى مواسم التلاقح لوجدنا عددا من الإناث ترفض بعض الذكور . . أى أن لها حق الاختيار . .

وذهبت السيدة إلى القضاء وفوجىء رجال القضاء بقضية من نوع جديد ، ولكنها قضية فظيعة وإنسانية : صحيح كيف يكره رجل زوجته على أن تعاشره؟

وناقش القضاة ورجال القانون هذه المشكلة الجديدة ، ورأوا أن

الزوجة على حق ، وأن الرجل غلطان . وحكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات ، ولكن المطلوب تشريع جديد ، يحمى المرأة فى المستقبل .

وعرض مشروع قانون على مجلس العموم البريطانى . واستعد كثيرون مع القانون وكثيرون ضده!!

وقبل عرض مشروع القانون ، لابد أن يشارك الرأى العام فى دراسة هذه القضية . . ولابد أن يعرف المشرعون اتجاهات الرأى العام .

وأول ما تساءل عنه مجلس العموم : هل من الواجب على الزوجة أن تقدم الدليل القاطع على اغتصاب الزوج لها؟ أم أن يتركوا الأمر للزوجة تدعى ما تشاء دون أن تقدم دليلا على هذا العنف فى معاملتها؟

وقالت أراء : يجب على الزوجة أن تثبت ذلك فى جلسة سرية تماما لدقة وحساسية الموقف بين الزوجين . .

ومن ضمن القضايا المعروضة على المحاكم البريطانية أن سيدة تقول إن زوجها يعضها حتى يجرى الدم ويخرج من جسمها . . فإذا حدث ذلك أصابته نشوة عارمة . . وذهبت السيدة إلى المحكمة وطلب القاضى أن يرى أثار أسنان الزوج ، فكان من الصعب أن يرى ذلك . . فما كان من القاضى إلا أن طلب من السيدات المحلفات أن يرين ذلك نيابة عن الرجال . . فما كان من الزوج إلا أن دفع بأن زوجته تعمل مهندسة وأنها اخترعت جهازا له أسنان . . وأنها تستخدم هذا الجهاز وتدعى أن زوجها هو الذى عضها . . لأنها لا تريد الزوج ولأنها تريد الطلاق من أجل رجل آخر!

وقدمت الزوجة هذا الجهاز الذى يدعى الزوج أنها تستخدمه فى إدماء نفسها . . وطابقت المحكمة الجهاز ومواطن الجروح فى جسمها ، فوجدته غير مطابق . . وقال الزوج بأنه ليس قانونيا أن تتحقق المحلفات دون المحلفين . . فلابد أن يرى المحلفون الرجال جسم زوجته وأثار هذه الأسنان . . وصرخت الزوجة أنها لا تريد أن تكون مفضوحة هكذا أمام الرجال!

وظل التفكير فى النص القانونى : هل من الضرورى أن تثبت الزوجة بالدليل العنف الذى يستخدمه الزوج؟

ماتزال القضية معروضة على مجلس العموم وفى قنوات التليفزيون ، قبل أن يصدر القانون النهائى الذى يحمى المرأة من حيوانية الرجل!

متى ظهر الإنسان !

لنفرض أن هذا الكون الهائل عمره سنة واحدة . أقول نفرض ، فإن الإنسان فى هذا الكون يكون قد ظهر فى الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء يوم ٣١ ديسمبر -أى قبل نهاية السنة بنصف ساعة . . أما ظهور الحضارة الإنسانية فقد جاءت فى الساعة الحادية عشرة و٥٧ دقيقة وعشرين ثانية -إلى هذه الدرجة تكون حضارة الإنسان حديثة جدا . .

ولكن فى هذه الفترة القصيرة حقق الإنسان المعجزات العلمية . . بل إن الإنسان فى الأربعين سنة الماضية قد حقق أضعاف كل ما حققه فى كل تاريخه ، فكيف تكون حياة الإنسان وحضارته بعد أربعين ألفا و٤٠٠ ألف أو ٤٠٠ مليون سنة؟!!

إن العقل لا يستطيع أن يتخيل المعجزات التى سوف يصل إليها العقل البشرى . .

أما الكاتب الأمريكى أزيموف الذى أصدر مئات الكتب فى الخيال العلمى فيقول : ليس أعظم إنجازات التطور الإنسانى أن تحبه حماته . إن الكراهية بين الزوج والحماة تجعل لحياته معنى ، وتعطيه أعظم مبرر لأن يطفش هو وزوجته بعيدا . . أو يطفش من الزوجة نفسها . .

وقال أيضا : إن الحياة سوف تكون قطعة من العذاب . فالإنسان لن يتكلم وإنما إذا فكر فى الطعام قفز الطعام إلى مائدته . . وإذا فكر فى

فلان وجده على الخط . . وإذا قرر السفر فإنه يضع نفسه فى جهاز ، وهذا الجهاز يحوله إلى ذرات وهذه الذرات يتم تركيبها فى الناحية الأخرى . . إنها آلية متطورة جدا ، ولكن لا حياة ولا طعم ولا متعة!

وقال : إن أحفادنا سوف ينظرون إلى حياتنا على أننا مثل أهل الكهف ، وسوف يسخرون من هذا الصندوق الرائع الذى نأكل ونشرب أمامه : التليفزيون . . سوف يجدون أنه يشبه «صندوق العجب» الذى كنا نتفرج عليه ونحن صغار ، فكان صاحب صندوق العجب رجل يطلب إلينا أن نجلس وأن ننظر من لوح زجاجى إلى صور تلف أمامنا . . والرجل يديرها بيده . . وسوف يندهشون كثيرا لحياتنا البليدة . . إذ كيف تسافر بالطائرة التى تنطلق بسرعة ثلاثة آلاف كيلو فى الساعة؟! بل وسوف يسخرون من سفن الفضاء التى تدور حول الأرض بسرعة ٢٧ ألف ميل فى الساعة . أما الصواريخ بعد مئات ألوف السنين فسوف تكون أسرع فلا تكاد تشعل سيجارة حتى تطفئها فقد وصلت إلى هدفك فوق كوكب المريخ لحضور سباق الدراجات بين الإنسان المتخلف الذى هو نحن . . فقد استطاع أحفاد أحفادنا أن يحتفظوا بنوع السلالات المتخلفة ليتفرجوا عليها . . كما يحتفظ الأمريكان الآن بالهنود الحمر ، أو استراليا بالسكان الأصليين!

يقول الكاتب المخيف الرهيب أزيموف إنه يحمد الله إنه لن يكون موجودا بعد نصف مليون سنة . . وإلا كان من الصعب عليه أن يقلد الإنسان المتخلف الذى عاش فى القرن العشرين . فوزنه ١٥٠ كيلو جراما . . وإن وزنه هذا الذى جعل حماته ترفضه زوجا لابنتها خوفا على صحتها . .

ارجع لمصر !

انفردت بعدد من المصربين الذين يعملون بإحدى البلاد العربية . . وقلت لهم : إذا لم تعجبك الحياة هنا . فأفضل أن تعود إلى مصر .

المصريون دخلوا البلاد العربية بشروط هذه البلاد ، ووفقا لقوانينها وظروفها الاجتماعية وكل شىء بالشباب . . فمن يريد أن يبقى فى مصر فهو أدرى بظروفنا . . فلا عندنا فلوس كثيرة ولا نستطيع أن نغير القواعد الراسخة التى تحكم الأجور والمرتبات والعلاوات والمعاشات . . وإذا ضاق أحد ببلده واختار بلدا آخر . . فمن الممكن أن يكون مرتبه أكبر . . وما دام مرتبه أكبر فلابد أن يعمل أكثر . . فكل شىء بثمنه . . وليس عنده مقاه ولا مسارح ولا كازينوهات . . وليس فى استطاعتنا أن ننقل له القاهرة إلى حيث يتحرك شمالا أو جنوبا . . ولكنى لاحظت أن بعض المصريين لا يكف عن الشكوى . . فما هو المطلوب؟ وتسأل أحد المصريين : يعنى أتكسب هنا أكثر من مصر . . ويكون الجواب : طبعا . . ولكن –هو الذى يقول– الحياة هنا مملة . . والليل طويل ، ماذا نفعل هنا غير زيارة الأصحاب؟ . . وأى أصحاب . . وغير الخناقات وإصلاح ما بين الناس . . ولكن الفواكه هنا أقل حلاوة من فواكه مصر . . والفول ليس كالفول المصرى .

شىء غريب . . وإيه يعنى لو كانت الفاكهة التى تستطيع

شراءها ، أقل حلاوة من فاكهة مصر التى لم يكن فى استطاعته أن يشتهيها . . وإيه يعنى لو الفول المدمس هنا أسوأ من فول مصر . . فهل كان سعيدا عندما كانت فاكهة مصر أحلى وفواكهها ألذ وفلوسها أقل وضيقتها أشد؟!

حضرت عشاء بين عدد كبير من المصريين والمصريات . . وأسعدنى ذلك . . ودار الكلام حول كل شىء فى مصر وفى البلاد العربية وفى الذى كان والذى نتمنى أن يكون . . والكلام حلو . . والصراحة أحلى من الكلام .

وقلت : بمنتهى الصراحة يا إخوانى نحن جميعا مصريون ونحن نعرف بلادنا وظروفنا ونعرف أن الحياة قاسية علينا . . وهنا -فى أى بلد عربى- أفضل وأحسن . . لا شك فى ذلك . . فلنغرس أنفسنا فى أى أرض . . والناس طيبون . . وإذا أحرقتهم الحرارة والعزل فاعذروهم!

مثلا : كيف لا يكفر أى كويتى بكل ما هو عربى . . الفلسطينيون الذين كانوا يملكون كل شىء فى البلاد قد فاتوهم وباعوهم . . والفلسطينيون كانوا يكرهون المصريين ويسعون مخلصين إلى خراب بيوتهم وقد سمعت منكم مئات الحكايات . . هؤلاء الفلسطينيون سلموا الشعب الكويتى للسفاحين العراقيين . . والعراقيون ابتزوا البلاد وذبحوها وخربوها . . ودمروا نفوس الناس وحطموا مقدساتهم وانتهكوا كل آمالهم فى الحياة الكريمة . . وساند العراق : الأردن وليبيا والسودان واليمن . . ولم يطردوا العراق من الجامعة العربية كما طردوا مصر ونقلوا الجامعة من مصر لأنها حققت السلام مع إسرائيل ، والذى تسعى كل الدول العربية على أن يتحقق أى شىء من هذا الكلام الآن . . إلخ .

سألتنى سيدة : يعنى عاوز تقول يجب أن نرضى بأى شىء!

قلت : إن المعروض على المصريين هنا أضعاف ما يجدونه فى مصر . . فليس فى مصر كلها سوبر ماركت واحد كالذى رأيناه اليوم . . ولا عندنا تيسيرات فى السفر والكتب كالموجودة هنا . . ثم إن العرب أكثر احتراما للمصريين فليست لنا عندهم أية مطالب غير المعاملة الحسنة ونحن نلقاها . . فلا نحن نريد أرضهم ولا نفرض حكما عليهم . . فعندنا دولة أقدم دولة فى الدنيا . . ونحن جئنا لنعيش فى سلام . . فلماذا لا نحقق السلام بينهم وبيننا . . وبيننا وبيننا نحن -المصريين-؟!

متى
صدام حسين ؟

سوف يذكر التاريخ للرئيس الأمريكى بوش أنه أعظم من هيأ العالم كله لحرب ضد العراق أعظم وأروع مقدمة وأقوى تعبئة وشحن للعقول ضد صدام حسين . ولذلك فبوش لم يرتكب غلطة واحدة لا سياسية ولا قانونية ولا دعائية ولا عسكرية ، ولكن الحرب انتهت بسرعة ، ولم تكن برعة بوش قد عجلت فى إنهاء الحرب . . أما السبب فى تعجيل هذه النهاية فبسبب الضغط من روسيا والسعودية ومصر . . وانتهت الحرب . وبقى صدام حسين على قلب العراق . . صحيح أنه كسير ، مهما كانت مغالطاته واستعراضاته أما شعب مهزوم . . ومهما حاول أن يبتسم فى الدفاع التليفزيونى مع الأطفال الصغار . . فقد حاول صدام حسين أن يتوجه إلى الأجيال القادمة يوضح ويبرر ويفسر ، سأل طفلا : من الذى هاجم العراق . .

قال الطفل : أمريكا

– وهل هم مجرمون

– نعم مجرمون لأنهم دمروا الكبارى وهدموا البيوت وقتلوا الرجال والنساء .

وقال صدام حسين للأطفال : إن الدول العربية كلها مجرمة . لقد ساعدت الأمريكان وأن الشعب الكويتى خائن لأنه استسلم للأمريكان .

وقال للأطفال منذ أيام : إن مصر ليس خائنة . . الحكومة المصرية فقط . . أما الشعب فكله مع العراق . . كل الشعب . . ولكن الجيش المصرى لأنه موظف لدى الحكومة فهو يتلقى أوامرها وينفذها!

ولو كان الأمر بيد الجيش المصرى لانضم للقوات التى ذهبت تسترد الكويت التى هى أرض عراقية -هكذا قال صدام حسين .

أما الذى يفعله العراق بالشعب الكردى ، فهو بالضبط ما كان يريد أن يفعله بالشعب الكويتى لولا التدخل العالمى لتحرير الكويت . فالأكراد يموتون من الجوع والعطش ويختفون رجالا ونساء فى ظروف غامضة . . وأمريكا تهدد بضرب العراق مرة أخرى إذا لم يرفع صدام يديه الداميتين عن الشعب الكردى المباد . . والذى يراه صدام حسين ضعبا مجرما لأنه يرفض التعذيب ويريد الحكم الذاتى الذى وعد به أمريكا من عشرات السنين . . ووعدت به بريطانيا أيضا .

ولم يكن صدام فى أى وقت وحده . . فصدام حسين جريمة عربية . . كلنا طلبنا وزمرنا وهتفنا لصدام حسين -وفى مقدمتنا الكويت . وكانت أكثر البلاد العربية خوفا . . وكان الفلسطينيون الضالعون مع صدام هم قادة الأوركسترا الغنائى لصدام حسين . . فلا أحد برىء!

وإذا كان صدام قد لقى هذا الإجماع العربى ، فكيف لا يفعل ما فعل . . من ابتزاز الأموال وشراء أسلحة الدمار لاستخدامها ضد كل الدول التى ساعدته -السعودية والكويت وإمارات الخليج . . أما القضاء على إسرائيل فقد كان وهما . بل إن المعلومات التى عرفت أخيرا قد كشفت عن اتفاق مع إسرائيل على أشياء كثيره منها توطين الفلسطينيين فى الكويت وقد فعل فى الأرض العراقية . . تماما كما فعل ستالين عندما بعثر الساخطين عليه فى كل أرض . . وباعد بين الرجل وزوجته وأولاده عشرات السنين!

هل بقى شىء فى العراق؟

إنها بداية النهاية . . فالقبور فى كل مكان . . ولابد أن يسقط فى واحد منها صدام حسين!

ولكن متى ؟!

الفلسطينيون لماذا ؟

كل شىء ضرورى قد عاد إلى الكويت . . المحلات امتلأت بالطعام والشراب . . كما كانت قبل ذلك تماما ، مع إقبال الناس على الحياة التى حرموا منها والتى خافوا ألا تعود إليهم . المحلات جميلة أنيقة . . محل (سلطان سنتر) كأنه فى هوليوود . . ومجمع محلات الصالحة كأنه فى باريس . . والنظام والنظافة إلى الشوارع . . ولكن إذا جلست إلى أهل الكويت فإن الحزن فى العيون . . على الأسرى والرهائن وعلى الذين ماتوا وبسبب الذين خانوا لقمة العيش . . هاتوا الذين أطعموهم من جوع وأمنوهم من خوف . . وهؤلاء الذين ينظرون إلى ما حدث فى الكويت على أنه حريقة تم إطفاؤها فقالوا لشعب الكويت : خلاص . . انتهى . . عفا الله عما سلف . . كيف؟ إن الله يعفو ، ولكن الشعب لا يعفو . . إن الشعب لا يعفو عن الخيانة والحقارة والدناءة والسفالة والفجور . . عن هتك الأعراض .

وإذا كفر الكويتيون بكل العرب فلا لوم عليهم . . فنحن أيضا قد عرفنا الكفر بالعروبة والتى يسمونها القومية العربية . عرفنا ذلك بعد هزيمة ١٩٦٧ ، فقد شربنا المر هوانا وعارا . . وأحسسنا أننا حاربنا من أجل وهم وقضايا خرافية . . وأن حربنا كانت أضحوكة الحروب . . فلا أحد يعرف من الذى أصدر قرار الحرب وقرار

الانسحاب . . ولا من هو المنكسر الحقيقى فى هذه الحرب التى مرغتنا فى الطين والعار . . فكان من الطبيعى أن نكفر بكل ما هو عربى . . وكانت له عبارة مشهورة أيام النكسة وما بعدها : إننا إذا انهزمنا فنحن مصريون وإذا انتصرنا فنحن عرب!

وأهل الكويت معذورون إذا كفروا بكل العرب . . ولو أجرى استفتاء عام فى الكويت على انضمامها كولاية أمريكية جديدة لوافق ٩٩٪ من الشعب فالخوف من العرب فى الداخل وفى الخارج هو الذى يسيطر على الشعب الكويتى . فلم يعد عندهم أمان لأحد . . فبعد الذى كان من أمر الفلسطينيين فى بلادهم ، فإنهم لا يثقون فى أحد . . فى أى عربى من أى نوع . . ولو كان الأمر بيدهم ، لأخرجوا كل العرب من كل نوع لقد كفروا!

كنا نتناول العشاء فى بيت كويتى . . الأسرة كلها مثقفة مدنيون وعسكريون . سألت : ماذا تتمنى لبلادك ولأولادك!

أجاب : الأمان لبلادى . . والسلامة لأولادى . . فقد أصبح من الصعب أن أشرح لهم ماذا حدث ولماذا حدث كل ذلك . . ولا بد أن أشرح لهم : لماذا فعل الفلسطينيون كل ذلك . . ونحن الذين أعطيناهم أكثر مما أخذنا نحن أهل البلاد . . فهم قد احتلوا المراكز الرئيسية فى البلاد . .

ونحن أعطيناهم كل أسرار المال والأمن . . وقد سلموها كلها للقوات العراقية . . وهم الذين اعتدوا على الحريات . . وهتكوا الأعراض . . وكان أملهم تفريغ البلاد من أهلها ليكونوا أهلها وحدها . . من الصعب أن أشرح لأولادى ذلك . . وفى نفس الوقت أطالبهم بالإخلاص والوفاء والحرص على صداقة أى أحد

من الناس خصوصا إذا كان هذا الأحد عربيا . . خصوصا إذا كان عربيا . . فقد رأينا العرب العراقيين والعرب الفلسطينيين والعرب الليبيين والسودانيين واليمنيين والأردنيين وكلهم ضد الكويت . . وعرفنا قيمة الشعب السعودى الذى كان كريما معنا لأقصى درجة!

ولما سألنى عن رأيى ، لم أجد ما أضيفه إلى ما قال . . فأنا أوافقه وأعذره تماما . . فالحرب صحيح قد انتهت ولكن آثارها النفسية لن تنتهى قبل عشرات السنين!

جورباتشوف بـرىء!

حكم المدعى العام ببراءة جورباتشوف من تهمة الاشتراك فى المؤامرة الفاشلة لإعادته إلى الحكم على أسس أخرى أكثر تشددا وقسوة ضد المنحرفين وضد الذين عارضوه وفى مقدمتهم الرئيس يلتسين؟!

فقد ظهر فى التليفزيون الروسى برنامج اسمه «وجهة نظر» هذا البرنامج يقول : إن جورباتشوف هو الرأس المدبر للانقلاب . . وأن الغرض من الانقلاب هو حكم الشعوب السوفيتية بالحديد والنار بعد أن ذاق الشعب طعم الحرية ، وقرر جورباتشوف رفع الأمر إلى القضاء متهما هذا البرنامج بالإهانة البالغة لشخصه وآرائه وإخلاصه لبلاده .

وقام المدعى العام بمحاكمة ٢٥ من المتهمين بالانقلاب . . وجاءت اعترافاتهم فى ١٢٥ مجلدا سوف يطلع عليهم محامو الدفاع . . ولكن المدعى أعلن بصورة قاطعة أن جورباتشوف برىء تماما من كل التهم التى أسندت إليه . . فليس صحيحا أنه كانت له أية صلة بالانقلاب الفاشل . . بل إنه اتخذ موقفا هو ألا يتخذ أى قرار ليس دستوريا .

وكان هدف الانقلاب هو العودة إلى ما كان عليه الاتحاد السوفييتى قبل أن يصبح جورباتشوف سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى سنة ١٩٨٥ .

وكان المتآمرون قد اتفقوا على نداء رمزى يذاع فى التليفزيون . . وبمقتضى هذا النداء يتم الاستيلاء على السلطة وإرغام جورباتشوف على الانضمام . . فإذا لم يوافق عزلوه .

وقد اعترف المتهمون الخمسة عشر بأنهم قد أعدوا كل شيء لحكم البلاد حكما صارما .

والعودة فى كل القرارات التى اتخذها جورباتشوف . . وسوف يلقى هؤلاء المتهمون حكما بالسجن فيما بين عشرة و١٥ عاما أو الإعدام .

أما الأسباب التى دعت إلى إتهام جورباتشوف فهى أن قادة الانقلاب كانوا من اختياره هو وأنهم كانوا مخلصين له تماما . . ثم أن علاقاتهم ببعضهم البعض كانت قديمة جدا . . وأهم الذين قادوا الانقلاب هو وزير الداخلية ورئيس المخابرات ووزير الدفاع . . وقد اتفقوا فيما بينهم على ألا يكتبوا ورقة واحدة . . وألا يتفقوا على أى شيء بالتليفون . . ولذلك كانت لقاءاتهم السرية غامضة تماما . . ولكن وجد المدعى العام مشروعات بقرارات وقوانين . . ووجد أيضا أنهم اتفقوا فيما بينهم على إقناع جورباتشوف ولكن لم يحدث أن وافق جورباتشوف على أى قرار لهم تلميحا أو تصريحا . . وأنه كان يؤكد حرصه على سلامة الاتحاد السوفيتى . . وأنه كان دائما شيوعيا مخلصا .

وقد سجلت المخابرات السوفييتية حديثا بين جورباتشوف وزوجته هو يقول : لا بد أن أستقيل فسلامة الاتحاد السوفييتى أهم من سلامتى . . وكانت زوجته تقول : اعط نفسك بعض الوقت لكى يكون قرارك سليما .

وهو يرد قائلا : سلامة الاتحاد السوفييتى هى أسمى أهدافى . . وإن كنت حجر عثرة فى سبيل ذلك فيجب ألا أتردد لحظة واحدة فى الاستقالة . . يجب أن اتنحى وأعطى غيرى فرصة . . وسوف أبقى قريبا من السياسة . . وأستطيع أن أخدم بلدى بصورة أخرى . . ولن أغادر الاتحاد السوفييتى الآن لأى سبب!

وكان صوت جورباتشوف واضحا قويا وليس حزينا ولا أسفا على أى قرار اتخذه .

ولكنه كان يؤكد إذا كانت هذه رغبة الشعب فإنه يجب أن يحترمها ، وقد تعب كثيرا من أجل أن تكون للشعوب السوفييتية رغبة قوية فى أن يختار ما يناسبه .

أما زوجته رئيسة فكان صوتها ذبيحا . . ولكنها لم تكن خائفة ولا مترددة . . وإنما كانت تدعوه ألا يتعجل فى اتخاذ أى قرار . . وقد رفض جورباتشوف أن يعرض الأمر على ابنته الوحيدة أو على زوجها . . لأن المسأة ليست عائلية من الدرجة الأولى .

ولذلك أعلن المدعى العام أن جورباتشوف كان فوق مستوى الشبهات وأنه كان رجلا شجاعا ووطنيا مخلصا . وقد انتحر عدد من القادة خوفا من الفضيحة . . أما المارشال اخرومتيف فقد حاول الانتحار مرتين . . فى المرة الأولى انقطع الحبل ، فقد كان وزنه أكبر من احتمال الحبل . . وفى المرة الثانية مات منتحرا . . وكتب ورقة يقول فيها : إنه انتحر بعد أن سدد دينا عليه بمبلغ خمسين روبلا! أى أنه قرر أن يموت لا هربا من هذا الدين ، وإنما لأنه فشل فى التآمر على جورباتشوف ولذلك يجب أن يموت بيده . . لا بيد غيره!

عشنا وشفنا أن الرجل العظيم جورباتشوف الذى حرر مئات الملايين من عبيد الماركسية ، تتهمه بلاده بأنه خائن لبلاده . . مع أنه الذى أعطى للشعوب السوفييتية حرية القول والفعل والقرار . . فلما حصلت على حريتها اتهمته بالخيانة؟!

إنها فخورة به!

لم نعرف فى ثورة البرويستريكا إلا ثلاث سيدات : زوجة جورباتشوف «رايسا» وزوجة يلتسين والسيدة والدته . . أما زوجة جورباتشوف فقد التفت حولها كل كاميرات أوروبا وأمريكا . . فهى أستاذة فى الفلسفة وهى سيدة أنيقة على عكس كل زوجات زعماء الاتحاد السوفييتى ، فهن لا يظهرن إلا فى الجنازات يمشين وراء نفس الزعيم الفقيد . . وهن عادة سيدات ممتلئات بيض ولم تعرف الدينا إلا سيدة واحدة رشيقة وأنيقة هى زوجة جورباتشوف . . فهى ترافقه فى كل رحلاته كزوجات رؤساء الغرب . . وهى تذهب إلى محلات الشياكة والأناقة . . ولا تخفى حرصها على أن تكون ذات ذوق رفيع . . بما يدل على أن المرأة الروسية إذا أتيحت لها فرصة فلن تقل عن المرأة الغربية . . أما الفرصة التى أتيحت لها فكانت بسبب أنها زوجة الزعيم السوفييتى وأن لديها فلوسا من بيع كتب زوجها لدور النشر الغربية .

وما دامت هذه فلوس زوجها فهى حرة تماما فى شراء ما يعجبها هى وابنتها الوحيدة . .

ولكن نساء الاتحاد السوفييتى قد أظهرن السخط والغضب على زوجة الزعيم التى تتشيك بينما الشعب السوفييتى لا يجد طعاما!

ولكنها لم تتردد فى الذهاب إلى أعظم محلات الأزياء فى

باريس ولندن ونيويورك! وبينما زوجة الرئيس يلتسين تذهب إلى المحلات الشعبية وتدفع من جيبها . . فإن زوجة جورباتشوف تستخدم الكارت الأمريكى -أمريكان اكسبريس أو الفيزا . . تماما كأية امرأة أمريكية . .

وقد تحدثت زوجة جورباتشوف فى كثير من المجلات عن حياتها الزوجية وعن دورها فى قرارات زوجها . فأنكرت أن يكون لها أى دور سياسى . . ولكنها حكت أنها كانت زميلة لجورباتشوف فى الجامعة . . وأنهما تناقشا كثيرا فى السياسة وعن إصلاح الاتحاد السوفييتى وتعديل الفلسفة الشيوعية ، فهى تعرف كل أفكاره وكل آماله . . وطبيعى جدا مادامت العلاقة قديمة والثقة عظيمة ، أن يدور بينهما حوار طويل وعميق عن الذى يجب عمله فى البلاد وللشعب وعن الذى يجب أن يفعله الغرب أيضا ، وقالت : إن جورباتشوف يناقشها طويلا ويأخذ بمشورتها ولكن القرار فى النهاية له . . وهو رجل شديد الذكاء والشجاعة والإخلاص .

ولم تشأ زوجة يلتسين أن تعلق على سلوكيات رايسا جورباتشوف . ورغم أن الصحف والمجلات حاولت استدراجها إلى ذلك ولكنها رفضت تماما إيمانا منها بأن هذه حرية شخصية . .

ولكن التى تحدثت وكان لسانها طويلا هى والدة يلتسين واسمها «كلاديفا ٨٣ سنة» وابنها يشبهها تماما . فهى التى قالت : إن «رايسا» قد زودتها شويتين فى مظهرها الخارجى وإنه كان من الواجب عليها أن تراعى الشعور العام . . وأنه كان من الواجب عليها أن تختفى عن الأضواء وإذا ظهرت ألا تسرف فى ذلك . . فليس من طبيعة الشعب السوفييتى أن يتظاهر بما ليس فيه . .

وقالت السيدة «كلاديفا» إن ابنها بوريس سعيد جدا مع زوجته . . ولا تدور بينهما خناقات عادة وأنها شخصيا تحب زوجة ابنها ، فهى طيبة ، ذكية ، مخلصة ، وأنها تشاركه كل شىء إلا السياسة .

وقالت أم يلتسين : إنها شخصيا تكره الشيوعية وأن رأيها هذا معروف جدا ، وكثيرا ما نبهها ابنها إلى ذلك . . ولكنها ترى أن الشيوعية هى التى أخرت الاتحاد السوفييتى . . وهى جدة لأربعة من الأولاد أكبرهم بوريس يلتسين . . وأنها كانت تخاف عليه جدا أثناء الانقلاب ولما رأته يقف فى إحدى الدبابات فى الميدان الأحمر خافت أن تنطلق عليه رصاصة فترديه قتيلا . . وقالت : إنها كانت تصلى له كل يوم حتى تتم له النجاة . .

وقالت أم يلتسين : إنها تمنت لو أن جورباتشوف أيد ابنها فى ثورته على الشيوعية ، ولكن جورباتشوف ظل شيوعيا متطرفا لآخر لحظة!

واعترفت أم يلتسين بأن أولادها وأحفادها وأولاد أحفادها لم يلتقوا معا منذ سنين . . وأنها شخصيا لم تر ابنها منذ ثمانية شهور وإن كانت تتحدث إليه فى التليفون كثيرا . . (أربعة أولاد وأربعة أحفاد وثلاثة أبناء الأحفاد) .

وتقول أم يلتسين : إنها أكثر ارتباطا بابنها الأكبر . . وأنها كانت تتوقع له أن يكون شيئا ، فهو شجاع ذكى ، ويحسن التصرف ، وهى فخورة به جدا!



بريطانيا تذيع أسرارها الخاصة جدا الآن -أى بعد مرور خمسين عاما . . وفى مقدمة هذه الأسرار أعمال الجاسوسية فى أوروبا فى ذلك الوقت .

وقد صدر منذ أيام كتاب بعنوان «الحرب السرية» من تأليف واحد من أكبر جواسيس بريطانيا وقد اتخذ له اسما هو منجلى وست . . وفى هذا الكتاب قائمة أسماء كبار الجواسيس الإنجليز فى أوروبا . . وماذا فعلوا من أجل انتصارها فى الحرب ضد هتلر وروميل .

ومن بين هذه الأسرار كيف أن تشرشل الذى أنشأ جهازا خاصا بالمخابرات لأوروبا ، وأنه أصدر أمرا بنسف السكك الحديدة بين مدينتى سالونيك وأثينا . فهذا الخط الحديدى يستخدمه الألمان فى تموين قوات روميل فى شمال أفريقيا . . وكان ذلك فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ .

وقد صدر لجاسوس لا يعرف كلمة يونانية واحدة . . ولما اندهش من هذه التهمة معترفا بجهله باللغة اليونانية جاءه الرد من لندن . . فإن هذه المعرفة ليست ضرورية . . ولكن سوف يساعده عدد من اليونانيين . . والوقت المحدد لذلك أسبوع على أكثر تقدير . . وطلبوا إليه أن يرد عليهم أولا بأول . . وخطوة بخطوة .

ومن مبادئ المخابرات طبعا أن يتركوا رجلهم دون تدخل . . عاش أو مات . . وإذا انكشف فإنهم لا يغطونه مطلقا . . فهى عملية انتحارية . . وقد تمت العملية بنجاح تام .

وفى المخابرات البريطانية قسم خاص بالتجسس فى فرنسا والاندماج فى قوات المقاومة الفرنسية للاحتلال النازى . . وقد اعتمدت بريطانيا على النساء اعتمادا تاما . . ومن بين النساء فتيات جميلات جدا . . ومن بينهن فتيات من الهند وهونج كونج . . وهذه الفتيات قد نجحت المخابرات فى إخفائهن تماما . . بلغ عدد الجواسيس من النساء أكثر من ٥٠٠ ألقى القبض على ١٧٠ وقتل سبعون فى معسكرات الاعتقال . . أما الباقى فلا أحد يعرف أين هن الآن . . وخاصة أن بعضهن قد اتخذن أسماء مستعارة وبطاقات مزورة . . وأنه من الصعب أن يعدن إلى الأسماء القديمة!

وفى هولندا استخدمت المخابرات البريطانية عددا من الشباب والنساء أيضا . . ومن الغريب أن المخابرات البريطانية لا ترى من الضرورى أن يتعلم الانجليزية ، لأنه إذا تعلمها . . فهو مفضوح تماما . . إذن من الأفضل أن يبدو أجنبيا لأنه أجنبى . . أما محاولة أن يتستر وراء معلوماته القليلة باللغة ، هذا يفضحه أكثر ويؤكد أنه يحاول أن يتخفى وراء الكلمات القليلة التى يعرفها فى لغة ليس لغته .

وأشهر جواسيس الحرب العالمية الثانية كانت الممرضات . . فعند الممرضات وسائل لمعرفة الأسرار أسرع وأكثر . . وخاصة من المرضى ومن الأطباء . . فالمريض فى حالة كراهية للحرب وللقيادة العسكرية فإنه يقول كثيرا . . ومن الحوار بين الطبيب والجندى

الجريح ، فكثير من الأسرار تقال عن غير قصد . . أو دون خوف من أن يكون هناك جواسيس . . ولذلك فالكثير من أسرار الحرب وسيرها ، قد نقلتها الممرضات إلى مركز المخابرات البريطانية فى لندن . . ومن أهم هذه الأسرار قرار روميل بالعودة إلى أوروبا . . وقرار روميل بالابتعاد عن عدد من القادة الذين يتآمرون عليه . . وقد مرض سكرتير روميل فى تونس وأعيد إلى ألمانيا ، ولكنه فى لطريق إلى ألمانيا كان يهلوس بسبب الحمى أما التى نقلت أخباره فهى الممرضة ايفا بروجمان وهى الجاسوس البريطانى «أ .ب .س .٩٩٩ جـ» فقد استطاعت أن تعرف منه كل ما يحتاجه للجيش الألمانى فى شمال أفريقيا . . وقد أدى ذلك إلى أن قام سلاح الطيران البريطانى بضرب إمدادات الوقود والمياه والطعام فى الخطوط الخلفية . . مما أدى إلى تجويع الفيلق الأفريقى الذى هزم القوات البريطانية هزيمة شنيعة .

وأسرار أخرى كثيرة . . وأهم هذه الأسرار أن الجاسوسية البريطانية يجب أن تعتمد على المرأة فى مراحلها الأولى . . أما المراحل النهائية فتعتمد على الرجل .

وهذا سر نجاحها بنسبة ٩١٪ فى كل عملياتها فى أوروبا!

الدنيا ضد اليابان !

هل سمعت فى حياتك عن حكومة فى أى بلد من بلادنا تطلب من الشعب أن «يشم نفسه» . . وأن يهدأ قليلا وأن يكف عن العمل لأن المنتجات كثيرة جدا وقد أغرقت كل الأسواق وملأت قلوب الدنيا بالحقد؟! لم يحدث طبعا . . ولن يحدث . . فنحن شعوب كسالى . . متواكلون . . نجلس وتأتينا كل الدنيا عند أطراف أصابعنا . . لأننا قادرون على شراء خبرات الشعوب . . ولأننالا نشارك فى العمل أو فى الإبداع!

ولكن الحكومة اليابانية طلبت فى قرار مجلس الوزراء رسميا : أيها الشعب اليابانى كفى عملا . . يجب أن تكون ساعات العمل أقل . . ولحظات الإبداع أيضا!

لماذا؟ لأن الدنيا كلها مقلوبة ضد اليابان . . فالسلع اليابانية الأرخص والأجمل قد أغرقت كل أسواق القارات الخمس . .وأصبحت الدول الصناعية كلها تحقد على اليابان . . ولذلك فالحكومة ترجو الشعب أن يتوقف قليلا . . أن يأخذ اجازة . . وأن يعرف أن هناك شيئا آخر غير العمل هو الراحة من العمل . . هو الإجازة الأسبوعية والسنوية والمرضية والعرضية . . وأن يذهب الشعب اليابانى إلى كل الدنيا يتفسح ويستمتع بالحياة . . صحيح أن كلمة «الإجازة» غير موجودة لا فى اللغة اليابانية ولا فى اللغة الصينية . . ولذلك يجب فرضها بالقوة!

وفى منشور رسمى طلبت الحكومة إلى الشعب اليابانى أن يدفع بقشيشا كبيرا . . فالعالم يتهم السائح اليابانى بالبخل . . ومعنى ذلك أن اليابان تجمع فلوس الدنيا ولا تنفقها . . فأقل ما يجب عمله هو إعادة بعض هذه الفلوس إلى الشعوب الأمريكية والأوروبية التى تشترى البضائع اليابانية وتفضلها على منتجاتها المحلية .

وكانت لليابانيين فكرة إقامة دور لليابان فى كل العواصم . . لينزل فيها السياح اليابانيون بدلا من الفنادق . . وبسرعة ألغت الحكومة هذا المشروع الذى يجعل اليابانيين منبوذين ومكروهين من الشعوب كلها . . فما كان من اليابانيين إلا أن اشتروا الفنادق فى كل العواصم . . لينزل فيها اليابانيون وغيرهم . . ويبقى الموظفون من أهل البلاد .

وأمام الحملات الشرسة ضد اليابان فى كل العواصم الأوروبية ، حتى أصبح الرجل اليابانى هو الآسيوى القبيح الوجه ، تصدت الصحف اليابانية وكل وسائل الإعلام للدفاع عن الشعب اليابانى الذى مسحته القنابل الذرية والذى لايزال محتلا بقوات أمريكية والممنوع أن يكون له جيش وسلاح طيران ودبابات للدفاع عن النفس ، ندافع جميعا ونقف فى وجه الهجوم العنيف .

فتصدت الصحف اليابانية تقول : إن العالم يطلب وضع السلاسل فى الأيدى اليابانية مرة أخرى . . لأنهم لا يتوقفون عن المعارك الصناعية والاقتصادية والانتصار فيها . . إذن فالمطلوب من الشعب اليابانى هو أن يتوقف عن العمل ليلا ونهارا وعن الإبداع . . بدلا من أن يقال للشعوب الأخرى ولماذا لا تعملون

وتبدعون بدلا من الإسراف فى اللعب ليلا ونهارا وبدلا من إضاعة الوقت فى بيوت الصحة . . فالشعب الأمريكى مجنون بالخوف على صحته ولذلك فهو شديد الاهتمام بالأكل واللعب . . أكثر من اهتمامه بالعمل .

وتقول الصحف اليابانية : طبعا نحن سعداء بأن يقف العالم يتفرج علينا وعلى إبداعاتنا المتجددة . . ولكن يجب ألا ينسوا أنه من الضرورى أن يعملوا أيضا . . أن يعملوا كثيرا جدا . .

والمعركة مستمرة بين اليابان وكل الدنيا!

حسنة لم أطلبها !

بعد أن أديت العمرة وقفت فى الشارع أمام الحرم المكى أرتدى جلبابا أبيض ، ثم رحت أتساءل عن أقرب بنك . وكعادة المصريين وأبناء البحر المتوسط فإننا نتكلم بأيدينا ورؤوسنا . . ويبدو أن يدى مبسوطة وأنا أتساءل فإذا بأحد المارة يضع فيها ريالين . . فقد ظننى أتسول . وخجلت من نفسى بعض الوقت ، ولكن روح التواضع والبساطة التى يعمقها الإسلام فى الناس جعلتنى أشعر بأننى فقير إلى الله . . أو أننى فقير وأن هذا رزق فأخذت الريالين وضحكت ورحت أروى هذه الحادثة .

ولكن نفرض أن الرجل الذى أعطانى الحسنة راح يفعل ذلك مع عدد أكبر من الناس فى أماكن مختلفة وكل يوم . . وأن عددا آخر من الناس قد اقتنع بهذه الطريقة ثم جعلها فلسفة يومية : وهى أن يعطى الناس . . وأن يساعد الفقير . . وأن يدفع للناس إذا ذهبوا يشترون طعاما . . أو إذا أمسكهم البوليس واضطرهم أن يدفعوا غرامة لأنهم وقفوا بسياراتهم فى الممنوع .

أو أنه دون أن يدفع راح يبتسم للموظف المرهق والعامل المجتهد . . فقط يبتسم . . كأن هذه الابتسامة صدقة . . أو حسنة . . أو هى الحد الأدنى من العمل الطيب . . والرسول- عليه الصلاة والسلام -يقول : «الكلمة الطيبة : صدقة» . . ويقول أيضا : «تصدقوا ولو بنصف تمرة» .

لو فعل أحد ذلك لكان قد سبق «عصابة الخير» التى ظهرت أخيرا فى مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية ، فقد طلع فى دماغ عدد من الأمريكيات أن يفعلن الخير ، فى أى وقت وفى أى مكان وبأى شىء .

والمعنى هو : أنه من الممكن أن يكون الإنسان طيبا وخيرا ، وأن يكون إنسانا وبذلك يتحدى الشر والعنف فى الشارع وفى السينما . و(عصابة الخير) هذه ليست جمعية منظمة ، وإنما هى ثورة هادئة فقط يريدون أن يقولوا : صحيح إن الخير أضعف من الشر وأقل جاذبية ، ولكنه ممكن ، ويجب أن نفعل ذلك ولو كان لإرضائنا نحن .

وقد تشكلت (عصابة الخير) هذه من خمس سيدات ، اتفقن على لفت النظر فى هدوء . . طبعا كان ظهور هؤلاء السيدات فى أماكن مختلفة من المدينة وكان سلوكهن شاذا . . فعندما تبتسم السيدة لعامل مرهق ، فإنه يندهش . . ولا شىء يحميها من سوء الظن إلا أن تكون سيدة كبيرة فى السن . . أى أن الفتاة الشابة الجميلة إذا فعلت ذلك فسوف يلاحقها هذا الشاب . . إلخ ، ولذلك جاءت السيدات فوق الخمسين يفعلن الخير بهذه الصورة المتواضعة . . وأما السيدات اللاتى يملكن فلوسا كثيرة ، فإنهن يذهبن إلى المدارس يتبرعن بثمن إصلاح الأبواب والنوافذ وطلاء الفصول أو شراء الأدوات الرياضية . . وتعليق شعارات على الجدران لتشجيع التلامذة أنفسهم ، من مثل هذه الشعارات : افعل الخير فى أى وقت وأى مكان ولأى أحد . . وابتسم . . اذهب إلى المستشفى وقدم الشيكولاته لمن لا تعرف ويكفى أن تقول إنك من

عصابة الخير . . قف عند باب المحكمة وقل للمتهم : إن العدل شريعة الله . فاقبل الحكم راضيا ، إن كنت مظلوما فالله سوف ينصرك ، وإن كنت ظالما فالله سوف يغفر لك!

إن مدينة سان فرانسيسكو هذه هى التى قدمت لأمريكا أسوأ نماذج الحياة والفكر وهى التى طحنت وسحقت ألوف الشباب . . وجعلتهم يتركون بيوتهم وينامون فى صناديق الزبالة والمواخير احتجاجا على المجتمع الأمريكى النظيف الميكانيكى واحتجاجا على سلطان الأب والأم والمدرس .

كأن المدينة تعتذر وتطلب التكفير عن خطاياها . . فأفرزت المدينة الكبيرة عصابات الخير . . . خيرا فعلت!

وتمت الصفقة !

كانت المحطة المدارية الروسية تدور حول الأرض على ارتفاع ٤٠٠ كليو متر ، وقد ارتفعت إلى مدارها وكان المفروض أن تهبط برائديها ، أما الرائدان فلا يعرفان شيئا عن الذى حدث فى الأرض . . انتهى الاتحاد السوفييتى وسقط جورباتشوف والناس يتضورون جوعا وبردا فى طوابير طويلة فى شوارع موسكو والمدن الأخرى فى جمهوريات روسيا الاتحادية .

ولا توجد أية وسيلة لإرسال الطعام إلى رائدى الفضاء ، فلا أحد على الأرض عنده وقت لتقرير دفع مئات ملايين الدولارات من أجل إرسال طعام يكفى شهرا أو شهرين لهذين الرائدين ، وقيل وايه يعنى لو ماتا؟! فقد مات قبلهما كثيرون فى الحروب أو فى سفن الفضاء وهى على منصاتها الأرضية . . وانزعج العالم كله لذلك . وأعلنت ألمانيا أنها مستعدة لإنقاذهما على نفقتها . وأعلنت أمريكا ، والروس أعلنوا أن هذه الأخبار غير صحيحة ، وأنه من المقرر أن يهبط الرائدان فى مارس القادم .

وقيل إن المحطة المدارية واسمها (مير) -أى السلام- سوف تكون معروضة للبيع بمبلغ ما بين ٦٠٠ مليون و٨٠٠ مليون دولار .

ثم أعلن الروس أنها ليست للبيع .

أما زوجة الرائد كريكاليف فحزنها عظيم على زوجها حيا

وميتا . وكل الذى هى على يقين منه أنهم سوف يطردونها هى وابنتها من الشقة التى خصصت لرواد الفضاء!

ثم أضرب المهندسون فى محطات المتابعة الأرضية فى روسيا والجمهوريات التى كانت تابعة للاتحاد السوفييتى وسبب الإضراب هو ضآلة المرتب الذى يصل إلى عشرين جنيها فى الشهر؟! أما كبير مهندسى الفضاء فمرتبه يصل إلى ٣٥ جنيها شهريا؟! وقد كانت مرتبات علماء الفضاء والمهندسين المدنيين هى أكبر المرتبات فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن بعد أن هبط الروبل الذى كان يساوى جنيهين ، أصبح يساوى ثلاثة قروش ، انحطت المرتبات وكان لابد من الإضراب أو الهرب من روسيا إلى أية دولة فى العالم . . وكذلك حاول علماء الذرة الذين بلغ عددهم ١٥ ألفا ، وكان الخوف عظيما من أن تستخدمهم دول العالم الثالث فى صناعة أسلحة الدمار . . ولذلك فقد أعلنت أمريكا استعدادها لاحتوائهم ، ورفضت روسيا ثم اهتدوا إلى حل وسط وهو إقامة مؤسسة علمية مشتركة لتشغيل كل هذه الطاقات الفريدة لصالح العلم والسلم وليس الحرب والدمار!!

وأخيرا أرسلت روسيا إلى المحطة المدارية طعاما لرائدى الفضاء يكفيهما حتى مارس القادم ، أما الطعام فهو كميات كبيرة من البصل الطازج والجرجير والليمون ، فقط لا غير . . أما عسل النحل فاعتذرت الحكومة الروسية عن إرساله لأن الجمهوريات التى كانت تابعة للاتحاد السوفييتى رفضت تصديره إلى روسيا ، واحتفظت به لأهلها وأعلنت الحكومة الروسية أنه ليس لديها أموال تشترى بها العسل ، ولذلك نصحت رائدى الفضاء

بالاقتصاد فى الحركات الجسمية وعصر الليمون على البصل والخس والجرجير وتعريضه للأشعة فسوف يؤدى ذلك إلى ظهور سكريات تعطيهما الطاقة الضرورية .

وقد عرضت شركات السينما الأميركية على رائدى الفضاء أن يعملا لحسابها . . وذلك بالتقاط صور لأمريكا من الجو بزوايا معينة . . كما عرضت عليهما شركات الغابات والأراضى الزراعية ومصايد الأسماك التقاط صور خاصة ومن زوايا حددتها وبأفلام ذات لون واحد .

وقد استمعت محطاتت المتابعة الأمريكية إلى الحوار بين الرائدين واحد منهما يقول للآخر : الأمريكان نصابون . . إنهم لا يدفعون إلا لأمثال الرئيس يلتسين . . وكيف نضمن أن يدفعوا لنا ونحن فى سفينة الموت هذه؟

وكان رد الشركات الأمريكية : إن المبالغ قد أودعت فى حسابهما فى أحد البنوك السويسرية تحت أرقام كذا وكذا . . وأن الشركات الأمريكية مستعدة أن تدفع لزوجة كل منهما ما يريدان من المال .

وتمت الصفقة وبدأ التصوير!

الأطفال قتلوا؟!

من جرائم العصر أن يقتل طفل طفلا . . دون خوف . . بل بسعادة واضحة . . فطفل إنجليزى بمساعدة طفل آخر ، ضربا طفلا ثالثا حتى الموت ثم وضعاه تحت عجلات قطار . . وطفل آخر فى أمريكا أحرق بالنار أخاه حتى الموت . .

وثلاثة أطفال أمريكيون اتفقوا على إغراق طفل فى حمام السباحة . . ففعلوا ذلك . . ثم ظهر الخوف على وجه واحد منه . . فاتفق اثنان على إغراقه هو الآخر حتى لا يعرف أحد ما حدث . وكاد واحد من الإثنين الباقيين أن يقضى على الآخر؟!

ما هذا؟ إنها جريمة بشعة . فما المعنى؟ ما السبب؟ من أين جاءتهم هذه الجرأة . . ومن أين جاءهم هذا الشعور باللامبالاة!

أحد الأجوبة : أن هؤلاء الأطفال يذهبون إلى محلات الفيديو وفى هذه المحلات يرون أفلام العنف . . ويقلدونها ، وقد لاحظ رجال البوليس أن الأطفال يرددون عبارات تجىء فى هذه الأفلام . . وليست محلات أشرطة الفيديو هى المصدر الوحيد لأفلام العنف ، وإنما هناك أفلام تذاع فى جميع القنوات التليفزيونية . . فأى إنسان عنده طبق هوائى يمكنه أن يرى أفلام الدنيا كلها ، والأطفال يفعلون ذلك سرا وعلنا .

ومعنى ذلك أن السبب هو أفلام الفيديو . . ولكن ليس هذا التفسير صحيحا تماما . فقد ارتكبت جرائم كثيرة قبل ظهور الفيديو . . وقبل ظهور «الطبق الهوائى» الذى يلتقط كل القنوات من كل الدنيا . .

إذن ما تفسير جرائم الأطفال؟

يقول علماء النفس : إن السبب فى البيت . . فى الأسرة . . فى القضايا التى يناقشها الأبوان أمام الأطفال . . فى عدم استنكار الآباء للعنف أمام الأطفال أو فى إهمال الآباء للأطفال . .

يعنى أن السبب قد بدأ فى البيت وليس فى أفلام الفيديو . . فليس الطفل هو الفاعل وإنما الأبوان هما القاتلان!

وقد أجرى علماء نفس الأطفال عدة تجارب على ذلك . . فعرضوا فيلما عنيفا على خمسين طفلا فى أعمار متقاربة . . ثم تركوا الأطفال معا . . لم يتشاجر من هؤلاء الأطفال إلا ثلاثة . . واحد منه قلد الحركات التى جاءت فى الفيلم . . والثانى أضاف حركة من عنده هو . . والطفل الثالث أخرج ما فى جوفه قرفا واستنكارا لهذا العنف . . وطفل رابع قال : لو عرف أبى أننى رأيت مثل هذا الفيلم فسوف يكون له كلام كثير مع الدكاترة الذين أتوا لنا بهذا الفيلم .

ثم اتجه هذا الطفل يبحث عن تليفون لكى يبلغ والديه بما رأى؟

والحجة القديمة جدا لاتزال قوية فقابيل قد قتل أخاه هابيل . . وهى أول جريمة فى التاريخ . . ويومها كان عدد سكان الأرض ستة أشخاص!

ومن أغرب ما قاله أحد القتلة من الأطفال أنه قد قتل لأنه لم ير طفلا يموت . . فهو دائما يرى الأطفال وقد ماتوا . . ولكن ماذا يحدث لكى يموت الطفل . . فالقتل هنا بدافع حب الاستطلاع .

وتبقى المشكلة قائمة حتى نجد لها تفسيرا علميا مقنعا . . إن عدد العلماء الذين عكفوا على دراسة هذه الظاهرة ، حتى لا تكون ظاهرة بعد ذلك أكثر من ثلاثة آلاف من علماء النفس فى أوروبا وأمريكا!

إرادة الصحة!

رأيت فى مدينة كولمبو بسرى لانكا عددا من الهنود يمشون حفاة على النار التى درجة حرارتها ٣٠٠ درجة مئوية . . ولم يضعوا دهونا أو مواد عازلة فى أقدامهم . وعندما خرجوا من النار طلبوا إلينا أن نلمس أقدامهم لنرى إن كانت النار قد تركت فيها أثرا ، فلم نر . . وسبقنا إليهم عدد من العلماء الأمريكان والألمان . . وهذا يقيس الضغط وذاك الحرارة . . ثم يسارعون بالكشف على المعدة وعلى قاع العين .

بقى أن نفهم لماذا لا تحترق أقدامهم والتفسير طويل ، ولكن يمكن إيجازه هكذا : فى داخل الجسم الإنسانى قوة هائلة على التحمل وفى داخل العقل الإنسانى الشعور واللاشعور ، قدرات ضخمة معطلة فإذا أفلح الإنسان فى تنشيطها واستدعائها بصورة منظمة فإنه يستطيع كل شىء فالله خلق الإنسان على صورته والله سبحانه لا نهاية لقوته ، والإنسان قوى جدا أقوى وأعظم وأروع مما تتصور . . ولكن نحن لا نجرب ذلك . .

وكنا فيما مضى نرى «الرفاعية» يضعون المسامير تنفذ من جانب من الوجه إلى الجانب الآخر . . ونرى الواحد منهم قد وضع السيف فوق بطنه ، ونفذ من ظهره فإذا خرج السيف يكون لامعا نظيفا ليست به قطرة دم واحدة . . ودون أن يترك أثرا واضحا فى البطن أو الظهر .

كيف؟

ليس إلا هذا التفسير الذى يقول به الهندوكيون وأتباع مدرسة «الزن» اليابانية ، وهى مثل كل شىء فى اليابان هى نفس المذهب القديم بعد أن أدخلوا عليه التحسينات!

واستخدام المغناطيس فى علاج الإنسان كما يفعل د . بارون فى باريس ليس إلا تصحيح مسار المغناطيس الموجود فى الإنسان مضافا إليه رغبة الإنسان القوية فى الشفاء .

وعلى ذلك فالصحة = إرادة الصحة + إثارة قواه الكامنة الهائلة + تصحيح مسارها من الخارج؟

ونحن نلاحظ فى حياتنا العادية أن الواحد منا يذهب إلى الطبيب موجعا فلا يكاد يدخل العيادة أو يجلس إلى الطبيب حتى . . يخف الألم أو يزول .

ماذا حدث؟

الجواب : لقد شجعك الطبيب على أن تريد الصحة لنفسك . . فكانت لك الصحة . . بعض الوقت أو كل الوقت!

غلطتان !

فى أمـريكا غلطتـان لا يمكن اغـتـفـارهمـا أبدا لأى أحـد من المواطنين :

الهروب من الجندية . .

والتهرب من الضرائب .

أن جميع قوانين العقوبات تنطبق على أى مواطن أيا كان موقعه فى الدولة ، إذا هو خالف هذين المبدأين .

ولكن حـاول جـورج بوش فى انتخابات الرئاسـة أن يفـضح بل كلينتون بأنه هرب من الجندية . . وأنه لم يذهب إلى فيتنام . . وأنه تظاهر فى لندن ضد الحكومة الأمـريكية ، وقد طلب الرئيس بوش مساعدة جون ميجور رئيس وزراء بريطانية .

وقـد سـقطت هذه التـهـمـة الخطيرة . فكلينتـون كـان يدرس فى بريطانيـا ، والقـانون يعـفى من يدرس فى الخـارج من الالتـحـاق بالجيش . . ثم إنه عندما تظاهر فى بريطانيا ضد حرب فيتنام . لم يتظاهر ضد الدولة ، وإنما تظاهر ضد التدخل فى فيتنام .

أما المسائل غير الأخلاقية والخيانات الزوجية فالمجتمع الأمريكى يغمض الطرف عنها . . ويرى أنها سلوكيات شخصية لم تلحق ضررا بأحد . . وأثاروا حكاية علاقته بمطربة أمريكية . . وأعلنت المطربة أن علاقتها بالرئيس استمرت عشر سنوات وأن . . وأن .

وعادوا فى الأيام الأخيرة يؤكدون هذه العلاقة . . فقد عقد اثنان من حراس كلينتون اللذان طردهما من خدمته مؤتمرا صحفيا وقالا : إن لديهما أدلة على خيانته الزوجية . . وأنه التقى بالمطربة قبل تتويجه رئيسا لأمريكا .

وفى نفس الوقت قيل : إن زوجة كلينتون هى الأخرى لم تكن مخلصة تماما . . فالرجل الذى انتحر فى البيت الأبيض كان على علاقة بها . وهذا ما قالته جميع الشبكات التليفزيونية الأمريكية وكل صحف العالم .

وقالوا أيضا : إن السيدة الأولى طويلة اللسان . . وأنها تتطاول على الرئيس ولا يهمها أن يحدث ذلك أمام الناس . . وأن رجال البيت الأبيض سمعوها تقول للرئيس كلمات نابية!

ويقال أن الرجل الذى انتحر كانت لديه أوراق تثبت تلاعب الرئيس فى بعض المشتريات أيام كان محافظا لولاية أركنسو . . ولكن الرئيس بعث لوزارة العدل أنه على استعداد ليقدم كل الأوراق التى تطلبها وفى أى وقت!

فإذا ثبت أن الرئيس تلاعب فى ذمته المالية ، فهى النهاية المؤكدة! فلا شىء ينقذ أحدا من جريمة التلاعب والتهرب المالى!

ولكنه كأب لابنة واحدة شديد التعلق بها . . وشديد الحرص على تربيتها . ففى إحدى الحفلات كان لابد أن ترقص ابنته (شلسى) . وقد أخفى الرئيس أن ابنته سوف ترقص حتى لا تطاردها الكاميرات . . وحتى لا تصاب بالاضطراب كما أصيبت ابنة كارتر . . أما الذى أصاب ابنة كارتر فكان بسبب نكتة أطلقها مستشار الأمن القومى برزنسكى . بسبب الملل والإرهاق فى البيت

الأبيض . .فقد كان يبعث للرئيس كارتر بأخبار مضحكة أو أخبار غريبة لتسليته . . فمن بين هذه الأخبار أن ابنته (ايمى) قد تورطت فى علاقة مع أحد الدبلوماسيين الروس مما يهدد أدق أسرار أمريكا ، وطلب إلى الرئيس أن يتخذ قرارا .

ورد عليه الرئيس كارتر قائلا : يجب اتخاذ الخطوات القانونية المناسبة فى مثل هذه الأحوال!

وتسرب الخبر إلى الصحف الأمريكية عن تورط ابنة الرئيس فى علاقة غرامية خطيرة مع أنها نكتة لا طلعت ولا نزلت ، وطاردتها الصحف والكاميرات . . ولخبطوا حياة البنت الصغيرة .

ولذلك فالرئيس كلينتون لا يريد أن تتناول الصحف الأمريكية ابنته الصغيرة بهذا التطفل الإعلامى الضار .

فهل ينجو هو وتنجو زوجته وابنته أيضا؟!

هل نشترى الكتاب ؟

إن لم نكن نعرف دوق ودوقة وندسور ، فأنا أقول لك بسرعة : هذا الدوق كان ولى عهد بريطانيا واسمه أمير ويلز ، ولما مات أبوه الملك جورج الخامس أصبح هو الملك إدوارد الثامن . . ولما أحب السيدة الأمريكية المطلقة واليس سمسون وأصر على الزواج منها ، كان لابد أن ينزل عن العرش ، ونزل وأصبح اسمه دوق وندسور وهى دوقة وندسور وكانت قصة حب وقصة فضيحة سياسية أو فضيحة غرامية . . لا أحد يعرف بالضبط . . ولكنه فضل زواجه من المرأة التى يحبها على العرش الذى لا يحبه .

وأمير ويلز ولى العهد الحالى تزوج الأميرة ديانا . . وأنجبت له أميرتين . . وقصة الحب التى أحبها الشعب الإنجليزى ، تحولت إلى سلسلة فضائح أخلاقية . . فالعدسات كلها تركزت على الأسرة وكل أنواع سلوكياتها الشخصية والعامة . . والأمير يحب سيدة متزوجة وهى التى اختارت له الأميرة ديانا زوجة له ، ولما عرفت الأميرة حقيقة هذا الزواج منها ، استشعرت إهانة بالغة وحرجا عميقا . . وبداية الحرب بينهما . . والتسجيلات التليفونية وقصص الحب والخيانة إلخ . ويبدو أن تاريخ أولياء العهد هو مصدر المشاكل فى بريطانيا .

هذه الدوقة وندسور قد باعت كل ما لديها . . والورثة باعوا الباقى . . وآخر مبيعات الدوقة فى مزاد علنى منذ أيام هو كتاب لها من تأليفها سنة ١٩٥٩ ، والكتاب ليس ذكرياتها مع حبيب العمر دوق وندسور .

وإنما هو كتاب عن «الطهى» . . وعن الأطعمة التى صنعتها للدوق ، وكيف أحبها . فإن لم يكن الأمير قد أحبها لبساطتها وشجاعتها ، فقد أحبها لهذه الأطعمة اللذيذة التى كانت تعدها له صباحا ومساء . . والتى كانت تدعو الأصدقاء لتذوق الطعام الذى هو من صنع يديها .

وليس الكتاب وصفا للأطعمة اللذيذة التى ابتدعتها أو الأطعمة المشهورة التى أدخلت عليها التعديلات . . وإنما من الذى أكلها وماذا قال . . وهؤلاء هم أعظم مشاهير رجال المال والأسرة المالكة فى العالم .

وكيف هى أدخلت التعديلات عليها بعد أن جربتها عدة مرات . .

وتقول الدوقة : إن زوجها كان يحب السلطة الروسية المصنوعة من الجزر والبسلة والبيض المضروب . . وقد أضافت لها عناصر أخرى ذات رائحة جميلة وبعض المشروبات الكحولية . .

وكان يحب أيضا «الجاتوه المصرى» أو الكعك على الطريقة المصرية أو وصفة الكعك أو الجاتوه على الطريقة المصرية فهى عبارة عن كيك له قوام اسفنجى . . ثم تأتى إلى منتصف الكعكة وتفرغها تماما وتضع فيها قشدة مضروبة مع الفانيليا . .

ثم تقوم برش مربى التوت الساخنة . .

وإن كان يمكن وضع المربى الباردة وبعد ذلك تجىء مربى الفراولة الساخنة التى يجب صبها بعد ذلك على الكعكة كلها وعلى القشدة أيضا . ويمكن انتظار دقيقة أو دقيقتين لكى تتشرب الكعكة هذه المربى الساخنة . . ومع هذا الجاتوه المصرى يستحسن شرب القهوة التركية . وهكذا يتوافر الجو الشرقى كله . وتقول دوقة وندسور : إن زوجها كان يفضل هذا الجاتوه على أى نوع آخر . هذا الكتاب عرضوه فى قاعة سوذبى بلندن بمبلغ مائة ألف جنيه . هل تشتريه!

لقد اشتراه أحد السياح العرب . .

وأخرجها جالسون!

كاسترو رئيس كوبا أول من فتح دكانا للشيوعية فى قلب العالم الرأسمالى ، قد هربت زوجته مع شاب أمريكى!

فهو الذى دوخ أمريكا ونشر الشيوعية والتمرد والعنف ضد أمريكا فى العالم الجديد وبعث بقواته إلى أفريقيا ، طعنه فى كبريائه شاب أمريكى . . فكانت زوجته أول من كفر به . . وكانت أخته أيضا . وعندما كنا فى كوبا سنة ١٩٦٤ سألته الزميلة سكينة السادات : لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

وكان سؤالها بمنتهى حسن النية ، ولكنها لم تر كيف احتشدت الألوان على وجهه وكيف ارتجفت شفتاه ثم كان جوابه : الزعماء يتزوجون الشعوب . . أو الزعماء يساعدون الشعوب على أن يتزوجوا ثم إنهم يباركون ذلك! لقد ابتلع السؤال كما ابتلع هرب زوجته وأخته وأخفى كل ذلك فى سحابة دخان من سيجاره الطويل . . ثم قهقهته كانت كالرعد!

ومنذ أيام هربت ابنته داليا «٤٠ سنة» بعد أن احتفلت بعيد ميلاد ابنتها السادس عشر . . وكان أبوها قد رفض خروجها من كوبا لأى سبب . وكانت قد سافرت مع أمها إلى باريس سنة ١٩٦٤ . ومن يومها لا خرجت هى ولا خرجت أمها . .

أما زوجها فمكسيكى ترك البلاد وعاد إلى بلاده . وكانت إلينا

تقيم مع أمها وتقول : إنها كانت ترى والدها على فترات متباعدة . ولم يحدث أن قالت له : يا بابا . . فهو لم يعترف بأبوته لهذه الطفلة . ولذلك فهى لا تشعر به وهو لا يشعر بها . . ولكنه رأى فى خروجها وهربها إهانة بالغة له ولنظامه الشيوعى . . وأن هروبها هو أمل الملايين . وقد وضعت «إلينا» لنفسها خطة للخروج من كوبا . . فقد حصلت على جواز سفر أسبانى مزور . . ثم زادت وزنها فى الشهور الأخيرة . واختارت لنفسها باروكة جعلت وجهها مختلفا تماما . وخرجت من كوبا دون أن يتنبه رجال الأمن إلى أنها ابنة كاسترو . وطلبت حق اللجوء السياسى من الولايات المتحدة ، وقد وافقت الخارجية الأمريكية ثم طلبت أن تسافر إلى مدريد . . وسافرت .

وكانت إلينا تعمل عارضة أزياء . . أما أمها فكانت ممثلة ، ولن يكون فى استطاعتها أن تقوم بنفس العمل خوفا من عملاء والدها ، ولذلك فسوف تعيش سرا فى أماكن بعيدة وباسم آخر حتى يسقط نظام كوبا أو يموت أبوها .

وهى لا تعرف مصير ابنتها . .

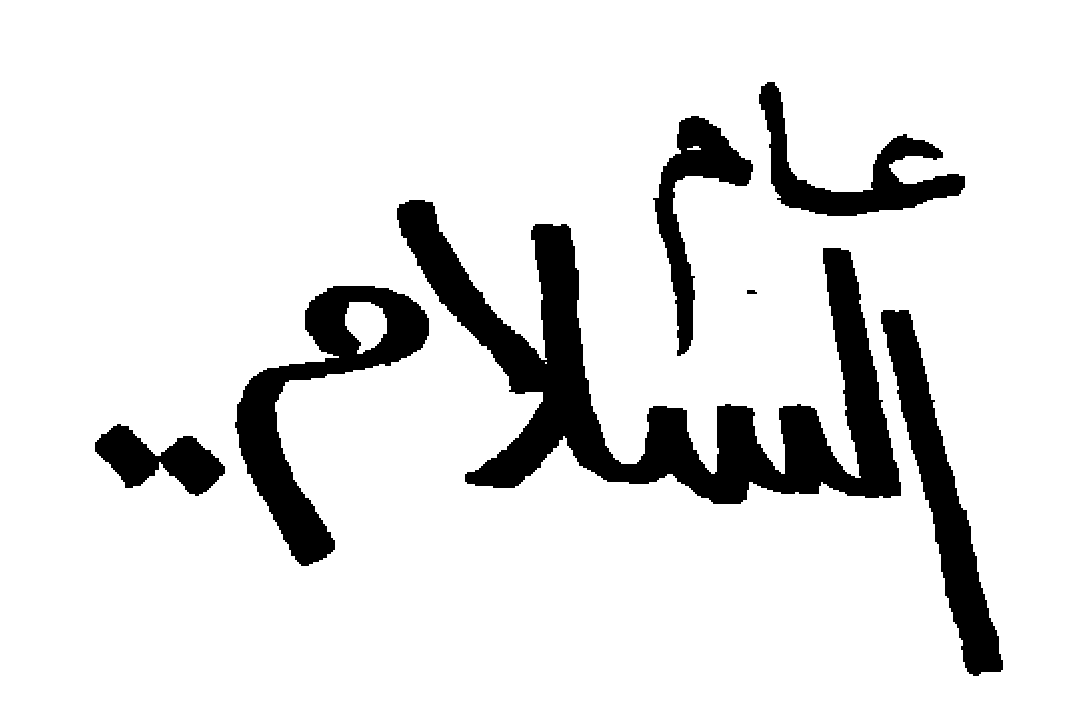
وقد حاولت ابنتها أن تسافر إلى أمها ، فمنعها جدها ، فعادت لتقيم مع جدتها التى تؤيد النظام الكوبى ولا تفكر لحظة واحدة فى ترك كوبا فى أى وقت! وعلى شبكات التليفزيون العالمى سألوا ابنة كاسترو : أنت تقولين أنك لم تناد والدك باسمه قط؟

أجابت : ولا هو نادانى باسمى . . ولا أذكر أنه احتضننى . . فهو رجل له قلب من حجر . . وقد حاولت أمى أن تجعل قلبه يلين ، ولكنه لم يعترف قط بأننى ابنته . . وسألوها : هل حاولت الهرب قبل اليوم؟

قالت : كثيرا جدا فالحراسة شديدة . . ولما تزوجت تصورت أنه من الممكن أن أسافر مع زوجى المكسيكى المهم أن أخرج من كوبا . . ولكن والدى وافق على خروج زوجى فى أى وقت يشاء ، وألا يعود إلى كوبا مرة أخرى ، وسألوها : وأنت سعيدة الآن .

- شخصيا نعم . . ولكن أتمنى للشعب الكوبى كله أن يهرب . . وإن كان الأسهل هو أن يتخلصوا من كاسترو . . وسوف يفعلون قريبا جدا!

وتوسط المغنى الأمريكى جاكسون لدى كاسترو ، فوافق على خروج ابنة إلينا لتلحق بأمها .



في سنة ١٩٦٣ أثناء انعقاد المؤتمر المسكوني في الفاتيكان في روما ، إذا نظرت إلى مدخل الفاتيكان ووجدت واحدا قد ارتدى بالطو أسود ولف حول رقبته كوفية سوداء ولم يظهر من ملامحه إلا أنفه يعطس وأسند ظهره للحائط ، فهذا الشخص هو أنا . . وأنا الصحفي العربي الوحيد الذي ذهب ليشهد هذا المؤتمر الذي اتخذ فيه المسيحيون أعظم قراراتهم في ألفي سنة . .

ففي هذا المؤتمر المسكوني -أي العالمي . . لأن المسكوني هي الكرة الأرضية- تقدم الكاردينال الألماني بيا بوثيقة شهيرة جدا ، اصبح اسمها وثيقة الكاردينال بيا . . في هذه الوثيقة طالب العالم المسيحي بالعفو عن اليهود . . فهم لم يصلبوا المسيح ولا كانوا سببا في ذلك ، الديانة المسيحية ترى أن المسيح قد صلب ، أما الإسلام فالقرآن الكريم يقول : وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . . ويقول أيضا : وما قتلوه يقينا .

ولذلك تطالب وثيقة الكاردينال بيا بالعفو عن اليهود ولا داعي للعنهم في كل صلاة وكل موعظة . .

ويقول الكاردينال بيا : إن هذه جريمة عمرها عشرون قرنا ، وإذا فرضنا أن اليهود في ذلك الوقت متهمون ، فما ذنب اليهود اليوم؟!

وقرر نواب ألف مليون مسيحي أن اليهود أبرياء من دم المسيح . .

ومضى على هذا القرار ثلاثون عاما . ولم تتقدم العلاقات اليهودية المسيحية . . حتى تم الصلح بين اليهود ومنظمة التحرير الفلسطينية . . واستعد العرب والمسلمون فى كل مكان أن يصالحوا اليهود ما دامت قد تقررت إعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين التى هى جوهر الخلاف الدموى بين العرب وإسرائيل . . وأخيرا تم تطبيع العلاقات بين تل أبيب والفاتيكان وسوف تكون علاقات دبلوماسية كاملة ، وسوف يزور البابا مدينة القدس . .

وقد اشترط البابا أن ترعى إسرائيل حرية الأديان وسلامة الأماكن المقدسة وألا تقف أمام أى اصلاح وترميم للأماكن المقدسة . . وأن ترعى حقوق الأقليات . . ولم يشأ الفاتيكان أن يدخل فى الخلاف بين إسرائيل والشعب الفلسطينى . .

ولما بدأ حوار السلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية المجاورة تم اختيار مدينة مدريد . . لتكون ملتقى اليهود والمسلمين والمسيحيين . . وكانت مدريد وغيرها من المدن الأسبانية مصدرا لعذاب المسلمين واليهود والمسيحيين أيام محاكم التفتيش . . فقد طرد المسلمون واليهود والمسيحيون معا فى ذلك الوقت .

وتم تطبيع العلاقات الكاملة بين إسرائيل وأسبانيا . . ودخل العالم كله فى موجة سلام عارمة . . بين السود والبيض فى جنوب أفريقيا . . بين اليهود والعرب فى الشرق الأوسط . . وبين الكاثوليك والبروتستانت فى أيرلندا الشمالية . . وبذلك يكون عام ١٩٩٤ هو العصر الذهبى للسلام والمحبة بين الناس أجمعين .

أفضل الإذاعـة !

أمامك التليفزيون : مبنى ومعنى وقل لى كيف تصلحه؟

أولا : ما هى العيوب الموجودة؟

ثانيا : من أنت وما هى خبرتك وقدرتك وميزانيتك والوقت المخصص لك لكى تحقق هذه المعجزة؟

ثالثا : ما هى معلوماتك عن تاريخ هذا المرض التليفزيونى . . لأن تاريخ أى مرض هو جزء من تكوينه .

رابعا : ما هى الهيئات التليفزيونية الأخرى التى تعرفها وتقارن بينها جميعا .

خامسا : هل يمكن فصل التليفزيون عن الظروف والبيئة المصرية اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا . . إلى آخر الأسئلة التى يكررها الناس عادة إذا جلسوا أمام التليفزيون . . وينسى الناس أيضا أنهم يقولون نفس الشىء ضد كل شىء آخر فى مصر ابتداء من الماء إلى النور إلى الشارع إلى الزبال وإلى الجزار وإلى الست صاحبة البيت التى تقطع عنك الماء وتوقف الأسانسير على مزاجها . . وإذا كان لك اعتراض : فابحث لك عن مكان آخر وهو ما يحدث فى بيتنا!

إنه «المزاج العام» المصرى الذى ينتقد كل شىء ، ومن بين هذه الأشياء التليفزيون . . لأنه أصبح ضرورى ولأنه فى كل بيت ،

ولأنه هو وحده الذى يحمل عبء متاعبك اليومية ، وهو وحده المسئول عن أن ينقلك من الكرسى الذى تجلس عليه إلى السرير الذى سوف تدفن نفسك فيه .

والظلم هنا : هو إنك تطلب من هذا الجهاز وحده أن يحل لك كل مشاكل الدنيا ، دنياك الخاصة ودنيا مصر كلها ، وتنسى أن التليفزيون هذا ليس إلا مجموعة من الناس من أمثالك عندهم مشاكل مثل مشاكلك ، وبطونهم وعقولهم وقلوبهم مرهقة مثلك تماما . . وأن ألسنتهم طويلة وأيديهم قصيرة ، وأن ألسنتهم هذه لا تظهر على الشاشة ، لأن واجبهم أن يعرضوا مشاكل الناس إلا مشاكلهم!

ولا تربطنى بالتليفزيون المصرى أية صلة بما فى ذلك الفرجة عليه ، فأنا أفضل الإذاعة . . ولكنى أرى أن هذا الذى يقال ضده ويكال ظلم عنيف ، وأنا أحاول فقط ألا أكون شيطانا أخرس ، أى أرى الظلم وأسكت عنه!

الطفل أعظم !

رأيت فى طوكيو باليابان مصنعا للعب الأطفال . وهذه اللعب مختلفة كثيرا عن اللعب اليابانية التى نجدها فى الأسواق ، ولم أتنبه إلى تنسيق هذه اللعب ، ولا إلى الحكمة وراء وضعها فى حجرات مختلفة . . وحاولت فلم استطع ، ولكن أحد اليابانيين نبهنى إلى ذلك فقال : إن هذه اللعب لها هدف : تقوية ملاحظة الطفل عن طريق الألوان والأضواء .

وهذه اللعب لها هدف : تقوية قدرة السمع عند الطفل عن طريق الأصوات المتنوعة لها .

أما هذه اللعب التى فى ا لقاعة الكبرى فهى لتقوية قرار الطفل : أى على الطفل وحده أن يختار وأن يقرر وأن يمد يده .

وهناك ملحوظة تقول : كل ما تلمسه هو الذى يجب أن تحمله معك .

ولذلك يظل الطفل ينظر هنا وهناك ويقترب ولكنه لا يلمس أية لعبة . . وهذا يقتضيه أن يقارن ويفاضل ثم يتخذ قراره وبعد أن يتخذ هذا القرار يجىء من يسأله : لماذا؟

ويحاول أن يفهم من الطفل ما الذى جعله يختار ، ويكون هذا الاختيار موضع اهتمام بالغ من مصانع لعب الأطفال . لأن الطفل هو السيد ، وهو السيد لأنه هو الزبون . والزبون على حق دائما!

سمعت من أحد مهندسى مصانع اليابان أنهم فى إحدى السنوات انتخبوا حصانا ، وفى هذا الحصان كل الألوان والحركات الى تعجب الطفل الذكر ، ولكن هذا الحصان لم يلق ما يشجعه من اهتمام الطفل ، وحاروا فى ذلك ، وأخيرا عرفوا السبب : إن للحصان عينى فتاة ، أى عينين جميلتين .

ورأى الأطفال الذكور الذين يحبون القوة والبطولة أن الحصان ناقص الرجولة ، ولذلك دون تفكير منهم ، امتنعوا عن شرائه ، فلما وضعوا القسوة فى عينى الحصان اشتراه الأطفال ، فالأطفال الذكور عندهم إحساس مبكر بالقوة والرجولة والبطولة - أو من الواجب أن يكون ذلك!

ويفعلون ذلك أيضا فى الكتب واللعب الورقية -فالطفل هو أعظم «إنتاج مشترك» لكل أجهزة الدول من أجل أن يكون مواطنا صالحا!

فضيحة !

من مشاهدة التليفزيون وسماع الإذاعة وقراءة الصحف يتأكد لديك معنى واضح أن فى مصر رجالا يعملون بصدق وإخلاص . وأن لديهم أملا فى حياتهم وفى مستقبل مصر .

ولولا هذا التفاؤل ما فعلوا شيئا ولا كانت سعادتهم بأنهم سوف يمضون فى ذلك .

إذن ما الذى نشكو منه ، نحن لا نشكو من الذين يعملون ولكننا نشكو من أنهم قليلون جدا ، ولأنهم قليلون فإن أحدا لا يدرى بهم ، ولأنهم بعيدون عن الأضواء الفاضحة والأقلام الجارحة فليس أمامنا إلا العاطلون الباطلون . إلا البائسون المتشائمون المترحمون على مصر حاضرا ومستقبلا ، ولأن العاملين أقلية ، فسوف يصيبهم ما أصاب الأقلية من خوف وانطواء وانزواء وإحساس بأنهم شواذ ، وأنهم عصابة تقوم سرا بالعمل والنجاح وعلاج مصر من أمراضها . وهكذا يكون الصواب خطأ ، والخطأ صوابا ، ويكون الطبيب مريضا ، والمرضى هم الأطباء!

رأيت مهندسا زراعيا يصلح مساحة صغيرة من الأرض ، إذا وقف عند الظهيرة فإن ظله سوف يتجاوز حدود أرضه ، ولكنه يتحدث عن رى الأرض وزرعها وتحليل تربتها ومياهها وانتقاء بذورها .

ورأيت زوجته في غاية من الصحة والعافية وكذلك أولاده وكلابه وأغنامه . . وأغمضت عينى وقرصت نفسى لعلى أصحو من نومى . . وعندما صحوت وجدت الرجل يتكلم لهجة مصرية . . فهو مصرى وكذلك التليفزيون والأرض . . ولكن الأمل أجنبى والتفاؤل غريب .

وضبطت نفسى متلبسا بفضيحة : فلم يكن فى نيتى أن استمع إليه وإنما أنا فى انتظار المسلسل الأجنبى!

وضحكت من نفسى ، وقررت أن اعترف له بذلك ، وبأن سلامة مصر على يديه وألوف مثله فى كل مكان ولكننا لا ندرى . . وإذا درينا لا نلتفت وإذا التفتنا فإننا لا نتحمس لهم . . أو نتحمس بعض الوقت وننسى أن فى مصر رجالا يزرعون الأمل وأنهم مستقبل مصر!

انتشرت كل الأنواع !

منذ أكثر من عشرين عاما كتبت أقول إن حبوب الهلوسة قد وصلت إلى مصر ، وأن بعض طلبة الجامعة الامريكية يتعاطونها . وبعد ساعات من ظهور المقال وجدت أمامى مدير الجامعة فى حالة قلق شديد . . وقال لى : إن عددا كبيرا من أولياء الأمور قد روعهم هذا الذى كتبت وأكدت له صحة معلوماتى وحاول أن يعرف أسماء الطلبة . واسم المدرس الذى نقل لى هذا الحادث الشنيع . . وتحت إلحاح . . ومن أجل الصالح العام وخدمة جليلة لن ينساها ، حددت له الفصل فقط ، وبعد أسبوع عاد رئيس الجامعة يشكرنى ويقول : إن المعلومات صحيحة ، وأنه استدعى الطلبة وإنهم تحت رقابة شديدة وعناية خاصة .

كان ذلك من وقت طويل . . منذ ذلك الحين انتشرت المخدرات بكل أشكالها النباتية والكيمائية . . وانتقلت من الجامعات إلى المعاهد إلى المدارس الثانوية والإعدادية فى مصر وقد سمعت إحدى المدرسات تشكو من أن طلاب وطالبات الإعدادية يتعاطون المخدرات علنا فى حوش المدرسة . . ولا الطلبة خائفون من أحد . . ولا أحد ينبه أحدا . بل إنه حدث فى إحدى المرات أن دخلت الفصل إحدى المدرسات وهى تقول : نسيت علبة سجائرى . . فامتدت لها أيدى عشرين طالبة صغيرة بسجائرهن!

واتنتشرت الحقن المخدرة . . وانتشر الهيروين والكوكايين فى

الجامعات أيضا . . ولكن أحدا لا يلفت النظر إلى هذه الكارثة الجديدة التى تبدد الطاقة وتحطم المعنويات وتخرب البيوت ، وتضيع على مصر مستقبلها ، ولو كان التدخين هو الذى انتشر لكانت المصينة أهون ، ولكن الحشيش والأفيون وحقن المورفين وكل أنواع الأقراص الكيماوية .

لابد من تشديد الرقابة والعقاب على كل طالب صغير وكبير يتعاطى هذه السموم ، فى المعاهد وفى النوادى . . ولابد من إخطار الآباء والأمهات . . ولابد من حملة قومية ، ويجب ألا نخجل من ذلك فالمخدرات انتشرت فى الدنيا !



مـا الذى يبـعث على النوم فى المؤتمرات العـامـة ، عـالميـة أو محلية؟

بعض النـاس ينامـون . . وبعض الذين ينامـون هذه الجلسات . . وكـأن العـالم الكبير فـرويد أول من انشـغل بهـذه الظاهرة . . فـقـد لاحظ أن عددا كبيرا من علماء النفس فى مؤتمر دولى بباريس ، قد غلبهم النوم ، واهتدى إلى أنه الإرهاق لرجال تقدموا فى السن ، أو أن بعضهم يعانى من كل عام بسبب خمول فى الكبد . .

وبعضهم يضيق بهذه المناقشات العلمية الجافة الطويلة ولذلك فـالنوم هو نوع من «الغـيـاب» عن هذه المؤتمرات . . أو هو نوع من الرفض لها .

أما طبيب الأذن العالمى د . روزن فقد وجد أن الصخب الذى يجىء من كل الاتجاهات يشـبـه ضـوضـاء القطار والطائرة فـهى تبـعث على النوم . . ورأى أيضا أن الأضواء الكبيرة فى القاعات ترهق العين ، وهذا الإرهاق للعين وللعصب التائه ، ينقل المستمع إلى النوم .

وفى دراسـة للعـالم ديكارت وهو الذى تخـصص فى السلوك الاجتماعى يقول : إنه الشعور بالأمان . . فلا يمكن أن يتوافر لأحد مثل هذا العدد الكبير من الناس . . ولا أن يجد مكانا واسعا مثل هذه القاعات الضخمة المكيفة المضاءة . .

ولذلك فالنوم سببه الشعور بالراحة لاتساع المكان ، والشعور بالارتياح لوجود مئات من الناس . . وقد لاحظ العالم ديكارت أنه شخصيا كان ينام وكانت له أحلام صادقة صافية ، وهذا الصفاء أكبر دليل على عمق إحساسه الجسمى والنفسى . .

ومن بين الأسباب أيضا أن الأصوات وطريقة الأداء والمضمون الواحد لكثير من المشاكل ويبعث على الملل ، وهذا الملل مثل السوس يأكل اليقظة أو أنه مثل المخدر الذى يدوخ العقل . . وبسبب هذا الملل والضوضاء الرتيبة والحيرة بين الحضور وبين الغياب . . ثم الشعور الذى يسبق الجلسات من أن لا جدوى ولا معنى ولا فائدة من شىء . . كل ذلك يجعل النوم أعمق وألذ . . ألذ . . !

لن يجىء !

شىء فظيع أن ترى مالا يعجبك وأن تسمع ما لا يطربك وأن تعامل من لا تحب ، وأن يعاملك من لا تحترم ، ورغم ذلك فأنت على صلة يومية بكل الناس وعلى أساس نمو هذه الصلة وتنوعها تبنى حياتك وتحرص على أن تجعلها مفيدة وممتعة وناجحة كيف؟ انظر إلى الأرض ولونها والمواد العضوية التى تلقيها عليها ، ثم انظر إلى الثمار والزهور والطيور التى تعيش هذه الأشجار والأشجار التى تعيش على مزيج من المياه والطين والعفونة!

هل أنت إنسان عبقرى لأنك تقوم كل يوم بعمل معادلة بين هذه العناصر المختلفة : بين الذى لا تحبه ولا تحترمه .. أو بين الذى تحبه بعض الوقت ولا تحترمه كل الوقت!

إن الحياة تصبح تجربة يومية محتملة لأنك لابد أن تعيش ، ولكى تعيش لابد أن تتعايش ولكى تتعايش لابد أن تعقد نوعا من الصلح اليومى مع الناس .

وإن لم يكن صلحا فلا أقل من الاشتباك وفك الاشتباك من يوم إلى يوم أو من ساعة إلى ساعة . لأن الاشتباك لا مفر منه ، وفك الاشتباك راحة ضرورية لكى تسترخى بعض الوقت!

وفى إحصاء أحد المعاهد الأمريكية عن متاعب المهنة نشر فى كتاب بعنوان «نشاطك ٥٠٪ لماذا» . فى مقدمة الكتاب أنها

مشكلة حقيقية فى العالم كله إن الناس يتعبون بسرعة وخصوصا إذا كانوا في مراكز قيادية . لأن الذين يعملون فى القيادة مضطرون دائما إلى أن يقوموا بدور عجلة القيادة والفرامل فى نفس الوقت . حتى لا ترتفع درجة حرارة التروس والأسلاك فى هذا الجهاز الكبير الذى يشرفون عليه ، ولابد من أن يقوم الرئيس فى أى عمل بتبريد الجهاز بالماء أو بالهواء . . أو بإعطاء فترات راحة طويلة للجهاز الكبير أو لنفسه .

ويقول الكتاب : هناك غلطة إدارية فنية يقع فيها بعض المديرين ، وهى أن يتعامل مع الناس على أساس عاطفى ، وهذا يفسد العمل ويفسد الإدارة ، وهذه الغلطة تجىء من أن العمل معا يوجد نوعا من الألفة . . أو نوعا من العلاقات العائلية اللطيفة ، وهذا شعور طيب جدا ، ولكن عيبه أنه يغرى الناس بأن ينظروا إلى كل شىء نظرة شخصية أو أخوية . . أى نظرة عاطفية . فإذا دخلت العواطف انقسمت العلاقات إلى حب وكراهية . . إلى صداقة وعداوة . . وهذه غلطة . . والصحيح هو : أن يكون الواجب هو المثل الأعلى والمسئولية هى الإطار العام . والصواب والخطأ هما صفتان لكل قرار!

وقبل أن تشعر بصعوبة موقفك رئيسا أو مرؤوسا فإن هذا البحث الضخم يقول لك : إذا وجدت استحالة فى أن تكون معتدل المزاج متوازنا ، فلست إلا واحدا من بين ألف مليون إنسان آخر يتعذبون بالناس ، ويحلمون باليوم الذى يسود فيه الحب والاحترام والسلام . ثم لا يجىء هذا اليوم . . ويبدو أنه لن يجىء!

الفرش الأبيض..

أعطيت أذنى لناقد رياضى وأفزعنى ما سمعت ، فأنا بعيد عن دنيا الرياضة وإن اقتربت فبعض الوقت ، وإن كتبت فملاحظات على المتفرجين ، وما تفعل بهم كرة القدم ومعنى الراحة التى يجدونها وما الذى يجعلهم هكذا يصرخون ويتشنجون . . ومعنى المباراة التى هى محاكمة علنية يومية يرتضى فيها اللاعب والمتفرج حكما واحدا رجلا واحدا مفروض أنه لا مصلحة له ، إنه يطبق القانون فقط ، ولا يحق لأحد أن يعترض عليه فإذا اعترض ثار عليه النقاد والمتفرجون واللاعبون . .

وهذا ما يؤمن الذين يتابعون كرة القدم من بعيد ، ومن حين إلى حين . . ولكن الذين يمارسون الرياضة ويترددون على الأندية ويسمعون ويرون أكثر لهم رأى آخر .

فالرياضة بيع وشراء وسمسرة والرياضة فيها مال وحشيش ومخدرات وليس صحيحا ما يقال عن عدالة المحكمة والمحكمين . . فالحكم يرتشى . ويمكن شراؤه .

وقد أمكن ومن الممكن أن يتفق فريق مع لاعب من فريق آخر على ألا يلعب وألا يسدد أهدافا مقابل مبلغ من المال . .

والنقاد الرياضيون ينتقدون أنفسهم «أى أنهم لا يؤمنون بنزاهة النقد» . . فالناقد الفلانى اشتراه النادى الفلانى ، يميل للنادى

الفلانى . . وكله بيع وشراء . . وشيلنى وأشيلك . . وهات وخد . . وكما أن الكرة أجوال ، فالعدل أموال ، والنقد بالنقد!!

فإن كنت أنت رومانسيا مثاليا ، فسوف يغضبك هذا الذى أقول ، وليس بعيدا أن تقول إننى مثلا اكتب لحساب البرازيل ضد مصر ، وإن كنت أنت رجلا واقعيا فسوف تقول : إن الرياضة مهنة أخرى . . وكل إنسان يبيع مجهوده ، ويعرضه فى سوق الأوراق المالية ، وعمر اللاعب القصير . .

ولذلك يحاول أن يوفر القرش الأبيض لينفعه فى اليوم الأسود . . واليوم الأسود أطول كثيرا من اليوم الأبيض . .

فالعامل يعيش على ذراعه ، واللاعب يعيش برجله . . واللاعبون والراقصات أعمارهم الفنية قصيرة .

ولذلك يجب أن يدبر حاله ويفتح مخه . . وكل الناس يفعلون ذلك فلماذا نفترض أن اللاعبين ملائكة؟! .

إن الكثير من الأندية الرياضية فى الدنيا مثل أية شركة ، يملكها شخص يريد أن يكسب عن طريق المنافسة والمؤامرة ، والغش -إننا لم نصل إلى هذه المرحلة ، ولكنا فى الطريق!

نحن متحضرون !

لن نكون شعبا متحضرا إلا إذا أنفقنا على الكتب والإسطوانات والكاستات أضعاف ما ننفقه على المياه الغازية!

فالمياه الغازية ليست من ضرورات الحياة . . الماء وحده هو الضرورة ولكنها جميعا كماليات مثل الكعك والبسبوسة إذا قورنت بالخبز .

وربما أدت النهضة -أى استيعاب العلوم والفنون وتوظيفها لتطوير المجتمع- إلى أن يكون الكعك والمشروبات الغازية وغيرها من ضرورات الحياة كأجهزة التكييف والتليفزيون والطائرة .

ولكن لو نظرنا إلى أركان بيوتنا ، صغيرة أو كبيرة ، فكم من الكتب نجد ، وكم عدد الذين يقرأون فى كل أسرة كتبا اشتروها ، وكم عدد الذين يترددون على المكتبات العامة . . ثم كم عدد الساعات التى تشغلها الثقافة والأدب والفن فى الإذاعة والتليفزيون .

ثم كم عدد الذين إذا أرادوا أن يقدموا هدية لأحد أعطوه كتابا أو مكتبة .

وتمر بنا مناسبات وأعياد كثيرة فهل ظهر إعلان واحد عن كتاب نقدمه هدية فى واحد من هذه المناسبات والأعياد .

إن أحدا لم يعلن عن مصحف كريم أنيق الطباعة ، أو شرح مبسط جديد لكتاب الله ليكون أعظم الهدايا فى أكرم المناسبات!

إن اختفاء مثل هذا الإعلان ، هو دليل واضح على أن الكتاب ليس شيئا مهما فى أعماقنا .

ولذلك فالطريق طويل بين المعدة والعقل . . أطول بكثير جدا مما رهو موجود فى الجسم الإنسانى .

ويوم يكون للكتاب متعة المياه الغازية وضرورتها الآن . . نستطيع أن نقول : إننا متحضرون!

قرروا أن يصنعوا

أنا من هواة المعارض الدولية . . ففيها كل تحديات وإبداعات العقول الشابة . . ووراء هذه العقول ألوف الشركات وألوف ملايين الدولارات . وهى جميعا تعرض وتقدم وتتحدى وتنتظر أن يجىء ملايين الناس يتفرجون ويقولون الله على براعة الإنسان . .

وكنت أتفرج على المعارض الدولية للكتب . . فى فرانكفورت وغيرها . . وأرى وأقلب الكتب وأبحث عن أصدقائى من الفلاسفة والأدباء والشعراء والمؤرخين . . واشترى وانطوى على الكتب اقرأ وأتأمل وأتمتع بجهود المفكرين والأدباء والفلاسفة والمؤرخين . . وأتمنى لنفسى ولبلدى وللأدباء والمفكرين فى بلادى أن يكون لهم مثل هذا القدر الرفيع . . ورأيت معارض أدوات الطباعة . . وكيف دخلتها العقول الإلكترونية فجعلتها أسرع وأدق وأجمل . . وكيف أن اعداد جريدة أو مجلة أصبح عملا إلكترونيا . . يقوم به شخص واحد ، وكان العشرات يقومون بذلك ، وكل عام شىء جديد ، يدل على أن عقولا جبارة سهرت وتعبت وأنجزت شيئا بديعا . . وفى السنوات الأخيرة رأيت معارض من نوع خاص . . إنها معارض صناعة السجاد وهى الصناعة الوحيدة التى تفوقت فيها مصر على نفسها وعلى كثير من دول أوروبا وأمريكا . . ولم أصدق أن «النساجون الشرقيون» قد تفوقوا على كل دول العالم هل هذا

معقول؟ فعلا معقول . . لقد رأيت ذلك بعينى واندهشت ، وأسعدنى ما رأيت . وتساءلت فقال لى زميلى فى مجلس الشورى رجل السجاد الأول فى مصر محمد فريد خميس إنه لا توجد معجزة وإنما كل ما هناك أن عددا كبيرا من الشباب قد تهيأت لهم كل فرص التشجيع والمكافأة . . وذلك بالسفر والدراسة والتدريب والعمل على احداث الأدوات الإلكترونية . هذا كل ما هنالك . . ونجاحهم هو أعظم تحية للقطاع الخاص وللحرية التى هى أم الإبداع ثم الاحتكاك بالمنافسة الدولية التى لا ترحم فتفوقوا ، وسوف يتفوقون . . وسألت د . صبرى الشبراوى زميلى فى مجلس الشورى وأحد فلاسفة الإدارة الحديثة والتسويق فكان رأيه : أن النجاح مشروط بدراسة السوق . . وليس هذا هو سر نجاح بعض شركات القطاع الخاص ، ونجاح هذه الدولة كلها ، إذا أرادت ذلك . . سألت د . جون هايسر أستاذ الإدارة الحديثة فى جامعة بركلى فقال : إن مصر تمشى الآن على الطرق الصحيح . . وإذا سارت الدولة المصرية كلها وراء مثل شركات السجاد فى مصر فالنجاح مؤكد بعد عشر سنوات ، بشرط أن تكون هذه سياسة الدولة كلها ، دون أن تتراجع أو ترتعش خطوة واحدة . . ولم أر من بين شركات السجاد فى مصر إلا شركة «النساجون الشرقيون» فقد حققت وأنجزت ما وعدت وتفوقت عالميا .

وفى مصر شركات ناجحة ، يجب أن نلتفت إليها ونشير إلى إنجازها حتى تنفرج أسارير اليأس فى مصر ومن مصر . . لأن عددا من الرجال رغم الظلام قد أصروا على أن يضيئوا طريقهم وطريقنا إلى مستقبل أفضل!

هذا الزمــان !

اختلف العلماء فى تسمية هذا الزمان :

قالوا : عصر الذرة .

وقالوا : عصر الرجل الصغير -أى رجل الشارع .

وقالوا : يا جارى أنت فى حالك وأنا فى حالى .

وقالوا : عصر الغرائز الجنسية والعدوانية . . وقالوا : عصر لم نعد نفرق بين الرجل والمرأة . . أو أن المرأة تريد أن تكون رجلا ، والرجل تعب فى أن يظل رجلا ، وقالوا : زمن الإيدز ، أى مرض الصفات المكتسبة لنقص المناعة . . والإيدز مثل الشيخوخة لا علاج له . . فلا علاج حتى الآن للشيخوخة . . وهى ليست مرضا . . ولكنها نهاية طبيعية لجسم ووظائف الإنسان . . فأما هذا الزمان والأزمنة السابقة منذ الثورة الصناعية حتى اليوم وغدا : فهو عصر التوتر العصبى . . والحرص على تخفيف هذا التوتر . . فإن كنت ترى أن الممثلة جوان كولنز (٦٠ عاما) والتى تبدو كأنها فى الأربعينات ، فهناك كلام معقول يجىء على لسانها . . من تأليفها أو من تأليف مؤلف فى ظلها ، فهى صاحبة تجربة فى تهدئة نفسها والسعادة الشخصية دون أن تحمل هموم رؤساء العالم وساسته وقادته . . إذن فلا ضرر عليك إذا سمعت كلامها . . وفى نفس الوقت نظرت إلى رشاقتها وأناقتها وأعصابها المتينة ومعنوياتها العالية دائما . كيف؟

تقول لك : إنها انتقت أسلوبا فى القضاء على التوتر اليومى ، وهى صاحبة تجربة وليست صاحبة نظرية فلسفية أو سيكلوجية . . بل علم النفس يبدأ من تجربتها ويحللها ويدعو جميع الناس إلى أن يفعلوا مثلها .

تقول سيادتها فلا تستخف بما تقول :

١- انظر إلى لوحة قديمة . . أو صورة قديمة لك وفكر . .

٢- أو ارجع إلى كتب الدراسة الابتدائية وقلب فيها ، وحاول أن تتذكر المدرسين وزملاءك من التلامذة وبعض النوادر والحكايات .

٣- أدر قرص التليفون واطلب صديقا اشكره على شىء فعله لك . . مهما كان تافها فاشكره عليه . . وادخل فى حوار فى أى شىء ولأى وقت . .

٤- اخرج من البيت أو من المكتب وانزل إلى الشارع . . دون أن يكون لك هدف ، املأ عينيك بالمحلات التجارية وتأمل المارة كأنك تراهم لأول مرة . .

٥- اركب سيارتك وانطلق إلى أماكن لم تعتد على زيارتها منذ وقت طويل ، اختر أى مقهى . . واجلس وانسى . .

٦- إذا كانت لك هواية فمارسها فورا ، وإذا لم تكن لك هواية فهذا هو الوقت فى أن تبحث عن هواية وقرر أن تمارسها .

٧- لابد أنك سمعت عن التدليك . . تدليك الساقين والذراعين والظهر والعنق . . إن لم تكن تمارس هذا العلاج الطبيعى . . ففى استطاعتك -مؤقتا- أن تبدأ أنت بنفسك بتدليك هذه المواضع وأن يستغرق هذا العمل بعض الوقت .

٨- إذا كنت من الذين يتكاسلون عن كتابة الخطابات للأصدقاء ، وتؤجلها دائما . . الآن ابدأ فورا فى الكتابة واترك لنفسك الحرية فى أن تكتب . . قد يندهش الصديق ، لا يهم ، فالمهم أن تكتب وأن تقوم بهذا التفريج النفسى . .

٩- اشتر أى شىء . وخذ حريتك فى الاختيار والانتقال من محل إلى محل . . إنها متعة . . هذه المتعة تمارسها المرأة ، فإذا كان الشراء عند المرأة غريزة ، فإن التفريج عن النفس غريزة أخرى . .

١٠- أخيرا إذا لم تكن قادرا على كل هذه الممارسات . . فهناك عملية صغيرة بسيطة قصيرة يمكنك أن تقوم بها الآن فورا ، حتى بعد قراءة هذه السطور ، اجلس على مقعدك اغمض عينيك . . انزل ذراعيك إلى جوارك ومدد ساقيك . . وكلها عشر دقائق ، وتصبح فى غاية الراحة والحيوية . .

رأيى الشخصى أن تصدقها ، فهى لا تحدث من فراغ!

ذوق الإنجليز !

الإنجليز ليس عندهم ذوق فى اللبس . . الرجال فقط . أما النساء فعندهن أحدث خيوط الموضة . . والتى اخترعت المينى والميكروجيب بريطانية . وقد استطاعت هذه السيدة وحدها أن تكسب للسياحة والأزياء والأناقة ألوف ملايين الدولارات . . هذه السيدة البريطانية هى مارى كوانت!

وقد جرب الإنجليز كيف يقدمون الثورات الهادئة . . فبعد ثورتهم الصناعية التى غيرت وجه الأرض ، بدأت ثوراتهم فى المسرح . . وثورتهم فى الموسيقى والغناء . . الخنافس مثلا . .

ولم تفلح كل دور الأزياء أن تجعل الرجل الإنجليزى يلبس بدلة واحدة لها علاقة صميمة بجسمه . . فالإنجليز يطالبون رئيس وزرائهم بأن يغير البدلة الحقيرة التى يرتديها . . فهو الوحيد الذى كان منظره مضحكا فى الحفلات الرسمية عندما يقف ويبحث عن الزراير لكى يفك الجاكتة . . وأضحك الإنجليز أكثر أنه لم يستطع أن يقفل الجاكتة دون أن ينظر إلى الزراير كأنه اكتشف لأول مرة أنها موجودة هناك .

وبعض الوزراء يرتدى كرافتات لا تليق إلا بالشبان . . حتى هذه الكرافتات إذا لبسها الشاب فإنه يظل واقفا على باب البيت . . لأنه لا يعرف أين يذهب بها يا ليت الإنجليز وزراء

وساسة يحضرون إلى مصر ٢٤ ساعة لكى يسألوا السادة وزراءنا من أين يأتون بهذه الكرافتات البالغة الأناقة والفخامة ويتفرجون عليهم وهم يستعرضونها فى الحفلات الرسمية!

وأشيك من يرتدى الكرافتات فى مصر كلها : عاطف صدقى وصفوت الشريف وفاروق حسنى .

ولو نظرت إلى أحذية الإنجليز لتأكد لديك أنهم يشترونها جيدة . . ثم يبعثون بها إلى دول الكومنولث يلبسونها سنة أو سنتين ثم يعيدونها إلى أصحابها . . فالأنجليز يفضلون الأحذية القديمة على الجديدة . . بشرط أن تكون مزدوجة النعل والكعب والرباط . . لماذا؟ لا أحد يعرف .

والمرأة البريطانية مشغولة بأناقتها وهى بالفعل كذلك . ولا تتدخل فى شئون زوجها الذى ينام بالبدلة الذى يحضر بها اجتماع مجلس الوزراء ويعود بها إلى السرير . . فينام على الجانب الأيمن يوما ، وعلى الجانب الأيسر يوما . . وبذلك يكون البنطلون كالجاكتة اسطوانى الشكل . . ملفوفا حول جسمه منفوخا لا علاقة له بالمكواة!

والمرأة الإنجليزية مختلفة عن الفرنسية فإذا رأيت الفرنسية فى الشارع فإنه يدهشك كيف أن باريس أم الموضة والنساء لا يمشين على الموضة . . إنهن مانيكانات فى الليل . . آخر الخطوط . . خطوط الذيل والصدر والأكمام . . أما المرأة الإنجليزية ، وهى الأجمل لونا وبشرة فهى أنيقة نهارا . . وإذا رأيتها ليلا كانت أكثر أناقة . . أما الرجل الفرنسى فهو الأكثر أناقة من الرجل الإنجليزى -انظر إلى الرئيس ميتران وإلى جون ميجور . أما الرئيس الأمريكى فهو الأكثر بساطة . . نهارا وليلا ، وهو فى نفس الوقت أنيق .

وقد تشكلت فى بريطانيا لجنة برئاسة إحدى سيدات الأناقة تطالب ساسة بريطانيا أن يجدوا حلاقا أحسن . . فشعورهم منكوشة . . فهم لا ينسون أن يحلقوا لحاهم كل يوم . . وينسون أن يحلقوا رؤوسهم ولو مرة واحدة كل سنة . . ومن أهداف هذه الجمعية تحسين صورة الرجل الإنجليزى الذى يدل على إهمال المرأة له ، أو على تجاهله لنصائح زوجته . . أو عدم احترامه للذوق العام فى بلاده .

فهل يا ترى عدم اهتمام الرجل الإنجليزى بمظهره سببه أنه مشغول بما هو أهم ، واهتمام الرجال الآخرين بمظهرهم دليل على انشغالهم بالأناقة عن أى شيء آخر . . وهل المرأة تشجعه على أن يكون رجلا ، لا أن يكون مسئولا . . أو أنه يمكن أن يكون الإنسان مشغولا إلا عن مظهره . .

سوف يدلنا الإنجليز على ذلك عندما تصدر اللجنة بيانها عن علاقة الأناقة بالمسئولية!

١٢٥ عامًا سلاما!

سوف تمضى ذكرى مرور خمسين سنة على إسقاط أول قنبلة ذرية فى التاريخ ، تماما كما مضت ذكرى ٢٥ عاما وعشر سنوات على إسقاط القنبلة البدائية الأمريكية على مدينة هيروشيما يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ ، وبعدها بثلاثة أيام سقطت القنبلة الثانية على مدينة نجاساكى اليابانية ، وكان ذلك إعلانا نهائيا للحرب العالمية الثانية ، ومن العجيب أن الأمريكان يطلبون من الشعب اليابانى أن يعتذر عن إغراق الأسطول الأمريكى فى ببرل هاربور ، ولا يطلب الشعب اليابانى اعتذارا من الأمريكان عن القصف الوحشى للمدينتين!

أما الإنجليز فكانوا أعقل فقد اعتذروا لبولندا وتشيكوسلوفاكيا عن الذى بدر منهم فى الحرب العالمية الثانية .

وقد علم العلماء اليهود الألمان فى أمريكا أن العلماء الألمان فى ألمانيا قد اهتدوا إلى كل ما يمكنهم من صناعة القنبلة الذرية ، فالعالم الألمانى أوتوهان قد اكتشف أن اليورانيوم ٢٣٥ هو أنسب العناصر لاستخدامه فى التفجير النووى ، ولم يبق إلا تطبيق هذه النظرية ، أما قاعدة الانفجار النووى وتوليد الطاقة فقد اهتدى إليها العالم اليهودى اينشتين والذى هاجر إلى أمريكا فهى : الطاقة = الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء «١٨٦ ألف ميل فى

الثـانيـة» . وبسـرعـة بعث العلمـاء الألمان اليـهـود إلى الرئيس الأمـريكى يتـعـجلون صناعـة القنبلة الذرية ، وأقـام العلمـاء الألمان مـدينة هى «لوس الامـوس» . . وأخـذ العـمـال والخـبـراء يتكاثرون حتـى بلغـوا سـبـعين ألفـا من أجل صنـاعـة أول قنبلة ذرية ، هذه القنبلة التى تعـاون فـيـهـا علمـاء أمـريكا الألمان وعلمـاء بريطانيـا تكلفت ألفى مليون دولار!

وسـقطت القنبلتـان وظلت المعامل تطور صناعـة القنابل وتهـدد باسـتـخدامـهـا . . وتبـارت الدول كلهـا فى صناعـة القنابل الذرية . وتوليد ما يسمى بالتعادل النووى -أى عندما تتـعادل القدرة النووية عند أمـريكا وروسـيـا ، فـإن هـذا يكفى لتـعـادل الرعب فـلا أمـريكا تضرب روسيا ولا روسـيا تضرب أمريكا وعشنا فى ظل تعادل قوى الرعب على الجـانبين . وانتـقل العلمـاء من قنابل اليـورانيـوم إلى القنابل الهيـدروجـينيـة والبلوتينيـة ، وكلهـا تنفـجر وفـقـا للنظريات الألمانيـة -الألمان المقيـمـون فى بلادهم والألمان اليـهـود الذين هربوا إلى أمـريكا . . والذى حدث فى صناعـة القنابل الذرية ، تكرر مرة أخـرى فى صناعـة الصـواريخ وسـفن الفـضـاء . . فـالألمان الذين خطفتهم أمريكا والألمان الذين أسرتهم روسيا يتنافسون فى الدوران حـول الأرض وإخـراج اللسـان للدولة الأخـرى ، حـتى قـيل إن سفينتى فضاء روسية وأمريكية التقتا حول الأرض فقالت الواحدة للأخرى : ولماذا لا نتكلم الألمانية!

وتركـزت كل الجاسـوسـيـة على مـراقـبـة صناعـة القنابل الذرية وسرقة المعلومات . وعندما انهار الاتحاد السـوفييتى عرضت روسيا علماءها للبيع . . علماء الذرة وعلماء الفضاء . . بل معروض للبيع

كل المفاعلات الذرية ، وانتقلت هذه المفاعلات إلى دول العالم الثالث التى عندها الفلوس وعندها أطماع . . كالعراق مثلا . . فالمفاعلات النووية العراقية فرنسية الصنع ، ومصانع الإبادة الكيماوية والميكروبية ألمانية . . وصناعة الصواريخ من الأرجنتين وبريطانيا وسويسرا وألمانيا أيضا . . وإيران تحاول أن تحصل على أنواع الأسلحة النووية لتستخدمها ضد العراق أو ضد أية دولة إسلامية لا تريد أن تكون شيعية . .

والعجيب أن الذين يبيعون بترول العراق والذين يشترون الأسلحة لإيران هم السماسرة اليهود! والذين يبيعون لإيران قطع غيار المفاعلات النووية هم سماسرة جنوب أفريقيا وهم أيضا من اليهود . .

ولاتزال عبارة المؤرخ الأمريكى ول ديوران صحيحة ، وهى أن البشرية فى الثلاثين قرنا الماضية لم تعرف السلام إلا ١٢٥ عاما . . أما بقية السنين فقد كانت حروبا أواستعدادا لها ولا حول ولا قوة إلا بالله!

٨٩ قومية !

روسيا الاتحادية تضم الآن ٨٩ قومية ، بعض هذه القوميات تريد أن تفلت من قبضة الروس . . ولكن واحدة فقط استطاعت من ثلاث سنوات أن تنفصل . . وهى جمهورية شيشانيا الإسلامية . وعدد سكانها مليون ونصف مليون ، وهى غنية بالبترول وتقع شواطئها الشرقية على بحر قزوين والشواطىء الغربية على البحر الأسود . . وسكانها فى غاية الصلابة والقوة . وقد استولت عليها روسيا من حوالى ١٢٥ عاما ، ولكن أحد الجنرالات السوفييت واسمه ذخر داديف قد أعلن انفصاله عن روسيا ، وسكتت روسيا ، وحاولت أن تساند المعارضة بالفلوس والسلاح . وفى الشهر الماضى تمكنت المعارضة بمساندة روسيا من الهجوم على العاصمة جروزنى ، ولكن القوات الوطنية استطاعت أن تحطم ٢٠ دبابة وتجرح ٣٥٠ وتأسر ١٢٠ جنديا وضابطا روسيا . وقد هددها الرئيس يلتسين بأن القوات الوطنية إذا لم تنسحب وتسلم السلاح والأسرى فسوف يضربها بمنتهى العنف . . فهو يخشى ان انفصلت شيشانيا أن تنفصل عشرات القوميات الأخرى . . وعلى الرغم من أن فى استطاعة روسيا أن تسحق أية مقاومة ، فإن يلتسين عدل عن هذا التهديد . .

فأمام يلتسين سوابق ضد المسلمين ، فروسيا قد حاربت المسلمين فى أفغانستان وتحاربهم فى الصرب ضد البوسنة . . وشيشانيا هذه دولة إسلامية . . ثم إن الدول العربية والإسلامية قد تبادلت التمثيل الدبلوماسى مع روسيا خاصة دول البترول . .

وقد ثبت من الناحية التاريخية أن الدول العظمى مهما كانت قواتها وأسلحتها فقد ركعت أمام الدول الصغيرة التى استماتت من أجل أوطانها ودينها . . لقد انسحبت روسيا من أفغانستان وانسحبت أمريكا من فيتنام . . وبريطانيا لم تنجح ضد ايرلندا . .

وكل الدول الأجنبية قد انسحبت أمام المقاومة فى اليمن . . وإسرائيل قد أرهقتها حجارة المقاومة الفلسطينية .

وليس فى استطاعة يلتسين أن يكرر -فى هذا الزمان- ما فعله الروس فى الهجوم على تشيكوسلوفاكيا . .

ولكن من المؤكد أن يلتسين لن يسكت على شيشانيا . . ولن يقبل أن يؤدى انفصالها إلى تشجيع قوميات أخرى على الانفصال من الاتحاد السوفييتى فتنهار روسيا الاتحادية كما انهار الاتحاد السوفييتى . .

بل إن الشيشان قد هددوا يلتسين بأنهم سوف يحاربونه فى داخل موسكو . . ففى موسكو كثيرون من أبناء هذه الدولة الصغيرة وفى استطاعتهم أن يفجروا أى شىء فى المدينة المنهارة المنحلة الجائعة . . وقد استعد يلتسين لذلك فضاعف قوات الأمن فى شوارع موسكو . . وكذلك شدد الحراسة العسكرية على أهم المرافق العامة . . فالشيشان قادرون على ذلك . . ولم تتوقف مقاومتهم للاحتلال السوفييتى طوال هذه الفترة الطويلة . . فهم يعنون ما يقولون . . ولم يكد الرئيس داديف يعلن عن (الجهاد) حتى توارى الرجال والنساء والشيوخ فى بيوتهم الحصينة واتجه الشباب لحمل السلاح . . وهم فى صلواتهم يجعلون البنادق فى أكتافهم . . المدافع الرشاشة فى أيديهم وهم يصلون ويتوجهون إلى السماء بأذرع مفتوحة أن ينصرهم الله على أعدائهم الكفرة -الروس . . وهم يقولون إن يلتسين وزوجته وزوجة جورباتشوف من أصول إسلامية . وهذا صحيح ، كلاهما من قبائل النشار .

لا عمر للحب!

فى السبعين ويكتب قصة حب . . أغلب الظن أنها قصته هو؟

فـمـا هو الـغـريب؟ أن يكون فى السـبـعين ويكتب غـرامـيـاته القديمة . . أو حتى الجديدة . .

فهل للحب عمر . . هل القلب أيضا يشيخ؟

إن الرئيس الفرنسى جيسكار دستان قد جلس شهرين وكتب رواية عنوانها «الممر» والرواية تتحدث عن نوعين من الصيد : صيد الغزلان -صيد البنات التى هى الغزلان أيضا . .

ويقـول الخـبـثـاء : إن الرئيس الفرنسى السابق بارع فى الإثنين فهل غريب أن يحب رئيس فرنسى؟ ليس غريبا . . هل غريب أن يعترف؟ ليس غريبا . . إذن فما هذا الاستقبال البارد الذى لقيه من النقاد فى الصحف والمجلات؟

الأسباب كثيرة . .

من بينها : أن أحدا لم يعرف عن الرئيس ديستان أنه أديب . . أو حـتى له اهـتـمـامـات أدبيـة وعندمـا كـتب روايتـه هذه لم يكن أديـبـا ، وإنما هى حكاية قـد سـردها ولكن ليـست من الأعـمـال الأدبية .

النقاد قالوا : إن أحدا لم يعترض على أنه أحب وإنما الاعتراض

على أنه كتب ذلك . . وليس الاعتراض على أنه اعترف ولكن الاعتراض على أنه كتب وهو لا يعرف فن الكتابة!

بعض النقاد قال : إن العبارات والمضمون ليس متينا كأنما كتبت سطوره إحدى الغزلان بحوافرها!

أحد النقاد قال : إذا كان لابد للرئيس أن ينشر فلماذا لجأ إلى زوج ابنته؟ وكان الجواب : حتى لا يعرف أحد كم خسر الرئيس ماديا من نشر هذه القصة . . أما خسارته الأدبية إذا رشح نفسه لانتخابات الرئاسة فسوف تكون مؤلمة فسوف يساهم الجميع فى فداحتها!

ناقد قال : كيف يقنع الرئيس القديم والمؤلف الناشىء قراءه بأنه بذل مجهودا إذا كان لم يجلس إلى مكتبه سوى شهرين استخدم فيهما قلما جافا واحدا . . أين عناء بلزاك ودوخه فلوبير وتعاسة هيجو . . إن الرئيس لم يعرض على الناس شيئا من ذلك وإنما أراد أن يؤكد لهم أن تأليف روايته لأول مرة ليس شيئا خطيرا . . ولذلك بادله الناس هذا الشعور ، فقد أحسوا هم أيضا أن الذى قدمه ليس خطيرا ولا يستحق الالتفات إليه .

بل إن القراء قد عاقبوا الرئيس قبل أن تصدر روايته . . لأن الإعلانات عنها تريد أن تقول : حتى إذا لم يكن أحد يعلم أنه أديب فهو أديب رغم كل شىء .

أما السياسيون فقد فزعوا بصدور هذه الرواية لأنها لا تحمل أى معنى جديد ولا أى اجتهاد سياسى يساعد الرئيس على أن يختاره الشعب رئيسا مرة أخرى . . ولم يبق أمام النقاد إلا أن يعتذر الرئيس عن إصدار هذه الرواية . . أو يسحبها من الأسواق .

ولكن الرئيس ديستان الذى نجح مرة كرئيس لفرنسا والذى يريد أن ينجح مرة أخرى قد فشل لأول وآخر مرة أن يكون مؤلفا محترما بين الشعب الذى يتذوق الأدب والفن الجميل!

منتهى القسوة من النقاد ومن القراء فماذا لو قرأ الناس ما كتب رئيسهم؟

ماذا لو وجدوا أنه يحاول وأنه لا ضرر من المحاولة .. فهو لم يدع أنه فى حجم ووزن وطول وعرض الأدباء الفرنسيين العظماء .. إنه لم يقل أكثر من أنه صاحب تجربة وأنه نقلها على الورق .. إنها حكاية .. رواية لأحد عظماء فرنسا .

شىء غريب أن المواطنين لايريدون إلا شيئا واحدا : اما أن يكون كاتبا أو سياسيا .. وليس الاثنين معا!

ولو أحس الرئيس دستان أن الشعب الفرنسى سوف يعترف به أديبا لتنحى عن ترشيح نسفه للرياسة .. ولكنه ليس على يقين من ذلك!

خرافيات

تشرشل!

الموضة فى المزادات فى لندن هذه الأيام : مخلفات الزعيم السياسى ونستون تشرشل . منذ شهور بعيت خطاباته الغرامية إلى ملكة الجمال التى رفضت الزواج منه ، ولم ينس حبه لها ، ولا هى حبها له حتى مات وحتى ماتت . وكانت زوجة تشرشل تعرف هذه القصة الغرامية .

وكان ظهور هذه الخطابات مفاجأة ، فلم يكن أحد يتصور أن هذا الرجل السياسى الغرقان فى المشاكل عنده متسع لأن يقول : آه . . وأن يبكى سرا بعيدا عن الناس . . فقد أحب وأحب وتنهد وبكى ، ولم يره أحد . . حتى ظهرت هذه الخطابات . الخطابات توارثها أحفاد المحبوبة وعرضوها للبيع فى مزاد علنى .

وفى هذه الخطابات يكشف تشرشل عن حزنه الشديد لأن التى أحبها رفضته . لم تر فيه شيئا له قيمة . فقد كان يومها عضوا فى مجلس العموم البريطانى . . واحدا ضمن ٦٠٠ آخرين!

وفوجىء الإنجليز بأن ابن تشرشل يقول : إن والده لا كان محبا ولا عاشقا ، وإن والده لا قلب له ، وإنما هو رجل طامع فى فلوس هذ السيدة الجميلة!

وطلب أحد تجار المزادات من ابن تشرشل أن يكتب رأيه هذا بخط يده فى خطاب ليحتفظ به . . وليبيعه وثيقة تاريخية فيما بعد . .

وفى سنة ١٩٩٢ ماتت سكرتيرة تشرشل عن ٩٢ عاما ، واسمها

كاثلين هل . وتركت وراءها كمية كبيرة من الوثائق . من بينها نص الخطاب الذى ألقاه تشرشل بعد انتصار الإنجليز على روميل فى شمال أفريقيا ، الخطاب مكون من ثمانى صفحات . . وفيه تصويبات كثيرة بالأحمر والأزرق بخط تشرشل نفسه .

وفى هذه الخطبة التى ألقاها فى احتفال عمدة لندن بالنصر قال تشرشل عبارته التاريخية التى هزت الجماهير والجيوش فى أوروبا .

قال تشرشل فى هذه الخطبة : ليست هذه هى النهاية . . ولا هى بداية النهاية ، وربما كانت نهاية البداية . .

فقد كان النصر فى الصحراء بداية سلسلة من الانتصارات فى كل الجهات فى شمال أفريقيا وفى غيرها .

هذه الخطبة ألقاها بعد أيام من الانتصار على روميل فى العلمين سنة ١٩٤٢ .

وقد بيع نص هذه الخطبة بعشرة آلاف جنيه استرلينى .

وكانت سكرتيرة تشرشل قد جمعت لديها كميات كثيرة من الوثائق والدعوات التى تلقتها من رؤساء دول ووزارات فى أوروبا وأمريكا ولم تشأ هى أن تكتب مذكراتها ، وإنما ظلت أمينه على أسرار تشرشل حتى موتها .

وفى صناديقها الشخصية خطابات غرامية . . ليست لها ، ولكن عددا كبيرا من المحبين الكبار قد حدثوها عن غرامهم . . وطلبوا إليها أن تصلح ما بين المحبين . ولا أحد يعرف ماذا جرى ، فهى لم تقل لنا شيئا وإنما آثرت أن تطوى نفسها على أسرارها وأسرار تشرشل وغيره من الزعماء!

ولكن هذه الخطابات الغرامية سوف تكون مجالا للبحث من المؤرخين . فمعظم أصحاب هذه الخطابات اكتفوا بالحروف الأولى من أسمائهم .

ومن الوثائق العجيبة : قصائد يبدو أن الذين نظموها كانوا من الوزراء أو القادة . ولا أحد يعرف فيمن نظموها ، ولكن سكرتيرة تشرشل قد احتفظت بهذه القصائد . وأغلب الظن أنها شخصيا موضوع هذه القصائد .

هناك مقطوعة شعرية وخطها قريب من خط تشرشل . وإن كانت ومن الوثائق العجيبة : قصائد يبدو أن الذين نظموها كانوا من الوزراء أو القادة . ولا أحد يعرف فيمن نظموها ، ولكن سكرتيرة تشرشل قد احتفظت بهذه القصائد . وأغلب الظن أنها شخصيا موضوع هذه القصائد .

هناك مقطوعة شعرية وخطها قريب من خط تشرشل . وإن كانت هناك محاولات واضحة لتغيير شكل الخط . . ويبدو أنها مطلع قصيدة لتشرشل نظمها فى إحدى الجميلات . . ولكن أحدا لا يعلم . . وهى أيضا معروضة للبيع!

وهناك مسودة خطاب عنيف كتبه تشرشل لا يعرف إلى من . . ولكن تشرشل لم يشأ أن يكمل الخطاب الملىء بالسب . . ولذلك تركه ناقصا دون توقيع . . وأغلب الظن أنه غير رأيه . . أو أن سكرتيرته أقنعته بأن يفعل ذلك .

وهو أيضا معروض للبيع!

كلامهم حلو!

الذين سافروا إلى لبنان قبل هذه الحروب الدامية المدمرة عرفوا معنى الجمال والمتعة والراحة والطرب والجبال والغابات .

لقد كانت لبنان أجمل بلاد العرب ، البلاد صغيرة والناس فى غاية الأدب والذوق والنظافة والأناقة ، لا أحد يعرف عدد المطاعم الصغيرة فى لبنان وعلى الرغم من أنها صغيرة فهى جميلة أنيقة أما الخدمات التى يقدمونها لصاحب الجلالة السائح فلا أول لها ولا آخر .

واللبنانيون كلامهم حلو ومجاملون وفى غاية الذوق .

وقد تختلف مع التاجر اللبنانى أو المحامى أو الطبيب عندما تلتقى به ، وقد يناقشك ساعة على مائة ليرة ولكنه فى الليل يدعو إلى عشاء ينفق عليه ألف ليرة!!

وكنا نتعجب أننا اختلفنا مع الناشرين على النسبة التى يستحقها المؤلف عن كتبه وتكون النسبة شيئا متواضعا ، وتكون المناقشة طويلة ويكاد الناشر اللبنانى يأتى لك بأولاده بملابسهم الممزقة دليلا على أنه لا يكسب منك ، وتندهش لذلك عندما تنظر إلى ملابسه وإلى سيارته وإلى المجوهرات فى أصابع زوجته وبناته ولكنه لا يكف عن الشكوى وعن البكاء .

فإذا دعاك إلى بيته ليلا فأنت فى قصر به خدم وحشم وإذا

الطعام فاخر وفى غاية السخاء ، وإذا هو إنسان آخر ألطف أظرف أكثر مجاملة وإذا بزوجته فى غاية الشياكة والأناقة فما معنى ذلك؟

معناه أنه كتاجر لابد أن يكون شاطرا ولابد أن يغلبك فإذا ذهبت إلي بيته فأنت ضيف عليه ولك كل الاحترام ومن أجلك تهون الألوف!

وأثناء الحرب اللبنانية التى كادت تنتهى كنا نفاجأ بأن اللبنانيين القادمين إلى مصر فى غاية الأناقة وفى غاية الهدوء وتسأل كيف بلادكم؟

ويكون الجواب حزنا شديدا على حال البلاد والدمار والخراب ، وهجرة أهل لبنان للعمل بنجاح وبراعة فى أماكن كثيرة من الدنيا وفى نفس الوقت لديهم جميعا الاستعداد للعودة إلى بلادهم -رغم نجاحهم العظيم فى كل مشاريعهم فى القارات الخمس!

ورغم الدمار فكل المحلات فى بيروت تعمل ، وكل دور السينما وكل الكازينوهات وترى فى المحلات اللبنانية صور الحفلات فخمة وترى عروضا للأزياء ، وترى الوجوه الضاحكة والصحة والعافية كيف؟

إنه المواطن اللبنانى فيه طبيعة الجبال وأشجار الأرز ، الصلابة والحيوية والشموخ ، وفى أى مكان تجد التاجر اللبنانى ناجحا مثلا : المطاعم اللبنانية فى كل العواصم العالمية .

إنهم أوروبيون وفى نفس الوقت لبنانيون مائة فى المائة فالمطاعم نظيفة أنيقة والطعام وطنى والموسيقى والزبائن كلهم لبنانيون

وأجانب ولم أعرف لبنانيا واحدا لم يذهب إلى مطعم لبنانى فى أى مكان ولم أعرف لبنانيا واحدا دعانى إلى مطعم أجنبى أبدا لابد أن يدعوك إلى مطعم لبنانى وهو فخور بذلك وأنت راض فى النهاية .

ولن يمضى وقت طويل حتى تستعيد لبنان جمالها وأبهتها وفخامتها فالذين عادوا من لبنان أخيرا يقولون : لبنان قد عاد إلى سابق جماله ، وأنها سنة أو سنتان وسوف يذهب الناس إلى أجمل الأماكن العربيية ولبنان دولة تقدم الخدمات فليست لها موارد طبيعية وإنما مصادر خيراتها كلها الإنسان صاحب المطعم وصاحب الفندق الذى يقدم لك الراحة والمتعة والجمال فى أجمل صورة . . وقد ذهب الناس فى الصيف إلى كل مكان حول لبنان ، والسبب هو الحرب التى خربت كل لبنان شمالا وجنوبا دينا وسياسة وتجارة وصناعة وسياحة .

ذهب الناس إلى قبرص وعيونهم على بيروت ، ذهبوا إلى تركيا وهم أشد حزنا على الأرز ، فإذا عادت لبنان فإن السياحة فى الشرق الأوسط كله سوف تنهض بسرعة لتنافس لبنان وسوف ينشط السورى والأردنى والمصرى والقبرصى والتونسى والمغربى والإيطالى كل هؤلاء يعملون ألف حساب للبنان الجميل المرتفع الأسعار .

إننا فى حاجة إلى هذه الصحوة السياحية الجمالية .

حمدا على سلامة لبنان!

كلهم ذهبـــوا !

(١)

أخذتهم سنة ١٩٩٤ ولن يعودوا . . وأكثر الناس لا يعرفونهم . .

مثلا : المخرج التليفزيونى الكبير محمد سالم . . لم يعد أحد يعرف من هو . ولكنه الفتى الأول فى الإخراج التليفزيونى فى مصر . . فقد كان هو «المخرج» والمكتشف للنجوم فى أول عهدنا بالتليفزيون . ومحمد سالم كان عصبيا حساسا يضحك بمنتهى القوة ويغضب أيضا . . وكانت ملامح وجهه صارمة . . ولكن من السهل إثارته وإضحاكه . . ولأنه تعلم فى أمريكا فهو لا يكتب بالعربية ولا ينطقها نطقا صحيحا ، ولابد أن يضحك أى إنسان إذا قرأ له خطابا أو له تأشيرة على خطاب . .

وكان صاحب خيال وأحلام . . وكانت عنده مشاريع يرى أن تحقيقها ممكن . . ولكن الذين يحسبونها بالقرش والمليم يرون أنها مستحيلة . . ولكن محمد سالم كان تاجرا ناجحا أيضا . . ولكن الذى أفسد غريزته التجارية هو خياله الجامح . . ولذلك فشلت مشاريع فنية وتجارية كان يعلق عليها أملا عظيما . .

وقد اكتشف محمد سالم عددا كبيرا من أهم وجوه الشاشة . . ومن أكبر ممثليها ومطربيها وراقصاتها أيضا . . وقد أخرج محمد سالم عددا من الأغنيات الاستعراضية الوطنية لمحمد عبد الوهاب وغيره من الملحنين والمطربين أيضا .

ومكتب محمد سالم فى السنوات الأولى للتليفزيون المصرى : سوق أو وكالة البلح . . أو مستشفى للأمراض العقلية . . هيصة كبيرة من العمل والإنتاج . . وهو وسط هذا المهرجان أو الفوضى يدير بيديه وذراعيه وحركاته كل هذه المعركة الفنية اليومية .

وطبيعى أن يصطدم محمد سالم بالذين لا يعرفون إلا اللوائح الجامدة . . ولابد من اللوائح والقواعد والأصول . . ولكن محمد سالم «بوهيمى» . . لا يريد لا لوائح ولا قوانين ، وهو يريد أن ينجز عملا باهرا والسلام . . هذا ما يريده ، ولكن التليفزيون هيئة حكومية تخضع لقوانين ولوائح . . ولابد من فرضها بالقوة على أى إنسان . . وكنا نسافر إلى بورسعيد هربا من ضوضاء القاهرة وجنون العاملين والذين يعترضون العاملين فى كل مكان . . وإذا جلست إلى محمد سالم وحدنا . . وجدت هذا الضاحك البرىء شديد الحزن على نفسه وعلى التليفزيون . . فهو غير قادر على أن يقفز فوق الحواجز وأن يطير فى السماء بأفكاره . . واصطدم الفنان محمد سالم بكل الإداريين ، وفى هذه الحالة لابد أن ينتصر الإداريون . . ود . عبد القادر حاتم الذى هو رجل لطيف ويشجع كل المواهب ، لا يستطيع أن يحمى أى أحد يدوس القانون أو يمسح باللوائح الأرض ذهابا وإيابا . . فهو -أيضا- يمثل القانون واحترمه ويحمى الناس من الخارجين عليه . ولم يتصور محمد سالم الفنان أنه من الممكن أن يجد نفسه خارج التليفزيون ولكنه وجد نفسه فى الشوارع المحيطة بالتليفزيون . . ولأنه فى غاية الحيوية وعنده غريزة الإنشاء والبناء والتجارة والشطارة ، أسس شركة تليفزيونية تصور وتبيع إنتاجها . .

ولا أعرف كيف جاءته فكرة أن يصور فيلما عن الرئيس

جورباتشوف . . ولا أعرف من الذى سوف يكتبه . . أو كيف يقوم بتنفيذ ذلك ، ولكنه أكد لى أن كل شىء قد تم الاتفاق عليه مع الروس ومع جروباتشوف نفسه .

ولكنى أصدق محمد سالم فكل مشروعاته كانت بهذا الشكل غريبة لا يصدقها العقل ، ولكنه ينفذها . . وقد يخسر فيها الألوف . . ولكن لابد أن يظل واقفا .

ويوم زرته فى المستشفى يحاول أن يبدو سليما أمامى وأمام ابنتيه الصغيرتين الجميلتين ، لم أكن أعرف أن هذه هى البداية . .

مات محمد سالم الذي كان أبا لعدد كبير من النجوم الذين ولدوا وعاشوا ولايزالون فى الضوء ، بينما هو ذهب فى الظلام دون أن يذكره أحد –ولن يعود . . يرحمه الله!

(٢)

الأديب الزوبعــة . . أو الأديب الإعــصــار الهــادىء : يوجين يونسكو (١٩١٢ - ١٩٩٤) فد تزعم (مسرح اللامعقول) أو (مسرح العبث) فى فرنسا . . وبعد ذلك فى العالم . وقد ظهر معظم مسرحياته على المسارح لامصرية فى الستينات ، ظهرت مسرحية (المطربة الصلعــاء) . . و(الكراسى) . . و(الدرس) و(الخــرتيت) و(خروج الملك) و(الجوع والعطش) ويونسكو هذا رومانى الأصل . أمضى طفولته فى باريس وشبابه فى بوخارست ، ومنذ سنة ١٩٤٢ أقام فى باريس وتسلطن على عرش المسرح الفرنسى . .

أما العبث فمعناه : أنه لا توجد صلة بين الناس بعضهم وبعض . . أو أنهم يشعرون بذلك . . وأن الجماهير صامتة وإذا حاولوا أن يتكلموا جاء الكلام تافها . . هلوسة . . هذيان لا معنى له ، إما لأنهم لا يريدون وإما لأن اللغة عاجزة عن نقل المعانى التى لا يريدونها وأن الإنسان ضائع . . ضاع بعد الحرب العالمية الثانية فقد تخلت عنه عبقريته وانهارت مثله العليا وأبطاله فى الفاشية والنازية والشيوعية والشعر والمسرح . . فهو ضال . . ليس له نبى وإذا كان له أنبياء فالأنبياء بلا رسالة وإذا كانت لهم رسالة فهى صفحات بيضاء فلماذا الكلام لماذا الحوار لماذا الغضب لماذا اليأس فلا معنى لأى شىء!!

وظهر عشرات المؤلفين المسرحيين فى باريس ومدريد وروما . . وفى مصر ظهرت مسرحية توفيق الحكيم (يا طالع الشجرة(وقد

اتخذت هذه المسرحية اسمها من أغنية شعبية عبثة أيضا تقول :

يا طالع الشجرة

هات لى معاك بقرة

تحلب وتدينى بالملعقة الصينى!

بقرة فوق شجرة؟ بقرة تحلب لبنها وتعطى لبنها بملعقة صينى؟! كيف؟ إنه العبث . . إنه اللا معقول ، وظهرت مسرحيات أخرى عبثية حتى للذين لم يكتبوا للمسرح ولا يعرفون الكتابة المسرحية ولكن أخفوا عجزهم الفنى فى غموض المعانى فجاء الغموض القهرى يخفى العجز عن فن التأليف المسرحى بينما الغموض عند يونسكو وتوفيق الحكيم مثل الدخان الذى يطلقونه عمدا فى زفاف العروسين هذه الأيام يريدون أن يجعلوا العروسين يسيران فوق السحاب طائرين محلقين فهم يأتون للعروسين بالسماء والسحاب ويجعلونه على الأرض فهو شكل فنى وهو مقصود لأن هذا المعنى مطلوب . .

وظهرت هناك اتجاهات لدمج المسرح والرواية معا وقد أطلق عليها توفيق الحكيم اسم (المسرواية) أى المسرحية الروائية . . أى جانب منها حوار مسرحى والثانى روائى . . أى أنه لا يوجد فى الواقع فاصل تام بين الأشكال الأدبية . . وكذلك فى مسرح العبث . . لا يوجد فاصل بين المسرح أى خشبة المسرح وبين المتفرجين . . ولذلك كثيرا ما دار حوار بين الممثلين وممثلين آخرين جالسين بين المتفرجين . . وفى إحدى مسرحيات الأديب الوجودى الفرنسى «جان جينيه» نجده يحرص على أن يكون جانب من المتفرجين لهم مواصفات خاصة وملابس خاصة فإذا كان الممثلون

من البيض ، كان بعض المتفرجين بوجوه سوداء وإذا كان الممثلون من السود ظهر الممثلون فى الصف الأول بوجوه بيضاء فهو يريد أن يقول أنه لا يوجد فاصل طبيعى بين الناس الجالسين وبين الممثلين . . وإنما هذا الفاصل مصطنع ويكفى أن نجعل أحد المتفرجين يتكلم . . فإن الممثل يرتبك لأنه يسمع ما يقال من المتفرجين . . إذن هو يسمع وهم يرونه فلا فاصل هناك! وقبل أن يموت يونسكو ومن قبله بيكيت الذى فاز بجائزة نوبل فى الأدب ، فقد مات مسرح العبث . . فقد أفاق الناس على حقيقتهم الأليمة . . واتجهوا إلى عكس ما يصوره مؤلفو المسرح العبثى . . وكانت هذه اليقظة هى صحوة الموت -صحوة لنا وموت لمسرح العبث الذى يؤكد يأس الناس وتعاستهم وعدم جدوى السخط والغضب . لأنه لابد من تجاوز كل ذلك إلى شىء آخر يجعل لنا معنى ، فيجعل للحياة معنى أيضا!

قارة العين !

يقظة العملاق الأصفر ـ هذه عبارة أو نبوءة يدعى شرفها كثيرون من المؤرخين . واحد يقول : إن نابليون هو أول من حذر من نهضة العملاق الأصفر . . الذى إذا قام بعد نوم طويل ، فلن ينام مرة أخرى ، ولن يعرف العالم كله النوم . . وإنما الأرق والفزع!

ويقال : إن الفيلسوف الحضارى الألمانى اشبنجلر هو أول من حذر الغرب كله من التنين الأصفر . . وأنه هو الذى قال : ويل للإنسانية كلها إذا انتفض هذا التنين وتثاءب فأثار عواصف من النار فى القارات الخمس!

المهم أن الشعوب الصفراء قد جاء عليها الدور لتنهض وتجرجر الشعوب البيضاء والسوداء وراءها!

وفي مقدمة الشعوب الصفراء : اليابان ، وقد عرفنا ما الذى فعلته اليابان فى الصناعة والإبداع والأسواق فى كل مكان ، وكيف أنها تهدد كل الدول العظمى فى أسواقها وفى بيوتها . فاليابان استفادت من كل العلوم والإبداعات الغربية وتفوقت عليها فى النوعية والحجم وانخفاض الأسعار . . ولا يوجد بيت واحد فى الشرق أو فى الغرب ليس به شىء مصنوع فى اليابان ، ولا بيت ولا دكان ولا سيارة ولا طيارة!

ووراء اليابان جاءت كوريا الجنوبية . . وسنغافورة وهونج كونج وتايوان وتايلاند وأندونيسيا . . وكلها شعوب صفراء . .

والمقصود بالرجل الأصفر هو الصينى . . وكل الشعوب الآسيوية من أصل صينى . .

ولكن الذين تحدثوا عن العملاق الصينى النائم كانوا يقصدون الشعب الصينى نفسه . . أى الصين التى هى الآن ألف مليون نسمةوزيادة . . هذه هى القوة الجبارة التى لا تزال نائمة ، والحقيقة أنها ليست نائمة ، وإنما هى فقط قد أغلقت الأبواب والنوافذ وقررت أن تعمل فى صمت . . وأن تنتقل من مرحلة التخلف والاعتماد على نفسها . . ثم التعليم والاعتماد على الغير سرا وقليلا إلى المرحلة الحالية وهى العمل والإنتاج المتطور والاكتفاء التام ، ثم غزا العالم كله بجبال من الإنتاج المتقن والرخيص أيضا ، وبذلك يتحول السوق الصينى من أكبر سوق استهلاكية إلى أكبر قوة إنتاجية فى العالم ـ هذا هو مصدر الخوف للعالم كله ، ولا قدرة لأحد على مواجهة دولة بهذا العدد الكبير والإصرار العظيم والتصميم الجبار على أن تنهض وتتقدم وتتطور وتتفوق وتهدد الدنيا كلها!

ويقال : إن الرئيس عبد الناصر قد شكا من إسرائيل ، فسأله الزعيم ماوتسى تونج كم عددهم ، فقال له : ثلاثة ملايين؟ فسأله : وفى أى فندق ينزلون؟!

ويقال أيضا : إن الزعيم ماو سأل عبد العناصر : هل جئت وحدك؟

قال : نعم

- كم عدد سكان مصر

فقال له : أربعون مليونا

فرد عليه ماو : ولماذا لم تأت بهم معك؟!

فالصين ليست دولة وإنما هى قارة من النمل والنحل لا يعرفون الملل ولا الكلل . . وليس فى اللغة الصينية كلمة (اجازة) . . إنهم لم يعرفوا هذه الكلمة إلا عندما اختلطوا بالشعوب الأوروبية . . ورغم اختلاطهم فلاتزال هذه الكلمة مجهولة . ولذلك فهى غير مستخدمة . . فليست لها ضرورة عندما يريدون أن يكونوا فى قمة العالم!

مجرد فرض !

- يا أخى افرض .

- ولماذا أفرض . . إذا كان خرافة .

- يا سيدى نفرض أنك رجل مليونير . . نفرض مجرد فرض . . فما الذى تفعله بالعشرين مليونا التى معك الآن!

- يا أخى أنت تفرض شيئا مستحيلا ثم إننى لو أملك هذا المبلغ فلا أعرف ما الذى يمكن عمله . . فقط أن أودعها فى البنك وأعيش على فوائدها وهذا يكفى . . فأنا لا أريد كل هذه الفلوس لأن احتياجاتى أقل من فوائدها الشهرية بكثير جدا ولذلك لا داعى لهذا الفرض . . أو هذه التخريفات .

- تعرف لأنك لاتعرف كيف تحلم «فإن الحلم لن يعطيك هذا المبلغ» . .

- وأنت هل تعرف كيف تحلم . . ومع ذلك فالله لم يعطك هذا المبلغ وأؤكد لك أنه لن يعطيك لأنك تعيش فى الأوهام ولا تحب الذين لا يشاركون الهلوسة . .

- لا . . إيه رأيك إننى عندى هذا المبلغ وزيادة .

- فماذا فعلت .

تضحك لو قلت لك الحقيقة . إننى أخاف أن استخدم هذا

المبلغ فى أى مشروع ما الذى يخيفنى؟ لا أعرف . أنا خائف والسلام .

– ما الذى أخافك؟

– مش عارف ، ولكن من صفات الأغنياء الجبن . .

– لا أظن أنه الجبن ، وإنما هو الحرص والعمل بحساب . . ففى مصر أغنياء كثيرون جدا ، ويزدادون ثراء . . فهم حريصون فى معاملاتهم . . وهم يكسبون أكثر .

. . فليس صحيحا أن رأس المال جبان . . ليس جبانا ولكنه يبدو كذلك ولا يوجد رأسمالى واحد ليس مغامرا . . ولكنها مغامرة محسوبة . . يدخل فيها الخسارة والمكسب .

ولكنه يطمع فى المكسب دائما ، ولكنه مكسب له ثمن . . يجب أن يتفق قبل أن يكسب . . بل لعله يتفق لكى يكسب . .

– يا أخى أنت أفسدت علينا كل شىء . . أفسدت علينا متعة المغامرة . . متعة الكسب السريع . . المكسب الحلال . . لأن أى مكسب تحصل عليه فى الخيال هو كسب حلال . . فأنت لم تسرق أحدا!

– وأنت لم تكسب أيضا .

– أيوه لكننا نفكر . .

– أنا أقول لك . . لو عندى مثل هذا المبلغ . . فإننى أضع برنامجا لسفرى حول العالم . . واختار بعض الدول التى لم أزرها . . وأسافر على مهل بالبحر وبالجو وبالقطار .

. . واتفرج واستمتع وأكتب . . وكل سنة إذا كان عندى عمر ،

اختار بلادا أخرى . . وهكذا . . ستة أشهر . . سبعة من كل سنة . . وتكون رحلاتى على عكس رحلاتى التى قمت بها فى سنة ١٩٥٩ عندما سافرت وحدى حول العالم . . تكون أهدأ وأكثر راحة وأبهة . . فليس فى الدنيا أروع من السفر المريح الفخم ولا أظن أننى استطيع أن أنقل ما هو أحسن وأجمل من ذلك . . وهنا يتوقف خيالى . . بل ليس هذا خيالا وإنما هو واقع جربته مئات المرات فأنا لا أعرف كم مائة مرة سافرت فى القارات الخمس . . وأكون فى غاية السعادة لو حدث ذلك . . إلى هنا يتوقف الخيال والواقع عندى . . وأنت لم تقل ما الذى سوف تفعله!

قال : أقول لك ولا تزعل . . أنا عندى فلوس ولكن لا أعرف ما الذى يمكن أن أفعله بها . . وسمعت كثيرا جدا عن مشاريع وحكايات وخيالات وخرافات فلم أجد أحسن من رأيك ، وأريدك أن تخدمنى خدمة العمر وتقنع زوجتى أن ترافقنى فى هذه الرحلة!

- . . . .

- ولم أنقل ولم يسافرا!

انتهى المولد!

الحمد لله انتهى المولد الفلسطينى على خير ، لقد تفاوض زعماء فلسطين سرا مع إسرائيل فى النرويج دون أن يعرف أحد من الرؤساء العرب ـ ولا واحد!

وأنا معجب بطريقة الفلسطينيين فى التفاوض . فهذه قضيتهم وهم أحرار تماما فى معالجتها على النحو الذى يعجبهم ، وقد اتهموا المصريين بأنهم خانوا العرب عندما تفاوضوا علنا وحاربوا علنا ووقعوا اتفاقية كامب ديفيد علنا ، ولكن الفلسطينيين لم يخونوا أحدا ، عندما تفاوضوا واتفقوا سرا ومن شهور طويلة!

وكل الذى فعله السادات فعله ياسر عرفات ـ ولكن السادات كان شديد الاعتزاز بنفسه عظيم الكرامة والاحترام وبعيد النظر . . وكان يتوقع أن تنكره الشعوب العربية وأن تعود إلى تصديقه واحترامه وافتقاده . وقد حدث .

وفى البيت الأبيض شكر عرفات كل الشعوب ولم يشأ أن يذكر مصر . . ولا رئيس مصر ولا الدوخة التى عانتها مصر بسبب ما يقوله ياسر عرفات اليوم وينكره غدا . . هو يشتم مصر ويشجع الآخرين على أن يفعلوا مثله . . ثم يعتذر بالأحضان والقبلات بعد كل ذلك . . اعتاد أن يشتم ويتعذر واعتدنا على أن قبلاته تمحو خطاياه!

الحمد لله ، انتهى كل شيء لصالح شعب فلسطين الذى شرب المر أشكالا وألوانا من الاحتلال والسجون الخانقة والحدود اللبنانية الباردة ، وعادت إليه أرضه -جزء من هذه الأرض- وعاد إليه رجاله يديرون شئونه ويدافعون عنهم . . ويتسلمون المليارات من أجل انعاشه وتنشيطه ، صحيح أن الذين سوف يحكمون الشعب الفلسطيني ليست لهم دراية بالحكم أو الإدارة ولايعرفون كيف يواجهون أنفسهم بالقانون وبالشدة ـ ولكن لن يختلفوا كثيرا ، وإنما سيجعلون أنفسهم نموذجا لما يجب أن يكون عليه الحكم الذاتى . . حتى لا يكون فشلهم سببا فى تعطيل مسيرة تحرير الضفة الغربية .

وسوف تصدر صحف فى غزة . . صحف ومجلات كثيرة تتحدث عن الماضى وعن المستقبل وسوف تتحول غزة إلى بورصة كلها تلعن العرب . . وليس من بينها صحيفة واحدة تلعن فلسطين . . وسوف يتخصص أناس فى لعن مصر والهجوم عليها . . لماذا؟ لأنها ساعدت الفلسطينيين ، وصحف أخرى سوف تمتدح كثيرا الروس والأمريكان والإسرائيليين ، أما مصر فهى التى أوقفت نمو حركات التحرير ـ وغير ذلك كلام كثير سوف نسمعه قريبا ، فإذا سمعناه ، فيجب ألا نغضب فهذه حال مصر مع الفلسطينيين بصفة خاصة!

السوبر ماركت !

(١)

أحب أن أذهب إلى السوبر ماركت فى دول الخليج لعدة أسباب : من بينها أن أشترى نوعا من الشاى المعطر وأن أشترى نوعا من الجمبرى المسحوق الذى تحول إلى فطائر ، وثالثا لكى أبحث عن نوع من الهنود مختلفين عن بقية سكان الهند (٩٠٠ مليون نسمة) هؤلاء الهنود من أقصى جنوب الهند . . من ولاية كيرالا ، فهذه الولاية لها فى حياتى ذكريات جميلة جدا ، وأنا أعرفهم لأن لهم طريقة خاصة فى قول : لا ونعم . . وذلك بأن يميز الواحد بهز رأسه يمينا وشمالا ومعناها : لا . . ومعناها نعم أيضا . .

فلا أكاد اقترب من الواحد منهم حتى يهز رأسه فأقول له : أنت من ولاية كيرالا ، فيضحك ويهز رأسه ، وأقول له : وأنت من مدينة ترميدروم . . فيهز رأسه بمعنى : لا . . فأقول له : إذن أنت من ترفنكور فيهز رأسه فأقول له : لم يبق إلا مدينة كوتشين . . وهنا ينطلق بسرعة ويهز رأسه إلى زملائه فى السوبر ماركت . . فيهزون الرؤوس جميعا وبسعادة بالغة ، إنهم جميعا من نفس المدينة . كيف عرفت ذلك؟

لا يهم كيف عرفت ، ولكن المهم أن أحدا من غير الهنود قد عرفهم وبلادهم!

هذه الولاية تقع فى الجنوب الغربى من الهند وتطل على بحر العرب والمحيط الهندى وهى بلاد جميلة . قد جاءها فاسكوداجاما المكتشف البرتغالى سنة ١٥٢٤ ، وكانت له فيها ذكريات أليمة . . فعاد إليها وقتل من شعبها المئات انتقاما منهم . . وهاجر إليهم المسيحيون السريان . . وجاءها الهنود من هدم المعبد . . وفيها معابد يهودية قديمة وكنائس بيضاء . . والبلاد غنية بقولياتها وفواكهها . . واذكر أننى كنت أقيم فى أحد فنادقها فى الصباح عندما انقضت الغربان وخطفت كل ما كان أمامى من أناناس وبيض وزبد وجبنة وخبز وجاءت أنواع من العصافير والتقطت كل حبات السكر . . وتركت لى براد الشاى . . وأتعجب أن هذه الطيور قد هبطت على المنضدة وبمنتهى الهدوء دون خوف منى أخذت كل ما تريد . . وانتظرت فوق الأشجار تستعجلنى أن آتى لها بكمية أخرى؟

وفى يوم عاشوراء -ولم أكن أعرف أنه عاشوراء- وجدت الشيعة يلطخون وجوههم بالزفت والقطران ويخيفون الناس بالتهجم عليهم ، حزنا على مقتل على بن أبى طالب وولديه الحسن والحسين؟!

وكانت كيرالا هذه هى بداية رحلتى حول العالم سنة ١٩٥٩ والتى استغرقت ٢٢٨ يوما بلا توقف من القاهرة إلى الهند والتبت وفيتنام ولاوس وكمبوديا وسنغافورة وأندونيسيا واستراليا والفلبين وهونج كونج واليابان وهاواى وأمريكا وأوروبا . . فقد أوفدتنى (أخبار اليوم) لكى أعرف الأسباب التى جعلت الانتخابات الحرة فى الهند تأتى بحكومة شيوعية فى ولاية كيرالا . . الحكومة الشيوعية الوحيدة فى هذه البلاد ، والسبب أن شعب هذه الولاية متعلم مائة

فى المائة . . وأن مذهبهم الدينى هو الكاثوليكية . . والشيوعية فى أوروبا ظهرت فى البلاد الكاثوليكية ففى إيطاليا أكبر حزب شيوعى . لماذا؟ لأن هناك تشابها بين الكاثوليكية والشيوعية ، فهناك فاتيكان يقابله الكرملين . . وهناك كتاب مقدس يقابله كتاب رأس المال . . وهناك معبود هو المسيح يقابل لينين . . وفى نهاية الزمان تكون الجنة وعند الشيوعية تكون الجنة هى سعادة الطبقة العاملة ونهاية التناقضات فى المجتمع .

والذى دفعنى إلى أن أتذكر تلك الأيام البعيدة ما قرأته فى الصحف عن الأمطار والسيول العنيفة ، أعرفها تماما ، فقد عايشتها ومشيت فى الشوارع حافيا والمياه فوق ركبتى ، وليست المياه هى التى أفزعتنى وإنما الثعابين التى تسبح حولى مع هذه المياه . . لم أعرف ما الذى أفعله . . إنها فى كل مكان . . ونظرت ماذا يفعل الناس . . ولا حاجة . . إنهم يتركون الثعابين تتلوى وتتنطلق ولا يتعرضون لها . . وكما كنت أرتعش يوما ، فعندما قرأت عنها ، ارتعشت أيضا . . وألقيت الصحيفة من يدى كأنها ثعبان أمسكته خطأ . . ولكنها كانت أياما مثيرة ولا تزال بلادا جميلة!

ملحوظة : لقد سجلت لنفسى اكتشافا لم يتحقق بعد وهو أننى لاحظت أن الصيادين هناك يرتدون ملابس تشبه ملابس أجدادنا الفراعنة . . ثم إنهم عندما يسحبون زوارقهم إلى الشاطىء يقولون : هيلا . . هيلا هوب . . وكلها كلمات فرعونية !

(٢)

أنا أقول ما الذى أعجبنى فى دولة البحرين ، كانت تربطنى بالبحرين علاقة مش ولابد . . فمن حين إلى حين أتلقى مكالمة تليفونية وأسمع صوت واحدة تقول : هات الفلوس اللى عليك . .

أو صوت واحد بايخ يقول : ارسلنا لك عدة برقيات ولم تسدد الفلوس .

أما هذه الفلوس فهى مقابل البضائع التى اشتريتها من أمريكا وأوروبا وقدمت كارت (أمريكان اكسبريس) واندهشت جدا كيف أننى سددت المبلغ المطلوب ، ومع ذلك يطالبوننى . وكنت أتضايق -ولا أزال- كيف أن مصر بجلالة قدرها تتبع بنوك البحرين ، وكيف أننى بدلا من أن أدفع فى القاهرة لابد أن أدفع فى البحرين . . وكرهت بطاقة الائتمان وكرهت التعامل بها . . وكرهت هذا الصوت السخيف الذى يطاردنى من البحرين فى البيت والمكتب .

وشكوت إلى المسئولين فى مصر ، ولم يتغير هذا الوضع . .

وزرت البحرين عدة مرات مع الرئيس السادات ومع الرئيس مبارك ورحلات الرئيس عادة قصيرة لا متعة فيها ولا لذة . . ولا معلومات يمكن أن يحصل عليها إنسان فى ساعات نصفها يضيع فى تناول الغداء والقهوة والاسترخاء بالقرب من المطار . .

وأخيرا سافرت إلى البحرين أياما ، والحقيقة أن الصورة اختلفت

تماما . فالبلد نظيف جدا هادئ جدا . . حتى صوت السائق وهو يحدثك يخيل إليك أنه يغنى . . فلا داعى للضوضاء والزعيق . . فالهمس فى بلد هادئ يكفى . . والزعيق فى بلد كالقاهرة لا يكفى ، بل يجب أن (تصوت) . . حتى يسمعك أقرب الناس إليك . .

وفى البحرين لم أسمع صوت جهاز تنبيه من أية سيارة ، ولم أر عسكرى مرور واحد ، والناس منضبطون بإشارة المرور ، وكل سائق يلف حزام الأمان ، ويدعو الجالس إلى جواره أن يفعل نفس الشىء . والناس طيبون ، مسالمون ، لا عندهم غرور ولا عنطظة ، فلا هم دولة عظمى ولا من آمالها أن تكون كذلك وعلى الرغم من أن عندهم أكبر مصنع ألومنيوم فى الدنيا ، فإنك لا تشعر بذلك إلا إذا زرت المصنع . .

وإذا جلست إلى صديقى وزير التنمية يوسف الشبراوى ، فهى المتعة المؤكدة ، فالرجل واسع الثقافة خفيف الدم ، له اجتهادات فى التاريخ والسياسة وفى التاريخ العربى والأوروبى ولديه أحدث ما صدر من كتب ، ثم إن لنا نحن الإثنين غراما بعلوم الفلك والفيزياء والكيمياء . . وإذا جلست تتحدث فى ذلك فلا تنظر إلى ساعتك . فالزمن قد توقف ، لا أنا أشعر به ولا هو . .

ولو استمع إلينا أحد لتأكد أننا مجانين . . فعباراتنا غير مفهومة والذى تعجب له وتضحك منه ليس مفهوما . . إلا إذا كان هو أيضا على دراسة وعشق بعلوم الفضاء . .

أما كل شىء آخر . . فسوف تجد عشرات الأصدقاء . . وسوف تجد المناظر الجميلة . .

وإذا أردت أن ترى نموذجا للذوق الرفيع فى الحياة والفن فزيارة لبيت وزير الدولة محمد المطوع تجعلك تحس أن الرجل وزوجته على درجة متقدمة جدا من الإحساس بالجمال فى اختيار كل شىء فى البيت وفى المعلقات على الجدران من لوحات وسجاجيد . .

بمنتهى الأمانة والصدق . . لابد أن تحب هذا المجتمع الصغير . . دولة البحرين . . إن دولة فيها كل هذا الحب والود والذوق والهدوء . . وكل شىء هو أحضان مفتوحة دافئة لكل الناس . . ليست صغيرة دائما وإنما هى دولة كبيرة . . عظمى . . فالعبرة ليست بحدود الأرض . . وإنما بأحضان الناس!

واحد متطوع !

لا نزال في مصر نبكى على تلك الأيام التى كان الناس يحترمون فيها القانون . . رموز القانون ، ويظهر فى الأفلام والمسرحيات ذلك الجندى الذى له شارب ويمسكه بأصابعه ويزعق ويقول : مين هناك ، وكانت هاتات الكلمتان تثيران الرعب فى نفوس اللصوص والأمان فى نفوس أصحاب البيوت ، أى أن هذا الجندى ـ الذى هو رمز السلطة مهيبا ومحترما ، والحقيقة أننا نحن كنا نحترم السلطة ونحترم القانون . ولا نزال نرى أننا الآن لا نحترم القانون . . لهذا العسكرى لم يعد له وجود ، ولا لشاربه أو لهاتين الكلمتين . . فقط فى المسرحيات لكى نضحك . . ونحن لا نضحك من هذا الجندى ، وإنما نضحك على أنفسنا ، نضحك دون خجل من أنفسنا ؛ لأن معنى الضحك هذا هو أننا كنا فى يوم من الأيام نحترم هذا المواطن البسيط . . نحترم المعنى . . نحترم الرمز ، فهو رمز السلطة واحترام القانون والأمان .

وفى شوارع القاهرة من الممكن أن يختنق المرور ، وتتوقف الحركة نهائيا ولا يعرف أحد أين هى الجهات الأصلية . . الشرق والغرب والشمال والجنوب واليمين والشمال ، لقد أصيبت شوارع القاهرة بالاحتقان والاختناق والانغلاق والشلل التام وتبحث عن عسكرى المرور فلا تجده . . أين ذهب؟ أين ذهب الضابط؟ ألم نهتد إلى وسيلة لضبط هذه الحركة . . نرى فى الأفلام أن فى العواصم الأخرى طائرات هليكوبتر تكتشف وتنبه إلى ذلك . . أو نجد كاميرات تليفزيونية تنقل الصورة إلى مراكز المرو . . أو اتصالا تليفونيا من ضابط المرور .

والغريب العجيب حقا أن نجد أحد المواطنين من الشارع وتطوع بأن يقوم بدور عسكرى المرور . . وينظم هو المرور . . الأغرب من ذلك أن السيارات تطاوعه .

والأعجب أنه يشخط وينطر . ولكن أحدا لا يناقشه لأنه على حق ، هل هو الذى أعطى لنفسه هذا الحق؟ أبدا . . الناس أعطوه حق القيادة لأنهم يفتقدون القائد الموجه والمنقذ فالظروف هى التى خلقت هذا المنقذ للمرور . وبسرعة ودون اتفاق بين الناس جميعا يجدون أنفسهم قد وافقوا على أن يقوم بهذا الدور ولا يظهر جندى المرور . .

كيف حدث ذلك؟

إنه يحدث وسوف يحدث كل يوم .

ولن أمل حكاية ما رأيته فى بلد عربى صغير هو «البحرين» . . فى هذا البلد العربى الهادىء النظيف وجدت السائقين يضعون حزام الأمان بمجرد جلوسهم فى السيارة . هذا قانون عندهم وليسوا فى حاجة إلى من ينبههم إلى ذلك . . وبمنتهى الصراحة لم أجد رجلا واحدا من رجال الأمن أو الشرطة أو المرور فى هذا البلد . . لم أر واحدا ، ولكن المرور منضبط تماما . . ليلا ونهارا .

وقد ركبت إلى جانب صديق ظريف نتجول بسيارته . . وفجأة عند إشارة المرور وقف تماما ، ولم تكن هناك سيارات لا حولنا ولا وراءنا . . وكنا قد تجاوزنا منتصف الليل ، ولكن صديقى ملتزم بالقانون فى غياب رموز الأمن ، بل كثيرا ما يلقى الإنسان الذى يحرص على القانون شتائم من السيارات المجاورة التى لا تحترم القانون ، وكثيرا ما نسمع كلمات مثل خلاص يعنى . . وهو المرور يعنى الحاجة الوحيدة المظبوطة . . يا عم امشى وقل يا باسط!

والمعنى : إننا أيضا نسخر من الذين يحترمون القانون!

مخابرات فضائح!

العالم بدأ يجد تفسيرا جديدا لأحداث قديمة . التفسير فى ملفات المخابرات الروسية فكل مصائب وفضائح وكوارث أوروبا وأمريكا وأفريقيا تبدأ من المخابرات الروسية أو الألمانية الشرقية .

أخيرا اكتشفت الصحف البريطانية لماذا وكيف كانت الحملة العالمية على الأسرة المالكة فى بريطانيا من ثلاثين عاما فى أوج الحرب الباردة ، إنهم الجواسيس الروس فقد وضعت روسيا خطة لبهدلة الأسرة المالكة والتقاليد البريطانية الراسخة ، واستقر رأى الروس على اختيار شخصية ملكية فيها شىء من التمرد والغضب على الأسرة المالكة ، وفى نفس الوقت محبوبة من الشعب البريطانى .

أول فضيحة كانت وزير الدفاع البريطانى جون بروفومو كان عشيقا لفتاة جميلة هى عشيقة لدبلوماسى سوفييتى ، وكانت الفضيحة التى حطمت فيها وزير الدفاع وانهارت الوزارة البريطانية! وانتحر أحد أطرافها على أثر هذه المؤامرة .

ثم اتخذوا الأميرة مرجريت ـ وركزوا عليها تماما ـ وعرفوا كل الذين يحيطون بها . . من الرجال والنساء وتسللوا إلى ما بعد الأميرة وزوجها المصور . . ثم بين الزوج وإحدى الفتيات وبين الأميرة وأحد الشبان فى ذلك والوقت . . وظهرت حكايات وروايات . . وصور . . فى سنتى ٥٩ و١٩٦٠ .

قد اعترف الجاسوس الكبير سيكولوف بأنه صاحب هذه الخطة . وأنهم كانوا على وشك الاقتراب من الأمير فيليب زوج الملكة ، ولكن جاءت تعليمات من موسكو بالابتعاد عن الأمير فيليب وتأجيله إلى مرحلة قادمة . . والاتجاه إلى ولى العهد ابنه الأمير تشارلز الذى كان لايزال صغيرا . .

ثم اتجهت المخابرات الروسية إلى كبار موظفى القصر ، وكانت لهم علاقات قوية بعدد كبير من الموظفين ، ولكن وجدوا حياتهم عادية ووجدوهم يتكلمون فى كل شىء إلا الملكة . . مهما لعبت الخمر برؤوسهم ، بل إن هناك حادثة مشهورة وهى أن أحد الجواسيس ظل يتسلل حتى دخل بيت أحد كبار موظفى القصر الملكى الكبير . . وتظاهر هو بأنه فقد عقله وطلب إعادته إلى البيت وراح يتساند على كتفى الموظف الملكى الكبير وكان هو الآخر مخمورا تماما ، ويقول الجاسوس الروسى إنه عندما ذهب يركب سيارته همس فى أذن الموظف البريطانى قائلا : يا ترى ما الذى تفعله الملكة فى هذه اللحظة وهى على خلاف مع زوجها ولن تبيت فى القصر؟!

فما كان من الموظف الملكى إلا أن قال له : هنا فقط يدرك شهرزاد الصباح وتسكت عن الكلام المباح!

وأدرك الروس أن الشعب البريطانى لايزال يحمى الملكية وأن الجاسوسية مهما فعلت فلن تستطيع زعزعة النظام الملكى . . لأنه عميق فى قلوب وعقول الإنجليز .

وأنه من الممكن خربشة النظام الملكى ، ولكن لن يسمح الإنجليز لأحد بهدمه!

وفى الملفات التى حصلت عليها المخابرات البريطانية من موسكو عثروا وعلى مصادر الروس فى لندن ، وكل هذه المصادر روسية ، ولم يجدوا إلا عددا قليلا من البريطانيين يتعاونون معهم فى جمع المعلومات . . وفشلت كل المحاولات فى هدم الأسرة المالكة . . أما الفضائح التى تنشر عن الأمير تشارلز وعن زوجته . . فهى من صنع الصحافة البريطانية الرخيصة . . أما السبب فهو من أجل رواج الصحف ، وهز النظام الملكى البريطانى وليس هدمه . . ولكن كل هذه الفرقعات كانت لتسلية الناس . ولم يذهب الناس إلى أبعد من ذلك!



ماذا حدث على أرضنا من ٦٥ مليون سنة؟ طبعا حدث الكثير ، ولكن أهم ما حدث هو أنه كانت أيضا تسيطر على أرضنا حيوانات ضخمة هى الديناصور ، وكان الديناصور سيد كوكب الأرض لمدة مائتى مليون سنة ، والإنسان لم يظهر إلا من مليون سنة فقط .

ومن ٦٥ مليون سنة اقترب جسم كبير من الأرض ووقع فى جاذبيتها ، وتحطم جانب منه فى الأرض وتحول إلى كتلة من النار ، ثم ارتطم هذا الجسم الهائل واخترق الأرض وأحدث فيها تجويفا هائلا ، وأثناء ذلك وقبل ذلك ارتفعت درجة حرارة الأرض إلى ألوف الدرجات المئوية ، فاحترقت النباتات وماتت كل الحيوانات الكبيرة ، وفى مقدمتها الديناصور .

- هذه نظرية!

وهناك نظرية أخرى تقول : إن الديناصورات كانت قد انقرضت قبل ذلك الارتطام العظيم -أما سبب انقراضها فانتشار الجفاف على الأرض لا ماء ولا نباتات بسبب درجات حرارة عالية أدت إلى موت الديناصور وحيوانات أخرى - هذه نظرية .

ونظرية ثالثة تقول : إن الديناصور كان قد بدأ فى الانقراض بسبب تغير الظروف المناخية لكوكب الأرض فجاء الارتطام العظيم وقضى على البقية الباقية من الحياة على الأرض .

ونظرية رابعة تقول : إن الحياة لم تختف تماما من الأرض . . فقد بقيت فى جوانب منها كائنات بحرية فى كل مكان . . وحيوانات أخرى صغيرة . . وأن هذه الحيوانات مضت فى تطورها وكذلك

الأشجار والنباتات والميكروبات . . ولما تفجرت المياه فى الأرض وتلبدت السحب وسقط الماء . . وبعمليات كيميائية فلكية عادت الحياة بأشكالها اللانهائية إلى الأرض والهواء والماء ، استأنفت الحياة مسيرتها حتى بلغت قمتها بظهور الإنسان مليون سنة .

وعلماء الحياة يرون أن الطيور كانت ديناصورا أو العكس –وكلها تخمينات علمية . . وإن كان هناك رأى أنه ليس من الضرورى أن تكون الحياة الحيوانية قد اتخذت خطا واحدا . . وإنما تكون قد اتخذت أشكالا مختلفة وإن كان الأصل البعيد واحدا .

فمثلا ما هو وجه الشبه بين الهرم الأكبر وأمير الشعراء شوقى والسلحفاة وشجرة الزيتون . . لا وجه للشبه ولكن من المؤكد علميا أن هذه الكائنات قد كانت لها بداية واحدة ، هذه البداية هى أنها كانت ترابا وغازا ، والتراب والغاز نعرفه فى مراحل كيميائية هائلة طوال ألوف ملايين السنين ، واتخذت الذرات وذرات العضوية طريقا طويلا فتحولت إلى نباتات وإلى حيوانات وكتلا صخرية . . وكلها تطورت ملايين السنين وانفصلت وتميزت بعضها عن بعض .

سؤال ضرورى : هل من الممكن أن يتكرر ما حدث من ٦٥ مليون سنة؟ طبعا ممكن . . وقد حدث كثيرا ولكن بصورة صغيرة جدا ، فقد سقطت أحجار كثيرة على سطح الأرض . . وكان لها أثر فى قشرة الأرض وأحيانا فى دخول ذرات وتكوينات عضوية أدت إلى انتشار الأوبئة والأمراض . . ومن المعروف علميا أن الأرض تتلقى أحجارا صغيرة تجىء من الفضاء الخارجى كل يوم . . وأحجارا أكبر كل مائة سنة ، وأحجارا أضخم كل عشرة آلاف سنة . . وليس بعيدا أن تعاود الأحجار الكبيرة سقوطها بعد مليون سنة . . وقد تكون نهاية الحياة على الأرض لتبدأ من جديد . . فكل شىء فى الكون حولنا يموت ويولد . . ولا شىء ينتهى ـ والله وحده أعلم!

لسنا وحدنا !

لا الأسد سيد الغابة . .

ولا الإنسان سيد هذا الكون . .

فكل الكتب القديمة والحديثة تتحدث عن الأسد على أنه أقوى الحيوانات وأنبلها . . وأنه إذ زأر اهتزت الغابات وتساقطت الطيور من فوق الشجر وقفزت الحشرات من تحت الحجر . . ووقفت الحياة فى الغابة لأن أصداء الزئير تتجاوب فى كل مكان فلا تعرف الحيوانات من أين يجىء هذا الصوت .

أما الآن فقد أثبت علماء الحيوان أن الأسد حيوان كسول بليد . . وأنه لا يسود إلا نادرا . . أما الذى يطعم قطعان الأسود والأشبال فهى الإناث ، فاللبؤه أكثر شراسة وأسرع حركة وهى التى تأتى بالفريسة ، تخنقها حتى تموت بين أنيابها القصيرة . . ثم تسحبها إلى حيث يكون الأسد فى انتظارها ، ويكون هو أول من يأكل . . ثم يليه الصغار أو الإناث . . وكان يقال أن الأسد لا يأكل الجيف وإنما يأكلها الضباع فقط ، ولكن أثبت علماء الحيوان أن الأسد كثيرا ما هاجم الضباع والنسور وأكل الجيف لأنه لا يقدر على الصيد ، وأنه اعتاد على الاعتماد الكامل على اللبؤة . . فإن لم تكن له أنثى فهو يعتدى على الحيوانات الصغيرة . . يأكلها أو يأكل طعامها .

ثم إنه ليس أقوى الحيوانات ولكن أقواها النمر . . فهو قوى العضلات والأنياب سريع الحركة .

وكثيرا ما يهاجم الأسد على صغاره يخطفها ويأكلها وتدور معركة دموية بينه وبين الأنثى ، وقد تمزقه الأنثى دفاعا عن صغارها!

وكان أستاذنا العظيم أرسطو يقول : إن الحيوانات لا عقول لها!

ولكن العالم الكبير دارون فى دراسة لعواطف أو مشاعر الحيوانات هو الذى وضع أصابعنا على أن هذه الحيوانات لها مشاعر الأمومة والأبوة والغضب والانتقام . . وأنه لا خلاف بينها وبين الإنسان إلا فى سلم التطور . . فالإنسان قد سبقها فاستقام ظهره . . واستخدم يديه وحرك أصابعه . . ولولا قدرته على تحريك أصابعه لما استطاع أن يطور جهازه العصبى ، ولا استطاع أن يصنع أدوات حياته . . أن يصنع ويبنى ويكتسب . . وكان الإنسان بسبب عقله وخياله وذكائه وإبداعه يتصور أنه سيد الأرض التى هى مركز الكون ، وجاء علماء الفلك يؤكدون للإنسان أن الأرض ليست مركز الكون ، وإنما هى قطعة حجر تدور حول قطعة نار هى الشمس ، وأن الشمس ليست إلا واحدا من ألف مليون نجم فى مجموعة لا يعرف اسم ووظائف الجسم وأدوات العقل وتكوين المخ وهو يحاول أن يعرف اسمها (المجرة) وإن هذه المجرة ليست إلا واحدة من ألف مليون مجرة أخرى فى هذا الكون!

وصحيح أن الإنسان عاقل وذكى وأنه الوحيد بين الحيوانات الذى يعرف نفسه . . ويعرف قدراته . . أو يحاول أن يتأكد من ذلك ، ولكن الحقيقة أن الإنسان لا يعرف نفسه تماما ، لا يعرف

الكون من حوله من أين وكيف ولماذا جاء . . وهو فى نفس الوقت أضعف من ألوف ملايين ملايين الميكروبات والفيروسات التى تتحداه وتقضى عليه . . فلا تزال هى الأقوى ، وهو الأضعف ، وهو يقاوم ويحاول ويحارب ويتعثر وهى لا تكف عن الهجوم والإبادة . والحرب دائرة والكائنات الضئيلة هى الأقوى ، والإنسان لم يستسلم ، ولكن من المؤكد أنه ليس مركز الكون ولا سيد هذه الأرض!

سوف ننسى !

لم يصب أى إنسان بسوء من الذين اشتركوا فى مؤتمر السكان المنعقد بالقاهرة ، فقد انطلقت عبارات وصيحات وصرخات وطبلت السيدات وهللت دفاعا عن الإجهاض واستنكارا لأبحاثه . . ودفاعا عن الشذوذ وهجوما عليه . . وكان ذلك فى داخل قاعات وممرات قصر المؤتمرات ، وهذا طبيعى جدا . . فليس كل الناس مسلمين ومسلمات . . ولا هم ملحدون وملحدات . . هناك أمواج تتدفق فى بحر الحرية . . وهناك صخور وعواصف . . المهم أن هناك حرية ، حرية الرأى واحترام الحرية والرأى ، ونحن قلنا ما نريد وغضبنا من الذى لا نريد وتقدمنا بتعديلات وهذا أقصى ما نستطيع .

وفى النهاية أقر الجميع مبدأ واحدا هو أن كل دولة تتخذ من القرارات ما يتفق مع دينها وتقاليدها وثقافتها . وعلى رأى المثل المصرى : ويا دار ما دخلك شر . . ولكن دخلها الخير!

وما من باب من أبواب الميثاق لم ندخل عليه ـ نحن المصريين والمسلمين ـ تعديلا ، وحتى إذا لم يلق هذا التعديل قبولا ، فإننا سوف ننشر النص والتعديل عليه . . ولن تظهر قيمة هذه الدراسات والبحوث إلا بعد وقت طويل . . لأن هذه الأبحاث لاتزال فى متناول عدد قليل جدا من المعنيين بالدراسات الإنسانية فى الجامعات المصرية والهيئات الأدبية وإن كنت شخصيا لست

كثير التفاؤل لأننا لا نفكر عادة إلا على شكل ردود فعل أو إلا في أعقاب الكوارث . . أى لابد أن تحدث مصيبة كبرى لكى نعيد تفكيرنا . . تماما كما فى أعقاب الزلازل فى مصر . أو فى أعقاب انهيار السدود . . أو تساقط العمارت بسبب الغش فى كميات الحديد والأسمنت . .

ولابد أن تقع حوادث منافية للأخلاق . . وتكون هذه الحوادث متعددة وصارخة . . فمثلا حادثة (طهارة) طفلة عمرها عشر سنوات وصورها عارية مفضوحة فى التليفزيون الأمريكى ، لابد أن يجىء بعد ذلك قرار بعدم طهارة البنات . . أو على الأقل أن ندعو - رسميا - فى الريف إلى الأضرار النفسية التى ألحقت بالبنت بسبب هذه الطهارة . .

أو لابد أن يصاب ملايين الأطفال بالتخلف العقلى أو يتحولوا إلى قطط وكلاب وحمير ، لكى تقنع الدولة أن ارتفاع نسبة الرصاص فى الهواء والماء هى التى أدت إلى التخلف العقلى . . شىء من مثل ذلك لابد أن يحدث حتى يتأكد لدولة الهيئات الرسمية فى مصر أن هناك خطرا داهما ساحقا ماحقا . .

مثال آخر : إن الأسماك قد ماتت فى بحيرات شمال الدلتا . . لأن الصرف الزراعى والصحى يصب فى البحيرات ، ولذلك تعاظمت نسبة المواد الكيماوية فى الماء مما أدى إلى موت السمك . . فأصبحت البحيرات ميتة ، أى لا حياة فيها . . مميتة لأنها قتلت كل الكائنات . .

وأنا شخصيا كجنس نباتى لا آكل اللحوم بجميع مسمياتها ، والآن أضفت إلى اللحوم كل الأسماك بجميع أشكالها وألوانها

وأحجامها فى مصر أو فى الخارج . انتهى . . وأصبحت استعيض عنها بمصادر أخرى للبروتين ـ وأمرى إلى الله!

وسوف ننظر إلى المؤتمر على أنه كابوس وراح فى ستين داهية . أما تفسير هذه العبارة فهو أننا قد حرسنا المؤتمر بعشرين ألفا من رجال الأمن خوفا على حياة مندوبى ١٨٠ دولة ، وكنا نخاف من الإرهابيين أن يفسدوا هذا الفرح ، والحمد لله لم يحدث شىء . . ولابد أن يشعر رجال الأمن بالراحة والسعادة بعد ذلك . . فقد نجح الأمن المصرى فى أن يحقق السلام والراحة ويرفع قدر مصر عاليا بين الأمم . .

ولكن ما الذى فعله العلماء والباحثون أو ما سوف يفعلونه غدا وبعد غد؟ هذه هى القضية ، ولكن معلوماتنا وتجاربنا السابقة تؤكد كما قال أمير الشعراء : إن كل شىء فى مصر ينسى بعد حين!

فى البرتغال

(١)

كما هى العادة عندنا نحن المصريين إذا رأينا مدينة جديدة ، فأول شىء يلفت العين هو : الشارع والناس ، ولذلك نقول : «مدينة نظيفة . . والناس قليلون . . لأن شوارعنا ليست كذلك ولا أهلنا بهذا العدد القليل ، وأحيانا نقول : إن المدينة خالية من الناس تماما كالقاهرة فى الأفلام القديمة .

إننى اتحدث عن مدينة لشبونة عاصمة البرتغال ـ وينطقونها لشبوا ـ بفتح الواو . . المدينة من الطائرة تبدو صغيرة ، ولكن عماراتها عالية وصغيرة أيضا ، والشوارع نظيفة وصغيرة ومن حين إلى حين نرى سيارة . . فإذا نزلت إلى أرض المدينة فأنت لا ترى إنسانا يمشى على قدميه إلا من حين إلى حين . .

طبيعى أن تكون البيوت من الحجارة ومن الطوب الأحمر . . فلو لم تكن من الحجارة فإنها تتحول إلى طين وعجين بسبب الأمطار الغزيرة .

ولكن الشوارع ليست جميلة ولا لامعة . . إنها نظيفة . . والناس ملامحهم بين أوروبية وأفريقية . . فالرجل البرتغالى ليست له ملامح خاصة ، وكذلك المرأة ولم أجد أحدا يرتدى بدلة جديدة ولا واحدة ست ترتدى فستانا شياكة ـ ولا حتى حلوة ـ ولا واحدة وأعتقد أننى رأيت حتى الآن أكثر من مائة واحدة فى الشارع وفى الفندق والطائرة .

ولكن واضح أن البرتغال تتحلل من قيودها القديمة . . قيود الديكتاتورية الشنيعة من أيام رئيسها القديم سالازار . . وهى الآن بعد أن أدارت ظهرها لأوروبا طويلا وكثيرا ، بدأت تستعيد ملامحها الأوروبية . . ولا أحد يعرف للبرتغال «٩ ملايين نسمة» حاضرا مثيرا ، ولكن من المؤكد أنه كان لها ماض عجيب فى عالم الاكتشافات . . فالبرتغال هى التى اكتشفت الهند واليابان والبرازيل . . وفى سنة ١٩٩٨سوف تحتفل البرتغال بمرور خمسة قرون على اكتشاف الرحالة البرتغالى فاسكوداجاما للهند . . تماما كما تحتفل أسبانيا هذا العام بمرور خمسة قرون على اكتشاف كولمبوس لأمريكا ـ وكان يظن أنها الهند!

سامح الله فاسكو داجاما فلقد كان رجلا قاسيا عنيفا دمويا ، فقد كانت هوايته قتل العرب . . تجار الشطة والفلفل فى ذلك الوقت .

بل إنه كان أسوأ من نيرون الذى اتهموه بأنه أحرق روما وراح يغنى ـ ولابد أنه كان يغنى لأن منظر إحراق روما كان مثيرا فى أول ساعة وبعد ذلك أصبح مملا ، فأخذ يسلى نفسه حتى تخمد النيران عندما تخمد أنفاس الناس!

ولكن السيد فاسكو داجاما قد أحرق سفينة بمن فيها من الرجال والنساء والأطفال ، وذلك بأن وضعهم فى أعماقها . . ثم أحرقهم وراح ينظر إليهم من سفينته هو . . ولم يذكر لنا التاريخ البرتغالى إن كان الرجل قد تسلى بعد ذلك بالغناء أو الرقص أو شرب النبيذ!

وعندما وصل داجاما إلى ساحل «سلطنة عمان» كما نسميها

الآن ، طلب أن يساعده أحد البحارة العرب فى الوصول إلى الهند . . فقدموا له واحدا فقتله وألقى به فى الماء . . فقد كان البحار العربى شديد الاعتزاز بنفسه مثل داجاما تماما . . وأخيرا اهتدى إلى البحار أحمد بن ماجد ، وهو الذى لولاه لما وصل داجاما إلى الهند ، فقد عرف العرب بلاد الهند قبل أن يعرفها أحد فى الغرب !

ولم يتوقف داجاما عن قتل العرب ، فقد كان يغتالهم من حين إلى حين . . فالتعليمات التى لديه هى أن يقضى على هؤلاء التجار لكى تحتكر البرتغال هذه التجارة بين آسيا وأوربا! وكانت للبرتغال مستعمرات كثيرة فى العالم ، وكلها تلاشت الآن ، مثلا الكونغو وموزمبيق . . وإنما بقى لها فقط نقط فى القارات أو فى المحيط . . ففى نصف القارة الهندية تملك البرتغال مساحة صغيرة جدا اسمها «جوا» وفى نصف القارة الصينية تملك البرتغال مساحة ضئيلة اسمها «مكاو» ولها جزيرة أوزوريس . . أما البرازيل فهى تعتبر الابن الغنى الفالح فى الأسرة البرتغالية!

وسوف يمضى وقت طويل قبل أن تتغير الأغانى الحزينة البرتغالية وتتحول إلى الأغانى الراقصة الأسبانية . . فالصوت البرتغالى حزين موجع للقلب . . بينما الأغانى الأسبانية مرحة توجع الوسط من الهز والرقص . .

(٢)

البرتغال دولة لها ماض ، فماضيها فى الاكتشافات والاستعمار بعد ذلك عظيم جدا ، فهم الذين اكتشفوا : الهند واليابان والبرازيل وهم الذين خاضوا وغاصوا فى أفريقيا حتى سيطروا على أنجولا وموزمبيق والرأس الأخضر .

وفى تاريخ الاكتشافات البحرية تظهر شخصية فاسكو داجاما . . وهو الذى طلب منه الملك بأن يضع العلم على كل أرض يراها أو يدوسها أو يريق فوقها الدماء ـ دماء التجار العرب ـ وكان رجلا قاسيا دمويا ، ومن أجل هذا اختاره الملك ، وهو عرف أن علامات الطريق بين القارات هى جماجم المندوبين من البحارة أو المعارضين من التجار أو الخائفين من سكان البلاد الأصليين . .

قامت سفينته الصغيرة ذات الأشرعة فى موازاة للساحل الأفريقى ـ غرب أفريقيا . .

ودار حول أفريقيا ـ شرق أفريقيا ، ولم يجد جديدا يضيفه إلى المكتشفين السابقين عليه وتوقف عند بلاد اليمن ثم اتجه إلى حيث سلطنة عمان الآن . . ودخل فى الخليج وتوقف عند إيران الآن . . ثم راح يتساءل عن بلاد الشطة والبهارات . . وجمع بعض المعلومات . . وكان فى حاجة إلى بحارة شجعان ، وقدموا له عددا من البحارة ، وعاملهم بمنتهى القسوة ـ مع أنه فى حاجة إلى تراب أرجلهم ، وقتل منهم واحدا واحدا ، ولكن البحارة العرب تركوه . . وكان لابد من أن يغير أسلوبه العنيف فى اعتبار كل الناس

حيوانات ـ إلا أهل البرتغال ، وشاء حظه السعيد أن يهتدى إلى بحار عربى خبير هو ابن ماجد . . هذا هو الرجل الذى أغفل التاريخ البرتغالى دوره الحقيقى فى كشف بلاد الهند . فهو الذى قاد سفينة فاسكو داجاما إلى الهند عابرا بحر الهند بدلا من أن يمشى موازيا بسواحل آسيا . .

وفى الهند انكشف الغطاء عن عفاريت داجاما ، المتعطشة للدم . . فقتل وأحرق وأغرق . . وكان يريد أن يخيف البحارة الذين أتى بهم . . والذين هرب بعضهم إلى داخل بلاد الهند حتى لا يعودوا إلى البرتغال . . وربطهم بالسلاسل ونفذ أحكام الإعدام فيهم ـ بسبب التمرد عليه ، وتنفيذا للفرمانات الصريحة لملك البرتغال!

ولن ينسى له التاريخ أنه أحرق وأغرق سفينة عربية محملة بالرجال والنساء والأطفال ، وراح يتفرج عليها . .

ولم يقل لنا التاريخ إن كان داجاما قد رأى ذلك وراح يغنى كما فعل سلفه العظيم نيرون الذى أحرق روما . . ولما وجد الحريق طويلا مملا راح يتسلى بأن يفعل شيئا ، فكان الغناء ، ولما زهق من الغناء راح يرقص والنساء ترقص أيضا . . ولما زهق من ذلك أتى بالشعراء وراح يقتلهم واحدا واحدا ـ لابد أنهم كانوا شعراء غير عموديين كالمعاصرين لنا!

وبعد أن تحولت السفينة إلى كتل من الخشب الأسود ، حاول إغراق الخشب الذى يطفو عادة ، فلما لم يختف هذا الخشب ، راح يربط التجار العرب فى هذه الألواح المحترقة . . فكانوا يغوصون تحت الماء ومعهم آثار هذه الجريمة!

ولعل السيد داجاما هذا كان هناك واحدا أكثر دموية وإجراما منه . . هو الذى كان نائب الملك لساحل الماليبار ـ شرقى الهند . . كان يحرق الناس أحياء ويأكل ويشرب على أضواء أجسادهم ودهونهم التى تساعد على الاشتعال . . وكان يملأ أنفه بالدخان ويزداد طربا . . هذا السفاح له تمثال طويل كبير أمام قصر الرياسة فى لشبونة الآن . المعنى؟ هو أن يتذكر كل حاكم لهذه البلاد ألا يكون مثل الإنسان اللعين . . ولكن واحدا فقط هو الذى نظر إلى التمثال باحترام عظيم . . هو سالازار الذى حكم البرتغال حكما ديكتاتوريا ٢٧ عاما . . واليوم مسحوا اسمه من الكتب والشوارع والميادين ـ أصبح اسمها ٢٥ أبريل وهو يوم الثورة والقضاء عليه!

(٣)

والبرتغال تستعد الآن لمعرض ١٩٩٨ آخر معرض دولى يقام فى القرن العشرين . . موضوع هذا المعرض هو : «المحيط تراث المستقبل» . . أما المناسبة فهى اكتشاف داجاما لبلاد الهند منذ خمسة قرون . . وهى الرحلة الكبرى التى فتحت البحر والبر للقاء الشعوب . . للقاء أوروبا وأفريقيا وآسيا . .

وفى العام الماضى تصادف مرور خمسة قرون على اكتشاف مملكة الكونغو .

وفى العام القادم تصادف مرور ٤٥٠ عاما على اكتشاف اليابان .

وفى سنة ١٩٩٤ تجيى ذكرى مرور خمسة قرون على هنرى البحار .

وفى سنة ٢٠٠٠ تمر خمسة قرون على اكتشاف البحار البرتغالى بيدرو الغاريش كابرال لبلاد اليابان .

ولذلك سوف يكون المعرض الدولى «اكسبو ٩٨» الذى يقام فى لشبونه مناسبة ثقافية عالمية ، وليس مناسبة تجارية أو اقتصادية . . وإنما الهدف أعظم وأسمى . . وهو أن تتعارف الشعوب وتدرك أهمية التطور الذى يشارك فيه الجميع . . ولا بد من الشعوب معا للوصول إلى فهم أصدق ومعارف أوسع .

من أجل رفاه وسعادة البشرية . . وسوف تنتهز الدول المشاركة فى هذا المعرض لتقديم أحسن ما لديها ليتفرج عليه تسعة ملايين زائر من القارات الخمس . . وسوف يكون المعرض على شكل مدينة حديثة جدا ، الطرقات والمواصلات والخدمات والمطاعم وملاعب

الرياضة وأماكن الترفيه على مساحة ربع مليون متر مربع . . وفى هذا العام يتركز المعرض الدولى فى مدريد على «معنى الاكتشافات» .

ففى جنوا الإيطالية يحتفلون بمرور خمسة قرون على اكتشاف الرحالة الإيطالى كولومبس لأمريكا .

وفى العام القادم تحتفل كوريا الجنوبية فى مدينة نايجون بموضوع مهم جدا هو «إعادة تصنيع الخردة» . . أى الآلات المستهلكة وتحويلها إلى حديد ثم إعادة تصنيعها مرة أخرى . . وكان هذا الحل الذى اهتدت إليه كوريا الجنوبية واليابان وبعض الدول النامية التى ليست لديها مواد خام . . فاليابان تلف سفنها المحيطات وتجمع الخردة من كل مكان وتعيد صياغتها وتنقيتها ومعالجتها كيماويا لتكون مادة جديدة لتصنيع السيارات والأدوات الضرورية فى الصناعة!

أما المعرض الدولى فى البرتغال فسوف يشد من الطموح . . لأنه يريد من كل أفراد الأسرة الدولية أن تعرف الدور الخطير الذى قام به الرحالة البرتغاليون فى تقليب كتاب الإنسانية فى القارات كلها . . ثم ماذا حدث بعد ذلك بعد أن تقاربت الشعوب وتبادلت المنافع وتقاربت وتحاربت . . ثم استقلت ولكنها بقيت بعد ذلك أعضاء ضروريين نافعين فى العائلة الإنسانية .

ويهدف المعرض الدولى إلى أن يؤكد معنى الثقافة والحضارة فهى أبقى من المنافع الحادثة العابرة . . أى أن الثقافة أسمى من التجارة ، والمعرفة أروع من الاقتصاد . . وأن يكون البحر طريقا للحياة ، وليس للمعارك . . هذا هو الهدف السامى الذى تستعد له البرتغال الآن بعد أن أنقذت نفسها من الديكتاتورية الغاشمية فى أيام سالازار إلى الديمقراطية البرلمانية المستنيرة فى عهد سواريش!

(٤)

أما ما هى البرتغال؟

إنها دولة صغيرة «عشرة ملايين نسمة» على الساحل الغربى لشبه جزيرة أيبريا التى تضم أسبانيا والبرتغال وجمهورية صغيرة تحكمها أسبانيا وفرنسا هى «أندورا» . .

والبرتغال هى الدولة الوحيدة التى تستطيع أن تقول : البحر خلفى والعدو أمامى . . البحر فى المحيط الأطلسى والعدو هو : أسبانيا التى حاربتها ألف سنة ، وأسبانيا والبرتغال تتكلمان لغة واحدة . . ولكن البرتغاليين بسبب الكراهية والعداء الطويل غيروا نطق لغتهم . . فإذا قال الأسبان : خاء قال البرتغاليون : جيم . . وإذا نطق الأسبانى : الثاء نطقها البرتغاليون : شين . .

وفى اللغتين كلمات عربية كثيرة . . كل الكلمات التى تبدأ بحرفى ألف ولام . .

والأسبان لا يعلمون اللغة البرتغالية فى مدارسهم وكذلك البرتغاليون لا يعلمون الأسبانية . . هم يتفاهمون دون دراسة!

ولذلك بقيت البرتغال منعزلة عن القارة الأوروبية مثل بريطانيا أيضا ، وكلتاهما دخلت السوق الأوروبية فى مرحلة متأخرة ، فأهل القارة الأوروبية يرون بريطانيا غريبة عنها ، وكذلك يرون البرتغال . .

فالمجتمع البرتغالى مغلق محافظ طيب متماسك ، والأسرة كلها «بربطة المعلم» تجدها تخرج إلى الشارع أو إلى المطاعم معا . . كأنهم

مجموعة من الفلاحين ذاهبون إلى سوق «التلات» فى إحدى قرى صعيد مصر .

والوجوه هنا ليست أوروبية كلها ، وإنما أفريقية ـ فارسية أو أفريقية . . وإذا رأيت عددا منهم يقفون معا ويتكلمون بتحرك اليد والجسم وألقيت تحت أقدامهم شوية تراب وقشر ترمس وسودانى فتظن أنهم مصريون . . بشرط ألا يكون بينهم نساء . . فالمرأة هنا ترتدى فستانا قصيرا جدا ، لا يهم لونها أو شهادة ميلادها ، فهذه الفساتين هى التى تكشف عن أنهم أوروبيون!

ولم يزد عدد سكان البرتغال عن عشرة ملايين فى السنوات العشر الماضية . . وإذا كانت زيادة طفيفة فهى من البرتغاليين السود . . ولذلك تحاول الحكومة تشجيعهم على زيادة النسل . والعاصمة عدد سكانها يساوى عدد المتسكعين فى شوارع القاهرة يوم الجمعة ـ مليونان إلا قليلا!

أما الوجوه فبين صفراء وسمراء . . أما الوردة الحمراء على الخدين فليست إلا بسبب التهاب الكبد!

(٥)

قل لى من فضلك - أنا سألت السائق البرتغالى الذى يتكلم الإنجليزية بلهجة أمريكية صحيحة : هل تعلم أننا جئنا لكى نطالب بتعويض عائلات الضحايا العرب الذى ذبحهم الحاكم العظيم داجاما؟

أجاب الرجل ضاحكا : الخزائن خالية تماما . . لقد جئتم فى الوقت الغلط وطالبتم الشعب الغلط . .

- يعنى إيه!

- يعنى اطلبوا من أخينا الأكبر؟

- أمريكا يعنى؟

- طبعا!

- قل لى من فضلك : عندكم جرائم .

- لا . . لا تجدها فى الصحف فنحن شعب إذا غضب تكلم وإذا تكلم حرك ذراعه ويديه . . ولكنه لا يتضارب . . وحتى إذا حاولنا أن نلعب بعنف فإننا لا نقتل . . فأسبانيا تقتل الثيران فى نهاية مصارعة الثيران . . أما نحن فنكتفى بالانتصار على الثور دون أن نقتله ، وهذا ما نفعله مع الحيوان فما بالك بالإنسان!

- عندكم اغتصاب؟

- حالات قليلة . . ولكنها ليست مشروعة .

- عندكم مخدرات؟

- نعم . . هنا مدخل أوروبا للمخدرات . . مدخل ومخرج أيضا ، ولا يمكن لأية دولة أن تمنعها!

أما مدينة «الشبونة» فهم ينطقونها لشيوا . . ويقال : إن أصل الاسم «أوليشيو» - نسبة إلى أوليس بطل الإلياذة للشاعر الإغريقى هوميروس . . وأوليس هو الذى نترجمه بالعربية عوليس - أى أن اسمها «عوليشيوا» . . والمدينة مقامة على تلال . . وعندما أصابها الزلزال تحطمت كلها . . وامتد البحر فغطاها وتحولت إلى مستنقعات . . ثم أقيمت المدينة الجديدة فوق هذه المستنقعات . .

ومن أهم معالم العاصمة البرتغالية ذلك التمثال الذى يرمز إلى البحارة والمكتشفين . . ومن ورائه طريق طويل ينتهى بإحدى الكنائس الصغيرة التى كانت يصلى فيها البحارة قبل رحلاتهم إلى المجهول . . وكذلك أحواض بناء السفن الصغيرة التى كشفت لنا مجاهل الأرض . .

والشوارع واسعة طالعة نازلة . . بعضها مكسر ولكنها نظيفة . . والناس شعب عامل واضح عليهم الإرهاق . . ولكنهم فى حالهم هادئون .

ومن مكان لمكان تجد واحدا وواحدة يمشيان . . واقفين أو جالسين . . إنها بلاد أوروبية رغم الوجوه المغاربية أو الأفريقية . .

والأطعمة أكثرها من السمك . . ومن الأطباق اللذيذة عندهم : بطارخ الأسماك . . إنها بالأكوام . . أى أن الطبق الذى أمامك فيه كمية من البطارخ لم يرها الإنسان فى مكان واحد طوال حياته . . ولكنه ليس إلا واحدا من الأطباق . .

والفواكه هنا أفريقية وآسيوية مثل الكيوى - من نيوزيلاندا - ومثل الباباز من الهند وأندونسيا . . وغيرها من الفواكه الأوروبية .

وعندما قدموا لنا الشاى فى الفندق وضعوا عدة أنواع من أكياس الشاى : شاى الأمطار الإنجليزى وشاى سيلان . . وشاى أيرلندا . . وأنت تختار منها ما يعجبك .

وأسخف حاجة عندهم : الزبادى بالمربى وليس بعسل النحل أو حتى سادة . .

ولكن هذا ليس عيبا كبيرا فى بلد «متمدن» هادىء محافظ يتقدم بخطوات رزينة إلى مستقبل أفضل!

عروس الدنيا !

سبانيا تريد أن تكون عروس هذا العام . . الألعاب الأوليمبية والمعرض الدولى فى أشبيليه . . كما أن مدريد هى العاصمة الثقافية هذا العام ، أما المعرض فقد تكلف إنشاؤه والطرق والجسور والنافورات والمصابيح أكثر من ألفى مليون جنيه استرلينى . .وذلك بمناسبة مرور خمسة قرون على اكتشاف خريستوف كولمبوس لأمريكا . . وأسبانيا تريد أن تبين لنا إلى أى حد تطورت منذ ذلك التاريخ حتى الآن .

والمعرض فتح أبوابه يوم ٢٠ الحالى ولمدة ستة أشهر سيزوره ٥٤ رئيس دولة ، وقد شاركت فى المعرض ٩٥ دولة ليتبارى مهندسوها وفنانوها . . ويقدموا للعالم بلادهم ، أروع ما فى بلادهم .

أما الجناح الأسبانى الذى خصصوه للاكتشافات فقد التهمته النيران . . ولم تصل عربات المطافىء إلا بعد ساعة . . فقد كانت هذه أول مهمة لهم . . وكانوا فى ملابسهم الأنيقة . . وكانت سياراتهم لامعة ، فخمة . وحتى عندما حاولوا أن يتحركوا بسياراتهم لم تطاوعهم . . وفى هذه اللحظة استقر الجناح كله ترابا فوق التراب . .

أما الجناح اليابانى فكان أكبر مؤسسة خشبية فى العالم . .

والجناح المجرى عبارة عن كاتدرائية من الخشب أيضا . ولكن الجناح اليابانى يؤكد أنه لدولة صناعية عظمى . .

والجناح الأمريكى جعلوه باهرا ، فكان كذلك . .

والجناح الفرنسى معظمه تحت الأرض . .

أما الجناح البريطانى فهو من الزجاج والصلب . . وقد صنعته بريطانيا لتؤكد قدرتها على التحكم فى الطقس ودرجات الحرارة وكيف أن ستارا من الماء يهبط إلى إحدى البحيرات قد جعل الهواء لطيفا . .

وعندما كانت السيدة مارجريت تاتشر فى أسبانيا سنة ١٩٨٩ وعدت بأن يكون الجناح البريطانى من أحسن الأجنحة ، بل أحسنها ، وقد تكلف خمسة وعشرين مليون جنيه استرلينى .

أما الألمان فقد كان جناحهم أكبر الأجنحة وأكثرها إدهاشا ، فالألمان لا يتركون مثل هذه الفرصة دون أن يؤكدوا أنهم الدولة الصناعية العظمى فى أوروبا . . وفى العالم أيضا!

والأسبان يمارسون هوايتهم التقليدية فى مثل هذه المناسبات : رفع الأسعار . . ففندق « الفونسو ١٣» الذى سينزل فيه الملوك والرؤساء قد ارتفعت أسعاره إلى ثلاثة أمثالها . .

أما الجناح السوفييتى فقد استولت عليه روسيا . . وواجهة الجناح السوفييتى ألوان مختلطة وأشكال رمزية . . وهى أنسب شىء للدلالة على طبيعة ما حدث فى الاتحاد السوفييتى!

وعلى مسافة قريبة من المعرض «اكسبو ـ ٩٢» فى مدينة أشبليه توجد مدينة للغجر . . فالغجر حفاه والمياه يشربونها من الطلمبات . . والماء يأتيهم من مسافة تبعد ٢٠٠ كيلومتر . . ورجال الأمن هنا يصبون كل المصائب على أكتاف الغجر المساكين . .

ولذلك سوف يحاولون إبعادهم عن هذه المنطقة حتى لا يسرقوا أو حتى لا يروجوا المخدرات التى هى «المزاج» الليلى لكل الأسبان فى هذه الظروف العصبية القلقة . . وسوف يقاوم الغجر ويهربون . . والحكومة الأسبانية كان فى استطاعتها إبعادهم من وقت طويل . . وقبل افتتاح المعرض بليلة واحدة جمعوهم وأبعدوهم وأقاموا حواجز من الأسلاك الشائكة حتى لا يقتربوا من المعرض . .

وأسبانيا تقول : إنها تتوقع عشرين مليون زائر من كل الدنيا ، وعند افتتاح المعرض لم يكن كاملا . . وفى نفس الوقت يستعجل العمال والمهندسون أن يتم كل شىء ليلا .

إن أحدا لا يبيع شيئا فى هذا المعرض . . ولكن كل الدول تعرض سمعتها وعظمتها . . وهى سلعة لا تقدر بثمن!



(١)

أول ما يخطر على البال عند الكلام عن فيينا أن نتذكر أغنية أسمهان «ليالى الأنس فى فيينا» الصوت الجميل والموسيقى البديعة . . ثم اسمهان التى هى موسيقى الصوت . . صوت الموسيقى . . وتتذكر بعد ذلك الموسيقار العظيم موتسارت الذى احتفلت الدنيا بمرور مائتى سنة على مولده فى العام الماضى . . وأن دار الأوبرا المصرية قدمت له باللغة العربية أوبرا «زواج فيجارو» . . وأن تتذكر الدانوب الأزرق . . وهذا النهر لم يكن أزرق فى أى وقت . . ولكن يقال أن النهر يبدو كذلك فى عيون العشاق . . وأن تتذكر أيضا شتراوس ورقصة الفالس .

وأنا أتذكر أننى فى سنة ١٩٥١ كنت فى فيينا أول مرة مع د . عبد العزيز حجازى ومع د . عبد المنعم البنا ومع أستاذ اللغات السامية د . مراد كامل وكنا شبابا صغارا . . وكانت فيينا مقسمة إلى خمسة أقسام . . الحلفاء الأربعة يحتل كل منهم جزءا والمنطقة الخامسة هى المنطقة الدولية . . وكان الروس قد وضعوا أول دبابة دخلت المدينة . . ومعها تمثال للجندى المجهول الروسى . . وقد سحب الروس دباباتهم . . وبقى تمثال الجندى المجهول .

وأتذكر عظماء النمسا . . تسفايج وكافكا وهو فمانشتال وهسه

وفرفل وفيلسوفهم الكبير فتنجشتين وأتذكر أعظم علماء النفس فرويد ثم فلاسفة (دائرة فيينا) .

وأتذكر أن الزعيم النازى هتلر قد جاء إلى فيينا ليلتحق بكلية الفنون الجميلة . . ولكنهم رفضوه . . فقد كان دون المستوى . . وكانت له محاولات فى الرسم ، ولم ينس هتلر أن فيينا عاصمة بلاده قد ضاقت به . . فاتجه إلى السياسة . . وكان ذلك هو مكانه الطبيعى فهو رجل السياسة والحرب وهو الذى أيقظ العبقرية الألمانية ونفخ فى الشعوب الجرمانية وهو الذى أقام المصانع والطرق وحشد الشعب الألمانى وراءه وأمامه يطارد المستغلين والشيوعية واليهود . . وأحرق أوروبا كلها وهدمها على رؤوس الجميع وعلى الشعوب الألمانية . . وعاقبت الدنيا كلها الشعوب الجرمانية بسبب ما فعله واحد من أبنائها . . وقد كوفئت النمسا على ذلك بأن أصبحت (دولة محايدة) . . لا فيها جيش ولا قنابل ذرية . . وهى الآن ترفض الحياد وتريد أن تكون عضوا فى الأمم المتحدة ، وفى المجموعة الأوروبية . . وكذلك سوف تفعل سويسرا . . فالحياد أكذوبة : كيف يكون الإنسان محايدا فى وجه الفقر والظلم والجوع؟! كيف يكون محايدا والدنيا كلها تتشابك وتترابط وتقف معا ضد عدوها : أمريكا واليابان والصين وغدا روسيا . . وقد كنا يوما فى دول عدم الانحياز . . وكيف تساعدنا دولة من الدول ونحن نقف مع عدوها . . أو لا نقف معها . . إذن على أى أساس تساعدنا . . وكنا (دول عدم الانحياز) أكذوبة كبرى . . فقد كنا دولا منحازة لروسيا ضد أمريكا . . أو منحازة مع أمريكا ضد روسيا!

وعندما نذكر فيينا . . نذكر أن محمد نسيم باشا أحد رؤساء

وزراء مصر تزوج جميلة جميلات النمسا . . وكان أبوها صاحب فندق سخر المشهور . . وصاحب تورتة سخر العالمية . . وكان يكبرها فى السن بأربعين عاما .

ولا أنسى يوم قامت ثورة يوليو فى مصر أن ظهرت الصحف النمساوية تحمل فِى صدورها هذه العناوين : هكذا قال د . عصفور . . قنبلة الدكتور أحمد عصفور . . ٢٥ ألف مدرس على مصر!!

فقد كان فى النمسا أحمد عصفور من حزب مصر الفتاة . . وكان هاربا . . وكان لزوجته مطعم فول . . فادعى أنه اتصل بالرئيس محمد نجيب وقال له الرئيس نجيب : إننى أريد ٢٥ ألف مدرس من النمسا . .

وكانت قنبلة لشعب صغير اختارته الثورة المصرية الجديدة ليعلم شعبها اللغة الألمانية . . من النمسا وليس من ألمانيا . . لماذا؟ ما علاقة الثائر الجديد بالنمسا بالذات؟

واستطاع أحمد عصفور عن طريق هذه القنبلة أن يجعل السلطات النمساوية تفرج عن شحنة فول وبصل وثوم واردة إلى مصر . . وأن يهرب من النمسا تحت ستار هذه الأكذوبة!

أما هذه الدوخة البسيطة التى أشعر بها الآن فهى النشوة لمجرد أننى تذكرت مدينة فيينا!

(٢)

وفجأة ظهرت الإعلانات عن معرض فرعونى فى متحف فيينا . . المعرض اتخذ موضوعا هو : الإنسان والفرعون . . فقد اختارت النسما أن تقيم معرضا دوليا لتماثيل فرعونية قديمة استعارتها من كل متاحف الدنيا ، إلا من مصر؟!

المعرض تحدث فى بلاغة وجمال وأناقة وشياكة وأبهة وبساطة عن الحضارة الفرعونية وعن الإنسان العادى وعن الملوك . . وقد ذهب الفرعون والرجل العادى ولم يبق إلا تماثيلها . . أى لم يبق من كل هؤلاء إلا الفنان نفسه .

فالفن أطول عمرا من الفنان . .

والفرعون فى حاجة إلى فنان لكى ينقله إلى الأجيال . . ولذلك كان الأغريق يحسدون الإنسان على كل مشاعره . . مشاعر الحب والكراهية والغضب والعشق والحياة والموت . . لقد كانوا يحسدونه على الموت . . لأن الأبدية مملة ولأن الخلود ممل لأنها حياة لا أول لها ولا آخر . . ولا فيها تعب ولا فيها مرض ولا فيها خوف . . إن أحد أسباب سخط الشعب النمساوى وكذلك الشعب السويسرى على أنفسم أنهم لا يخافون . . فهم لا يخافون الحرب لأنهم على الحياد . . ولا يخافون الغد لأنهم لا يحاربون . . فالحياد يعطى الإنسان نوعا من التعالى على الناس . . نوعا من السمو والابتعاد عن الناس . . ويعطيهم نوعا من الغربة . ولذلك قرروا أن يخلعوا الحياد . . قرروا أن يعودوا إلى أسرة العذاب

الإنسـانى . . إلى الخـوف وإلى القلق وإلى الجـوع . . وإلى عـدم الشعور بالأمان قررورا أن يكونوا بشرا!

ولكن الفن هو الذى يبقى دائما .

ومن أربعين عاما قال المفكر الفرنسى الكبير أندريه مالرو : إن الفراعنة قد اكتشفوا الخلود ، عندما اكتشفوا النقش على الحجر!

وقد حاولت الحكومة النمساوية أن تقنع مصر بأن تشارك فى هذا المعرض ، ولكن لأسباب مختلفة اعتذرت الحكومة المصرية . . مع احترامها العظيم للنمسا وعلمائها قررت أن تقيم مثل هذا المعرض وحدها فى العام القادم ـ وقد أشار الرئيس فالدهايم إلى ذلك وهو يروى ما دار بينه وبين الرئيس حسني مبارك . . وقد أسعدنا جميعا أن اتفق الرئيسان على أن تنفرد مصر بعرض عظمة ماضيها فى أجمل متاحف أوروبا . . هنا فى فيينا . .

وكل الذين لقيتهم من الصحفيين النمساويين كان ينهى حديثه بقوله : إلى اللقاء فى المتحف!

وقد سارعت متاحف الدنيا بالمساهمة بتماثيل فرعونية فى هذا المعرض الذى سيظل مفتوحا حتى أكتوبر القادم . . وقد تولت شركات التأمين على هذه التحف البارعة نقلها وحمايتها مقابل ألفى مليون دولار . .

وقد استعدت النمسا لهذا المعرض تماما . . فطبعت كتالوجا ضخما فخما لكل هذه التماثيل التى تبلغ ٢٥٠ تحفة فنية . مع شرح علمى دقيق لكل واحد منها . . وظهرت صورة فرعونية بديعة على واجهة المتحف . . صورة فيها كل معانى التاريخ . . وجه

فرعونى قد انكسر أنفه . . انكسر الأنف الحجرى ، ولكن أنف العظمة والكبرياء والنظر الرفيع من فوق لايزال هناك فى الجبهة والعينين والشفتين . . الصورة لا تدعو أحدا لرؤية المعرض ولكن لها ابتسامة تشكر الناس على أنهم جاءوا ـ وكان لابد أن يجيئوا فمن الذى يستطيع أن يتجاهل دعوة النبل والسمو الذى سجله الفنان الفرعونى بمنتهى البراعة على قطعة من أحجار مصر!

(٣)

فى ساعة مبكرة ذهبا إلى المتحف . . كل شىء له مذاق التاريخ والأبهة والوقار . . المتحف بألوانه الرمادية النظيفة الهادئة . . والباب مفتوح على السلم القديم النظيف اللامع ، والسلم يعلو بك أربعين درجة . . وعند العتبة يقف الرجل الذى أقام هذه المأدبة التاريخية الضخمة . . إنه عاشق مصر وعالمها د . سايبل الذى تخرج فى الجامعة وذهب فورا إلى مصر . . إلى آثارها فى كل مكان . . يتعبد ويفهم ويحلل ويدرس حتى امتلأ عقلا وقلبا . فهو يصافحك بحرارة وصدق . . كأنه أبو العروس . . أو أبو العريس أو هو أبو العروسين معا . . سايبل هو ذلك الأب والمهندس الذى رتب ونظم وأقام ودعا ورحب سعيدا بكل من جاء ينحنى أمام العظمة الفرعونية التى سجلها الفنانون فى كل العصور .

وعندما تخطو خطوة واحدة . . فكأنك قد دخلت إحدى المقابر أو المعابد الفرعونية . . فالظلام شديد . . ولكنه رقيق . . فقد تركزت الأضواء الحانية على قطعة فنية . . أعدوا لها صندوقا زجاجيا ومصدرا ضوئيا . . فالهندسة والإضاءة والظلام معا قد تعاونوا فى انسجام موسيقى على إظهار التمثال الفرعونى . . وتركوه يكلم الناس بلغاتهم . . فلست فى حاجة إلى من يقول لك ما هذا الذى ترى . . إن التمثال يقول . . وإذا قربت من التمثلا وجدت كل شىء بليغا فصيحا . . إنه لا يتكلم وإنما هو يشع المعانى فى كل اتجاه .

كيف استطاع الفراعنة؟ وكيف استطاع العالم والمهندس والفنان

النمساوى أن يفهموا لغة الفراعنة . وبساطتهم وعظمتهم هكذا . . إن هذا الرجل د . سابيل يستحق عظيم الاحترام من بلاده ومن بلادنا . . فالذى استطاعه هو ومعاونونه يرقى إلى مستوى الإبداع الفنى فى المعرض والتأثير وفى الفصاحة أيضا!

والعبارة الشهيرة التى تقول : إن الحب يصنع المعجزات عبارة صحيحة فهذا الذى تراه هو من صناعة الحب والإخلاص .

فقد كان موقفا صعبا علينا أن نتفرج على كل هذه التحف الفرعونية فنقبل على واحد منها وندير ظهرنا لواحد آخر .

فوجدت أن أسلم الطرق وأكثرها احتراما هو أن أعطى ظهرى للحائط وأدور حولها لكى أراها واحدا واحدا . .

إن العظمة والأبهة هى التى فرضت علينا طقوسا جديدة لم نكن نعرفها من قبل . . ولا عرفتها الفراعنة أيضا . .

وقد تخيلت أن التماثيل هى التى تتحرك أمامنا ونحن واقفون . . ولم أكتشف إلا بعد وقت طويل أننا نحن الذين نتحرك وهى فى مواقعها الجميلة . . فمن أين جاء هذا الإيهام بالحركة . . جاء من الضوء ومن الظلال والزجاج . . ومن عنصر جديد أدخله النمساويون فى هواء المكان : هو عظيم الاحترام للفنان الفرعونى ، وعظيم الامتنان للعالم والفنان والمهندس النمساوى أيضا . .

(٤)

أقام لنا د . سايبل مديرالمتحف مؤتمرا صحفيا ، ولم نصل متأخرين وإنما الناس هم الذين جاءوا مبكرين .

هل كان لدينا ـ نحن المصريين ـ شعور خفى بأن نجىء متأخرين لكى يرانا جميع الحاضرين ويعرفوا أننا من أهل العروسين . . فراعنة جاءوا يتفرجون على الذين يتفرجون على الفراعنة؟

ليس الحاضرون من الشباب وإنما كثير من الشيوخ ـ والأغلبية من النساء . . وفى الأيدى أوراق وأقلام . . وجاء صاحب المولد د . سايبل وتحدث بطلاقة وسهولة عن المعرض وكيف فكر وكيف دبر وكيف اختار وكيف ساعدته المتاحف الكبرى فى الدنيا . . وكم قطعة وبكم أمنوا عليها .

وإن لم يكن د . سايبل بوجهه السمح وروحه الشفافة محبا فهو عاشق لكل حجر فى مصر أو عن مصر . . إنه يجمع بين العلم والعشق . . بين الفنان موتسارت والفيلسوف فتجنتشين . . وكان كل شىء فيه لامعا : العينان والوجه وقماش البدلة . . والسقف من فوقه والجدران والأرض وسعادة الناس أيضا .

وكان فى نيتى أن ألقى كلمة . . وترددت ولو أعطانى الكلمة لقلت : إننى أشعر بالفخر مرتين . . مرة لأننى أرى تاريخ مصر هكذا عظيما فى كل متحف ، إلا فى متاحفنا . . فهل اشكر اللصوص الذين نهبوا مقابر مصر ابتداء من الجعران إلى المسلة ونقلوها إلى أوروبا لتراها الدنيا أروع وأجمل . . أو هل أشكر علماء النمسا ومهندسيها على هذه الفخامة فى العرض والأمانة فى

الحديث والحب فى الحفاوة . . وأشعر بالفخر مرة أخرى لأن الدنيا كلها قد اجتمعت على شىء واحد : إن الفنان الفرعونى هو أبلغ الشعراء وأصدق المؤرخين الفراعنة ذهبوا وبقى الفن ، وبقى الفنان ، فالذى أمامنا ليس إلا معرضا فنيا لمئات الفنانين المجهولين .

ولقلت أيضا إننى باسم المفكرين والمثقفين المصريين أشكر الحكومة النمساوية على هذا المهرجان العالمى لمصر القديمة وإن لم تشارك فيه مصر الحديثة . . ولكن لا يهم : إن القديم والحديث لا معنى له فى الفن . . فالفن لا تاريخ له . . أى لا عمر له . . والفنان له شهادة ميلاد وليست له شهادة وفاة ، إنه لحظة إبداع لحظة من الأبدية وهذه الوليمة التى أقامتها النمسا هى وليمة لمعانى الجمال والبلاغة والخلود . . ولذلك فلحظة المشاهدة هى لحظة ليست تاريخية . . وإنما هى لحظة لا تاريخ لها . . فهى التاريخ نفسه .

وقد تقدمنا جميعا د . سايبل يشرح لنا الذى ننظر إليه ولا نراه . . يشرح الذي أعجبنا وبهرنا . . إنه يضيف بعدا جديدا لهذه الآثار الفنية . . إن التاريخ لن ينسى ما فعله شامبليون . . فقد ظلت الإنسانية تتفرج على الهرم والآثار المصرية ألوف السنين وهى لا تعرف هذا الذى أمامها ، كنا قبل شامبليون ننظر ولا نرى . . ننظر ولا نفهم فكأننا لا نرى شيئا حتى جاء العالم الفرنسى الشاب شامبليون وفك رموز الحجر فعرفنا لأول مرة . . عرفنا الذى كنا ننظر إليه . . لقد رأينا وفهمنا وكتبنا تاريخنا .

لقد أحسست بكل ذلك عندما كان د . سايبل يضيف المعانى إلى الجمال ويضيف التاريخ إلى الأبدية كأنه شامبليون يشير بأصابعه إلى أعماق التماثيل ـ منتهى السعادة ذلك الذى كنا نشعر به!

(٥)

وقفنا ننتظر الرئيس فالدهايم الذى سوف يفتتح معرض «الإنسان والفرعون» . . أول يوم فى الحدث التاريخى ، وآخر يوم له كرئيس لدولة النمسا . . إن فالدهايهم لا يطمع فى أكثر من ذلك . . فقد وقف الشعب النمساوى وراده يوم قامت المنظمات الصهيونية تتهمه بأنه كان نازيا وأنه كان قاتلا ليهود يوغوسلافيا . . وأنه وأنه . . فمن هو الألمانى الذى لم يكن جنديا فى جيش بلاده ينفذ الأوامر بلا مناقشة؟!

إن هتلر النمساوى كان جاويشا فى الجيش الألمانى أيضا . . ثم رئيسا لكل الشعوب الجرمانية . .

وحاولت الصهيونية العالمية أن تفبرك لهذا الرجل تاريخا أسود دمويا . . ولم يثبت تاريخيا أنه فعل ذلك ، وقد انهزمت الصهيونية وانتصر الشعب النسماوى! انتصر للرجل الذى أرادوا أن يشوهوا اسمه وجسمه وصورته ، ولذلك ففالدهايم عظيم الامتنان لشعبه . . ويكفيه سعادة وفخرا أنهم أعطوه هذا الشرف العظيم . . وكان ختام تاريخه السياسى فى هذه الوليمة العظمى لآثار مصر الفرعونية .

وجاء فالدهايم وألقى كلمة افتتاح المعرض ـ سعيدا ونحن أيضا .

وكان الزحام شديدا من الواقفين على السلم وحول الرئيس فالدهايم . . فاليوم هو يوم الاستفتاء على اختيار رئيس الجمهورية الجديد ، خلفا لفالدهايم . . وقد ذهب الناس فى هدوء وأدلوا بأصواتهم . . وقد استغرق ذلك دقيقتين أو ثلاثا ثم جاءوا

ليتفرجوا . . وكأنهم أرادوا أن يقدموا لأنفسهم مكافأة على اختيار خليفة فالدهايم ، ويكون فالدهايم آخر من يرون فى ذلك اليوم ، وكانت الشوارع هادئة كالعادة فلا شىء من الذى نعرف هنا : بالروح بالدم نفديك يا . . مش عارف مين!

وكان من أهم المرشحين للرياسة رجلان : واحد عنيف لسانه طويل . . وقد ظهرت صورته مع زوجته ـ على الطريقة الأمريكية ـ يضحكان . . وواحد آخر اسمه كلايتل عاش طول عمره دبلوماسيا مهذبا عف اللسان . . وأهم من ذلك أنه صديق للرئيس بوش . . يعنى صديق لأمريكا . . وهذا هو المهم والأهم وقد اختاره الناس ـ بأغلبية كبيرة وفى الليل جاء اتباعه وكتبوا على صورته : شكرا . .

وبعدها بيوم جاء أتباع المرشح المنهزم اشترايخر وكتبوا على صورته : شكرا . . أيضا للذين أعطوه أصواتهم!

وكان فالدهايم شديد الامتنان لفراعنة مصر الذين أعطوه هذه الفرصة التاريخية لكى تكون آخر أيامه وسطهم وعلى مرأى منهم!

ودخل العشرات يتفرجون على مصر الفرعونية . . وخرجت أنا إلى الشارع ممتلئا بكل هذه المعانى ، ولما أحسست أن الشوارع تضيق على . . وأننى أملأ الأرض والسماء اعتزازا وفخرا ، خشيت على نفسى أن انفجر وأن تتناثر شظاياى فتصيب المتحف وما به من أعمال فنية خالدة ، نزلت بسرعة تحت الأرض ، أجلس على مقعد واتعاطى الآيس كريم . . حتى المطاعم تحت الأرض مضاءة بشىء كثير من الفن . . كأنها معابد فرعونية أقيمت لهذه المناسبة . . ورأيت فيما يرى النائم ـ فقد غلبنى النوم ـ أننى قابلت وزير الثقافة فاروق حسنى وقلت له : لقد فاتتك هذه المناسبة الفنية التاريخية يا أيها الفنان!

(٦)

وكان الجو فى فيينا بديعا . . الشمس جعلت الناس يخلعون ملابسهم وينامون فى الحدائق . . ويتمددون على المقاعد . . أو يستلقون على شواطىء الدانوب . . إنهم سعداء . . ونحن أيضا . . لولا أن الشمس حارقة . . وقال لى د . سايبل : هذه نقمة الفراعنة!

ولم أفهم . . فشرح لى ذلك . . وهو أن هذا الجو البديع قد جعل الناس لا يجيئون إلى المعرض ، إنهم يفضلون عليه النوم تحت أشعة الشمس . . ولكن لن يمضى وقت طويل حتى تجىء السحب والأمطار والناس!

وكان من الطبيعى أن نتناقش فى معنى «نقمة الفراعنة» . . فقلت إننى أصدرت كتابا من عشر سنوات . . وقد شرحت فيه نقمة الفراعنة . . بأنها الإصابة بالإشعاع الذى يصدر عن الرمال والمعادن الموجودة فى المقابر الفرعونية . . وكذلك وجود بعض الغازات السامة التى تملأ صدر أول من يكتشف المقبرة . . ثم تصيبه بمرض ما . . بعد شهر أو سنة . . ولقد مات كثيرون .

ولكن أكثرهم من العمال . . ولم يلتفت إليهم أحد . . ولكن المشاهير هم الذين عرفنا منهم كيف ماتوا . . وكيف جاء موتهم غريبا . . ولا بد أنهم أصيبوا بالسرطان أو بضعف جهاز المناعة . . أما «النقمة» التى معناها أن أرواح الفراعنة كانت تحرس المقابر فلما فتحها الإنسان أصابوه فى عقله وفى جسده ، فهى خرافة لا أساس لها!

وقد لاحظ العلماء أخيرا أن كثيرا من « المومياوات» الفرعونية يصدر عنها اشعاع . . هذا الاشعاع مصدره المعادن أو الأحجار أو الرمال . . وأن هذا طبيعى جدا . . ولكن المقابر تختلف بعضها عن بعض فى كمية الاشعاع الصادر عنها .

كما أن الفطريات فى بعض الأطعمة تصيب الإنسان بالهذيان ولا دوخة وأحيانا تكون سامة قاتلة .

وأكبر دليل على صحة ذلك ما اكتشفه أحد الأطباء الفرنسيين فقد لاحظ انتشار مظاهرات فى الريف الفرنسى أثناء الثورة الفرنسية ـ ولا علاقة لهذه المظاهرات بالثورة ـ فلم يكن المتظاهرون يهتفون مع أحد أو ضد أحد . . وإنما كانوا يقولون تحيا الأبقار . . تسقط الخنازير . . اذبحوا العمدة؟!

واندهش الطبيب الفرنسى لهذه المظاهرات . . وأخيرا عرف السبب : فقد كانت هناك مجاعة فى ذلك الوقت . . إن الحكومة الفرنسية قد أمرت بفتح مستودعات الحبوب .

وكانت الحبوب قديمة . . وكانت بها فطريات . . وهذه الحبوب الفاسدة هى التى أصابت عددا من الذين يحفرون المقابر الفرعونية بالهذيان والجنون والانتحار والموت المفاجىء ـ وهذه هى النقمة الفرعونية!

فالنقمة الفرعونية ليست من أعمال الشيطان ـ وإنما هى إصابة كيميائية حدثت من ألوف السنين ، ومن الممكن أن تحدث فى أى وقت!

أمجاد العرب هنا !

(١)

صدمة! كان ذلك أول ما أحسست به عندما نزلت فى مطار مدريد . . فلا النساء راقصات ولا الرجال مصارعو ثيران . . النساء لسن طويلات سمراوات سوداوات الشعر واسعات العيون . . أبدا . . انهن سمراوات قصيرات القامة . . السيقان سليمة ملفوفة ولكنها قصيرة .

ربما كان السبب انهن يرتدين أحذية بلا كعب . . ثم انهن يمشين بسرعة . . الملابس ليست أنيقة ولا جميلة ولا موضة . . ولا أى حاجة!

هل أنا وصلت إلى مدريد فى الإجازة السنوية للستات الحلوة . . فلم يبق فى البلاد إلا العاملات والخادمات؟ إذن أين الرجال الذين يرقصون أيضا ويغنون وأين الثيران التى تهاجم الناس فيهاجمها الأبطال والجماهير تصرخ وتصفق . . ومن الصراخ والتصفيق يولد الأبطال؟!

لا أحد من هؤلاء . . سألت الناس بالإيطالية الغريبة عن الأسبانية : وأين الجميلات؟

وكان الضحك هو الجواب . . كأننى قلت نكتة . . أو حاولت ذلك أو كأننى قلت كلاما سخيفا ، ولكن أدب الناس هو الذى منعهم أن يقولوا ما هو أسخف؟

الشمس شديدة كأننا فى أسيوط . . والشوارع خشنة ولكنها مستوية . . والبيوت رمادية الألوان . . والأشجار عميقة الخضرة ، ولكن لم أقع فى غرام مدريد من أول لحظة . . ولا حتى من اللحظة العشرين كما حدث لى مع روما وباريس . . إذن أين الدفء والنعومة والموسيقى والطرب والجمال؟

هل وصلت فى الزمن الغلط؟ هل كان من الأفضل أن أصل إلى مدريد فى زمن فرانكو؟ هل كان الأفضل أن أجىء إليها يوم كان اسمها (مجربط) . . أى فى أيام الأندلس؟

إذن العيب فى عينى وليس فى الذى أراه . . والعيب فى عينى فعلا . . فلابد أن أحب المدينة لكى أراها جميلة فاتنة ساحرة . . قال : لن تحب مدريد . . وإنما سوف تحب كل المدن الأخرى . . إلا هذه المدينة . . فهذه مدينة عابرة .

أى يجب أن تكون عابر فى طريقك وهى أيضا يجب أن تكون عابرة ، ولم أصدق ، فلا يمكن أن تكون الدولة جميلة حلوة أنيقة رشيقة والعاصمة ليست كذلك؟

هناك عدة طرق لترى جمال أسبانيا .

أن تراها من خلال عيون أخرى . . أى تراها فى عينى فتاة جميلة . .

أن تراها فى عينى فنان تشكيلى . .

أن تراها فى عينى مهندس معمارى . .

أن تراها فى عينى مؤرخ للحضارة العربية التى تركت أروع آثارها فى كل مدينة أسبانية .

أن تعطى لنفسك بعض الوقت لكى تفهم الناس فى هذه البلاد .

فأسبانيا يزورها سنويا ضعف عدد سكانها أى حوالى سبعين مليون سائح . . لابد أنهم وجدوا فيها ماليس فى فرنسا وإيطاليا من بلاد البحر الأبيض المتوسط . . إننى منذ اللحظة الأولى لم أجد شيئا . . بل إن الشوارع ضيقة والبيوت ليست مرتفعة والوجوه ليست حلوة ثم إن على الوجوه مسحة من الحزن . . الناس فى حالة حزن؟ والبلاد غنية؟ كيف؟

سألت . . قالوا : كيف يضحك الإنسان إذا كان متجها من البيت إلى العمل وليس فى حوار مع أحد . . كيف يضحك وحده؟

ثم كيف نتوقع أن يذهب الناس رقصا إلى مكاتبهم وحقولهم ومصانعهم؟

وكيف يركب الناس الثيران فى بلاد تصنع كل سيارات أوروبا وأمريكا . . فكل هذه السيارات التى تراها أمامك قد تم تركيبها وتصنيعها فى أسبانيا؟

يا أخى انتظر شوية ـ قلتها لنفسى!

(٢)

من نافذتى رأيت فى ساعة مبكرة مدينة مدريد . . أسطح البيوت نظيفة والشوارع . والشمس تكشف كل شىء . . البيوت من بعيد تبدو بيضاء . . ومن حين إلى حين تجد عمارة عالية . . الناس لا يحبون ذلك . . ولكن الجمال والمال يتصادمان . . فالذى يريد المال لا يهمه جمال المعمار الأندلسى . . والذى يريد الجمال لا يهمه المال . . ولذلك فإنه حريص على أن يظل بيته من طابقين من طراز قديم . . فهو مبسوط كده . . ولا يحب أن يهدم البيت ويبيع الأرض لمن يدفع أكثر ويبنى ناطحة سحاب فوق جثث كل فلاسفة العمارة الأندلسية العربية القديمة .

وجاءت سيدة نظيفة طريفة إنها أمينة المتحف الوطنى إنها الدكتورة كارمن . . وهى تقوم بحفريات فى صعيد مصر . . أما اسمها بالكامل فهو : ماريادل كارمن بيريزدى . .

وكان لابد أن تذهب وتتفرج فى قلب مدريد على أثر مصرى قديم . . الأثر يرجع إلى عصر النوبة ـ أى عندما حكم ملوك النوبة مصر والسودان . . وكان غرق جزء منه عندما قامت مصر بتعلية سد أسوان . . الأثر اسمه قصر «دبود» . استغرق بناؤه مائتى سنة . . فقد تتابع على بنائه ملوك عديدون ، وعندما أعلن فى سنة ١٩٥٩ أن مصر سوف تبنى السد العالى وأن الكثير من الآثار العظيمة سوف تغرقها المياه أمام السد . . أعلنت اليونسكو أنها سوف تنقذ هذه الآثار وسوف ترفعها من سطح الماء إلى مكان

بعيد ، وكان من بين الذين قاموا بإنقاذ آثار النوبة أحد العلماء الأسبان واسمه د . المانحو باش رئيس متحف الآثار فى مدريد .

وفى سنة ١٩٦٨ كافأته الحكومة المصرية بأن أعطته هذا الأثر تقديرا لدور أسبانيا العظيم فى إنقاذ آثار النوبة .

وقد قرر مجلس بلدية مدرية إقامة هذا الاثر فى أكبر ميادين العاصمة .

وقد أقيم على مساحة مرتفعة من الأرض أكبر من ميدان السادات «ميدان التحرير» .

وأقامت له السلالم ونشرت حوله الأشجار . وجعلت الأثر فى مكان رفيع يراه ويزوره كل من يذهب إلى مدريد . .

أما الحفاوة بهذا الأثر الصغير ، فتجعلك تشعر بالعزة وفى نفس الوقت تأسف لأننا عاجزون عن أن نحقق لآثارنا مثل هذا الاحترام . . وكل هذه الأبهة والنظافة التى تستدرج السائح الأجنبى لرؤيتها . .

وكلما اقتربت من الأثر أدركت براعة الأسبان فى تركيبه وعرضه الجميل . . وفى داخله تلتقى مع الضوء الهادىء المريح للعين والذى يحترم المعنى العميق لهذا المعبد التاريخى . . ثم إن هناك أكثر من فتاة تتولى شرح الأثر وتاريخه بكل اللغات . . إنهم يشرحون لنا نحن المصريين عظمة الأثر المصرى ، ويشرحون لنا ظروف بنائه وغرقه والخوف عليه . .

وتمنيت ساعتها لو أنهم حملوا بقية الآثار المصرية وأنقذوها من الإهمال وأقاموها فى بلادهم لتجىء تتفرج عليها وتعجب بها . .

وفى نفس الوقت تحزن على بلادتنا وإهمالنا وضياع هذه المعانى الجميلة والقيم الأثرية لهذه التحف التى جاءت من الماضى ولا تزال تقول لنا كلاما عالى النبرة رفيع المستوى . .

أما العالمة الأسبانية التى رافقتنا إلى هذا الأثر فهى تعرفه بالملليمتر وتقول لك : هنا . . وهناك . . ثم هناك . .

وكأنها بأصابعها تعزف على بيانو فرعونى قديم . . ولا تكاد تلمس الأحجار حتى يتعالى الكلام والموسيقى وتتردد جميعا فى أكبر ميادين العاصمة الأسبانية . . الجميلة . نعم الجميلة . . لقد بدا كل شىء جميلا . . الأثر والميدان والأشجار والبلكونات المشرفة على الأثر والوجوه الحلوة والأصابع الرقيقة . . والابتسامة الصافية للعالمة الأسبانية وللمرشدات السياحيات . .

سبحان الله . . لقد أخذ جمال مدريد يظهر لحظة بعد لحظة!

(٣)

هذه الدولة هى الدولة رقم ٣ من حيث الاتساع فى أوروبا كلها . . وهى أعلى أرض حمراء فى أوروبا . . ولكن فى نفس الوقت بها هضبات وجبال ووديان وغابات وسواحل طويلة . . سواحلها على البحر الأبيض حوالى ٢٨٠٠ كيلومتر وعلى المحيط الأطلسى حوالى الألف . .

وهى دولة معزولة عن أوروبا . . وكانت أكثر اتصالا بأفريقيا . . ولذلك كان أثر العرب المغاربة كبيرا . . ولا يزال قويا . . وهذا واضح فى كل مدن أسبانيا . والمعرض الذى تقيمه الآن أسبانيا فى متحف كوزمو بوليتان فى نيويورك اسمه «الأندلس» وقد عرضت فى هذا المتحف أروع آثار العرب فى الأندلس وفى أسبانيا كلها .

وأسبانيا تشبه تركيا إلى حد كبير . . فهى أيضا دولة امبراطورية كان لها مستعمرات . . ثم إنها آسيوية أوروبية ولكن أسيوية أكثر . . وهى تقع على البحرين الأبيض والأسود . . وهى هضبة عالية وعرة خشنة .

والعرب قد غزوا هذه البلاد الأسبانية فى أواخر القرن الأول الهجرى وفى سنة ٧١١ ميلادية وظلوا بها ثمانية قرون على شكل مملكة وممالك وإمارات وخلافات ممزقة متفرقة حتى نجح الأسبان فى طرد العرب فى سنة ١٤٩٢ . . وهى السنة التى اكتشف فيها كولمبس قارة أمريكا . .

وإذا كانت مملكة غرناطة قد هزمها الأسبان فى سنة ١٤٩٢ ،

فقد انهزمت أساطيل فرنسا أمام أساطيل أسبانيا سنة ١٥٢٥ . . و في ذلك الوقت امتلأت جيوب الأسبان بالذهب الذى أتى به كولومبس من أمريكا . . وتضخمت الثروات وانهارت الصناعات وتحلل الشعب . . أو الشعوب الأسبانية .

وفى سنة ١٥٨٨ انهزمت الأساطيل الأسبانية أمام الإنجليز . .

وعادت الحياة إلى الشعب الأسبانى عندما هاجم نابليون بلادهم سنة ١٨٠٨ . . وهى فى نفس الوقت بداية حرب الاستقلال الذى تم سنة ١٨١٤ بمساعدة الإنجليز ضد الفرنسيين .

وبدأت الحروب الأهلية فى أسبانيا . .

وتحررت المستعمرات الأسبانية فى أمريكا . .

والأمريكان هزموا الأسبان وطردوهم من مستعمراتهم سنة ١٨٩٨ فخرجوا من كوبا وبورتوريكو والفلبين . .

وأمام المغاربة وقوات الريف المغربى انهزمت أسبانيا . . وفى سنة ١٩٣١ سقط الملك الفونسو الثالث عشر وأعلنت الجمهورية .

وأيدت ألمانيا وإيطاليا الجنرال فرانكا الـ «كوديو» ـ أى القائد . .

ومنذ حكم فرانكو حتى حكم الملك خوان كارلوس وأسبانيا تمشى فى خط مستقيم نحو التقدم والرفاهية حتى بلغت أوجها الآن . . فهى أول دولة سياحية فى الدنيا إذ يزورها ضعف عدد سكانها ـ أى سبعون مليونا .

ولم يبق لأسبانيا من مستعمرات فى العالم إلا بعض قطع على شاطىء المغرب مثل مدينة سبتة ومدينة مليليا وبعض الجزر الصغيرةمثل كافرينا وجزر الكنارى وجزر البليار . . ومدينة سبتة

مساحتها ٢٠ كيلومترا مربعا وعدد سكانها ستون ألفا و٩٠٪ من سكانها من الأسبان والباقون مغاربة وقد استولت عليها أسبانيا سنة ١٥٨٠ ومدينة مليليا ومساحتها ١٣ كيلومترا مربعا وقد استولت عليها أسبانيا سنة ١٤٩٧ وعدد سكانا ستون ألفا من الأسبان . . وفى داخل أسبانيا توجد لهجات ولغات . . هناك لغة الكتالان ولغة الباسك ولهجات متعددة . . ونزعات استقلالية أيضا . . فأسبانيا لا تضم شعبا واحدا وإنما عدة شعوب . .

ولكن فى هذه البلاد الجميلة شىء واحد يحرصون عليه جميعا حتى إذا اختلفوا ، وهو الأصل التاريخى العربى الجميل لهذه البلاد . فالعرب الذين جاءوا من بغداد ومن شمال أفريقيا ومن السودان أيضا قد تركوا ملامح قوية فى هذه البلاد . . فقد أتوا بنظم الحكم وأتوا بفنون العمارة البديعة التى لاتزال باقية حتى الآن . . وإذا كانت العمارة العربية قد برزت فإن الناس يستنكرون ناطحات السحاب . . وكأنهم يكفرون عن ضرورة إقامتها لاعتبارات اقتصادية ، بأن يقيموا الحدائق والنافورات والتماثيل . . وفى اللغة الأسبانية ألوف الكلمات العربية . . وتوجد أداة التعريف «ال» فى كثير من الكلمات . . ولها نفس المعنى العربى . . وهم ينطقون حرف «الثاء» التى لا نعرف كيف ننطقها فى مصر - حتى أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم فى أغانيهم العربية الفصيحة لا ينطقون هذه الحروف نطقا صحيحا : الثاء والذال والظاء!

فهم فى أسبانيا يقولون مدينة : مريثا التى جاءت منها سيدى أبو العباس «المرسى» وصحتها المرثى . .

وينطقون فلنسيا وهو اسم مدينة جميلة فلنثيا . .

(٤)

ونحن نطلق كلمة الأندلس على أسبانيا كلها . . وحكم الأنداليس على حكم هذه البلاد من أولها لآخرها . .

واختلف المؤرخون على معنى كلمة الأندلس . . أو أندلوسيا . . والأسبان يسمونها أندلوثيا . . وهى الوادى المسطح ككف اليد فى جنوب أسبانيا كلها . . وتضم العاصمة أشبيليه المقام فيها المعرض الدولى الآن . . وقرطبه . . وملقا . . والوديان والحدائق ونهايات الأنهار الأسبانية التى تصب فى البحر . . والأنهار الأسبانية لها أسماء طويلة ولكن لها قنوات قصيرة وصغيرة . .

والعرب يؤرخون للأندلس فيقولون إن الكلمة جاءت نسبة إلى أندلس بن يافث . . وهى اجتهاد بعيد جدا عن الحقيقة . . ولكن الحقيقة أبسط من ذلك بكثير . .

فهذه البلاد قد جاءها الرومان والإغريق والفينيقيون . . وغزتها قبائل من كل شمال أوروبا كما غزاها العرب والبربر من الجنوب . . وكانت القوات العربية كلها من الرجال فاتخذو زوجات لهم من أهل البلاد . . واتخذ أهل البلاد زوجات من السود من السودان . . أحبوا نساء السودان لجمالهن وأنوثتهن وقدرتهن على إدارة البيوت ولأنهن أكثر إنجابا . . فاختلطت الألوان والأجناس فى الأندلس -جنوب شبه الجزيرة الأسبانية . .

ولكن أقرب التفسيرات لكلمة الأندلس أن هذه البلاد كانت تسكنها وترتادها قبائل الفندال . . الوندال . . الونداليس . .

الوندلس . . الأندلس . . التى انتـهى حكمـهـا السـيـاسى والعسكرى سنة ١٤٩٢ يوم اكتشف كولمبوس الدنيا الجديدة . . ففى هذا العام انهزم العرب وطردوا مع غير المسيحيين من البلاد . . وكانوا قد وصلوا إلى قلب فرنسا . .

ويكفى أن نشير بسرعة إلى أسماء الدويلات . . الإمارات . . العربية التى تسلطنت واستقرت فى المدن الأندلسية الرائعة الجمال . .

بنو عاصم استقرو فى «قرطبة» وحكموها من ٧٥٦ حتى ١٠٣١ ميلادية . .

وبنو جهور واستقروا فى قرطبه فيما بين ١٠٣١ و١٠٧٠ . .

وبنو مزين وعاصمتهم سلته دخلوها فيما بين ١٠٢٨ و١٠٥١ .

وبنو ذى النون استقروا فى طليطلة أجمل المدن الأسبانية فيما بين ١٠٣٦ حتى ١٠٨٥ .

وبنو عامر أقاموا فى مدينة بلنسه «بلنثه» فيما بين ١٠٢١ حتى ١٠٦٥ .

والداخلون والموحدون وبنو الأحمر كانوا فى غرناطة فيما بين ١٢٣٢ حتى ١٤٩٢ . .

وتركوا آثارهم الخالدة فى النقوش والزخارف والمقرنصات والزخرفة الخطية فى المساجد والقصور والكنائس . .

وكان العرب لا يقولون : الأندلس وإنما يقولون : أندلس . . أندلوسيا . . أندلوثيا . .

شاعرهم يقول : سألت القوم عن أنس فقالوا . . بأندلس . . وأندلس بعيدا

وذهب العرب وعادت الأندلس دولة مسيحية كاثوليكية . . والأقلية من البروتستانت والأرثوذكس . . أما اليهود فعادوا إلى نفس الأماكن التى عاشوا فيها وصاروا أقوى . . واعتذرت أسبانيا لليهود عما أصابهم من قتل وذبح أمام محاكم التفتيش . .

وبقى فى أسبانيا كلها ألوف البيوت والقصور والشوارع والحوارى والمساجد والكنائس . .

(٥)

لا أعرف ما الذى أقوله لنا . . نحن المصريون . . إن كل آثارنا الموجودة فى المتاحف العالمية فى الحفظ والصون مع الاحترام والعظمة . . إنها آثار لتاريخ عظيم - هم الذين يقولون ذلك ، نحن لا نقول ذلك . . وإنما نحن نحرص على إخراجها من التراب ، لكى ندفنها مرة أخرى فى التراب . . كانت مدفونة فى الأرض نائمة ، ونحن ندفنها فوق الأرض واقفة . . انظر إلى كل آثارنا فى المتحف وهات معك (منفاخا) لكى تزيل عنها تراب الإهمال وليس تراب الزمن ، وتراب الإهانة لها ولمكانتها التاريخية .

ومن العجائب حقا أننا ضبطنا أحد العلماء النمساويين وفى جيبه جعران . . وقلنا : امسك الحرامى!

وأنا أبادر فاعتذر إلى هذا الحرامى ـ فكل آثار مصر فى المتاحف مسروقة بعلمنا ومن غير علمنا ، ويمنعنا الخجل أن نطلب إليهم أ ن يسرقوا ما لدينا لأنهم أكثر عناية بها منا ـ ألف ألف مرة!

هذا العالم الذى سرق الجعران كان سيضعه إلى جوار المسروقات الرائعة الموجودة عنده فى متحف بلده فيينا ، ولابد أن نخجل من أنفسنا إذا ذهبنا إلى فيينا ، ولابد أن نخجل من أنفسنا إذا ذهبنا إلى فيينا ورأينا الأبهة والعظمة المصرية وهى تنعم فى الضوء والتكييف ويقلبها الناس بعيونهم ثم يتنهدون حسدا للمصريين الذين لهم مثل هذا التاريخ الجليل!

كم تمنيت لو استطاع هؤلاء الخواجات ابتداء من روما وانتهاء بأمريكا أن يسرقوا الهرم الأكبر . . بل الأهرامات الثلاثة وأبو الهول والكرنك وطريق الكباش ، وكل صرح أقامه الفراعنه على أرض

مصر لنذهب ونتفرج على جمالها ونزداد حبا لمصر ونزداد خجلا من تفكيرنا وإهمالنا وقذارتنا!

وفى مدريد ومع الدكتورة ماريا دل كارمن بيريز أمينة المتحف رأيت وسمعت وانتفخت .. ولم أجد داعيا لهذه النفخة فانكمشت خجلا من نفسى ومن أهلى الذين لا يعرفون قيمة أجدادنا ، صحيح أنه لا توجد أية صلات بيننا وبين الفراعنة .. إنهم أناس عاشوا على هذه الأرض التى نعيش عليها .. حكموا واختفوا وجئنا نحن من بعدهم خليطا من كل الأجناس السامية والحامية ، الغزاة والمستعمرين من كل الجهات .. ولم نعد نعرف لنا أصلا ولا فصلا .. وإنما ندعى كذبا أن أجدادنا الفراعنة فعلوا وفعلوا .. والحقيقة أنهم هم الذين فعلوا ونحن شهود على ذلك .. ولسنا طرفا فى ذلك .. فالذى بنى الهرم لا يمكن أن يكون حفيده الذى يرمى الزبالة من الدور العاشر فوق رؤوس الناس .. ولا يمكن أن يكون من أحفاده واحد يبحث فى بيته عن مسمار لكى يخربش جميع السيارات الواقفة فى الشارع .. ولا ذلك الذى يضع فى جيبه موسى حلاقة ، ويضع الموسى فى ورقة متينة حتى لا تقطع ملابسه ، ثم يخرجه من جيبه وهو يبرح دار السينما الأنيقة بمقاعدها الجلدية الفخمة .. ثم يمزق الكرسى الذى استراح عليه ساعتين!

ولا أحفاد الفراعنة يردمون آثارهم فى الطين والرطوبة . .إننى أكاد أقول أن الجانب أكثر احتراما لهم وتقديرا للفن والجمال والثقافة وحضارة الإنسان ..

إن د . كارمن لم تكن تشرح لنا وإنما كانت عميقة الاحترام والإيمان بعظمة هؤلاء الناس الذين أقمنا على أرضهم من ألوف السنين - عجبى!

(٦)

الأسبان ينطقونها (توليدو) . . فما الذى فى هذه البلاد . . كل ماضيها مصان . . ناطق صارخ بألوانه وهندسته القديمة . . هم حريصون على ذلك . إن الماضى وديعة فى أيديهم وهم قدها وقدود وليس كل ما هو أندلسى هو عربى إسلامى . . ولكنه إسلامى قبطى بيزنطى . . فقد ادخلوا عليه تعديلات وتنويعات حتى استقر على أيديهم إلى الصورة المعمارية الجميلة التى نراها .

والدليل على ذلك أن الكنائس تجد فى داخلها زخرفة إسلامية ، فيما عدا الآيات القرآنية . . إذن هى ليست إسلامية ، وإنما خليط من الفنون الشرقية والإسلامية والغربية المسيحية . .

شىء عجيب أن يحرص الناس فى أسبانيا على كل ماضيهم ، ويمسكون فى أيديهم كأنه زجاج شفاف رقيق قابل للكسر . . فى الأكل وفى الشرب وفى الجلوس وفى الحديث . .

وفى المتحف الذى شاهدته للفنان الأسبانى الجريكو . . بيت جميل يسكن فيه الفنان . . أو إنهم جعلوا البيت جميلا . . أضافوا له حديقة . . وزرعوها ، وانعشوها وصوروها ونقلوها فى زفة تاريخية إلى الدنيا كلها . . وفى هذا البيت أو هذا المتحف عرضوا لوحة له . . وأهم ما فى اللوحة أن شيئا ما قد أضيف إليها . . والناس يتفرجون ويحاولون أن يؤكدوا لأنفسهم أنهم قد وجدوا هذه الإضافة . . هل الإضافة صحيحة؟ هل هى خطأ؟ . . إنها حدث تاريخى يجب ألا يهمله الناس . . وقد جعلت الطريق إلى المتحف صورا وأفلاما وهدايا عليها لوحات الفنان الأسبانى . . وإلى جوار المتحف البيت أوالبيت المتحف توجد دكاكين تبيع كل شىء

ومطاعم صغيرة وكلها ايه؟ كلها نظيفة جميلة أنيقة . إن كلمة النظافة كلمة عربية لا شك ، ولكنها ليست مصرية . . فنحن لا نعرف النظافة فى أى شىء . . هل أنت زهقت؟

أنا زهقت من هذه الكلمة التى هى إهانة متكررة ، ولكننا جميعا زهقنا من استخدامها ولا انكسفنا من لصقها بأيدينا ونفوسنا وعقولنا . . إن القذارة عاهة مصرية نعيش بها!

أتذكر أن الأستاذ توفيق الحكيم بعد أن فقد ابنه الفنان إسماعيل الحكيم قد سأله أحد أصدقائه : قل لى يا توفيق كيف تعيش بعد إسماعيل؟

فقال الحكيم : إننى أعيش بعاهة دائمة . . تماما كالذى فقد ذراعه أو عينه . . سوف اعتاد عليها وأرى أنى أحسن حالا من الأعمى والمكسح والمشلول والأطرش!

والقذارة عاهة مصرية . يا خوفى على ما سوف يحدث لمتحف محمد محمود خليل . . وما سوف يحدث لمتحف ناجى - إننى لا أخاف على هذين المتحفين من المتفرجين ولكن من الذين يتولون حماية هذه الكنوز الفنية وليست لهم دراية ولا ثقافة . . والدولة تدفع مرتباتهم بالملاليم ، لكى يحرسوا لها ألوف الملايين!

إن الذين يتولون حراسة المتاحف أو إدارتها مثقفون «أثرياء» يعرفون عدة لغات . . أما ملابسهم أما سلوكهم فشىء محترم . . لم أجد واحدة منهم «تمضغ لبانة» . . ولما اقتربت منهم لم أشم رائحة البصل . . ولا استطاعت واحدة أن تفتح شنطتها وتخرج سيجارة وقالت : ولع لى من فضلك!

لا شىء من ذلك . فهى فى فترة عمل وتؤدى واجبا وهى نموذج للمرأة العاملة المثقفة فى دولة متحضرة . . وهى تظن أن شيئا من ذلك فى بلادنا ، فهى لذلك لا تريد أن تبدو أقل قدرا من الفتاة المصرية التى تؤدى نفس عملها فى مصر؟!

(٧)

على مقهى عند طرفى جبل يطل على النهر الضيق ، الصغير يخترق الغابات الكثيفة والبيوت البيضاء . . كأنها حمام أبيض ، كان فى رحلة طويلة ثم حط على هذا البساط الأخضر . . محطة فى طريق طويل . .

أما السحب فكانت كأنها مناديل جاءت من المجهول لكى ألفها حول رقبتى والنسيم بارد أو كان أحدا لا أعرفه قد توقع أن هذه الفتاة الجالسة أمامى سوف تبكى فى النهاية . . فأرسل هذه المناديل كى تجفف دموعها . . أشكره فالمنديل الذى فى جيبنى لا يليق بدموع فتاة جميلة . . ولا حتى بحذائها . .

قلت لها : مشكلتك؟

مشكلتى أنا . . ليست عندى مشكلة من نوع خاص . .

أنا أسأل عن مشاكل الشباب فى مثل سنك فى بلد غنى مثل أسبانيا .

كأنك لا تريد أن تسمع مشكلتى . . أنا تصورت أن لى معنى خاصا عندك بعد أن تغدينا . . وتعشينا . . وقلت لى وقلت لك . . ووجدنا أنه من الممكن أن نكون أقارب بعد مائتي عام . . فأنا أيضا أجدادى من الفرنسيين والألمان وأنت قلت لى أن جدتك لأمك ترجع إلى هذه الأصول . .

آسف لا أريد أن أتدخل فى حياتك . .

– ولكنك تدخلت ودخلت فقد حكيت لك أضعاف الذى حكيته أنت . . هل تريد طعاما أسبانيا؟

– نعم .

– أنت لا تأكل اللحوم؟

– نعم .

– إذن أنت خسرت ثلاثة أرباع المطبخ الأسبانى . . ومع ذلك فحيوانات البحر تلقى حفاوة شديدة فى بلادنا .

– هل الاختلاف فى الأطباق بيننا . . يباعد بيننا . . هل من الضرورى أن نتفق فى كل شىء .

– طبعا لا . . فنحن مختلفان جدا .

– تقولين جدا . . لا أظن ذلك ، فأنت درست الفلسفة مثلى . . وأنت من أصول فرنسية ألمانية . . وأنت فى مثل سنى . . ولابد أنك كنت جميلة جدا . . أكثر جمالا مما أنت عليه الآن . . عندك أولاد .

– لا . . وأنت؟

– وأنا أيضا .

وبكت السيدة . . وحاولت أن أعتذر بأى شكل . . ولكن الدموع كانت أسبق . . والسحب التى تصورتها مناديل جاءت من بعيد ، قد ابتعدت ، ولم أعرف ما الذى أبكاها . وكيف اعتذر لها . . أنا لا أعرف .

وأشارت لى أن ننهض . . وجفت دموعها وعاد قوامها ممشوقا ،

وعيناها ازدادتا لمعانا ، وعاودتها ابتسامتها الحلوة . . وأشارت إلى قصر بعيد أبيض فى أحمر فى أخضر ، وأسلاك من الفضة هى قنوات صغيرة . . ودخان

يتصاعد مناديل صغيرة من هذا القصر .

وقالت : هذا بيتى . .

- ياه . . إنه مرتفع جدا . .

- هذا هو الذى يبكينى . . فقد رزقنى الله طفلا مليئا بالحيوية . . وقد تدحرج من هذا المكان إلى النهر . . وتمنيت من أربعين عاما لو تحولت أنا إلى دموع . . إلى قطرات تحتضن كل ملليمتر من هذا المنحدر . . كل ملليمتر لمس جسد ابنى الجميل . . ولكن كما ترى . .

- آسف والله يا سيدتى .

- لا داعى . . فالحزن أقوى من أية محاولة لنسيانه . . وأنا موجوعة لدرجة أن شيئا لا يخفف عنى . . إنها كما قلت فى لحظات «هموم خاصة» . . فالموت نهاية خاصة . . كل واحد يموت لنفسه كما كنت تقول . . ولكنى اختلف معك . . ابنى مات ، ولكن لم يمت وحده . . إنه يموت فى داخلى كل يوم . . وأنا أشاهده على ذلك . . أنا نعشه . . أنا كفنه . . أنا قبره . . إننى أحاول أن أموت لابنى . . وليس لنفسى . . فلم تعد لى نفس يا سيدى . .

(٨)

شركة السجائر تقوم بحملات كثيفة لترويج السجائر ، ويقال : إن شركات السجائر تدفع أموالا طائلة لنجوم السينما ليظهروا والسجائر فى أيديهم . . حتى الذين لا يدخنون . وفى إحصائية نشرتها إحدى الصحف البريطانية أن فيلما أمريكيا قد ظهر فيه كل الممثلين يدخنون حتى الصور المعلقة على الجدران كانت لمدخنين أيضا ، بل إن طفلا صغيرا ضبطته أمه يدخن ، فألقى السجائر . . ولم تؤاخذه الأم على ذلك . . بل هو الذى خاف منها ، وكان خوفه فى غير محله!!

بل إنها دفعت لبريجيت باردو ممثلة الإغراء الفرنسية للظهور فى التليفزيون لتقول فى حديث لها إنها تشعر بأنها محبطة تماما إذا لم تضع السيجارة فى فمها . . وإن السيجارة مثل عكاز لأفكارها أو مثل منظار لعينيها . . أى أن السيجارة لا يمكن الاستغناء عنها وتندهش كيف يتخلى أى إنسان فرنسى عن الذى يميزه عن الشعوب الأخرى .

فى رأيها أن الفرنسى إنسان مدخن .

ويقال : إن الأفلام البوليسية هى المسئولة عن نشر التدخين . . ففى الأفلام البوليسية التى يسودها التوتر والقلق . . قلق البوليس والنيابة والهاربين ، جميعهم يدخنون . . يدخنون وهم يطاردون المجرمين ، والمجرمون يدخنون هربا من رجال البوليس . . وقد اقترن التدخين عندهم بالبحث عن حل . . وبالوصول إلى الحل . . وليس

من المشاهدين واحد ليست له مشكلة يريد لها حلا . . فكيف لا يدخن؟! ومنذ أيام أعلنت إحدى شركات السجائر عن تعاقدها مع السيدة مرجريت تاتشر عضو مجلس اللوردات بأن تعمل مستشارة لها فى الترويج للتدخين فى العالم ـ مع أننا لم نر السيدة مرجريت تاتشر تدخن مرة واحدة . . وهى طبعا سوف تدعو للسجائر الإنجليزية . . أى للصناعات الإنجليزية مهما كانت أضرار السجائر على صدور الناس . . فالمهم عندها أن يعمل الإنجليز وأن يكسبوا وأن يقفوا ضد الأمريكان والفرنسيين ، وقد نشرت إحدى شركات السجائر البريطانية مقالا كتبه الزعيم تشرشل عن تدخين السجائر فقال : إننى لا أعرف كيف يجرؤ الإنسان على أن يرى السيجار ولا يضعه فى فمه . . لم أفكر فى أن أطفى سيجارى منذ ثلاثين عاما! وقد عاش تشرشل أكثر من تسعين عاما وفى شركات السجائر عدد كبير من علماء النفس والاجتماع وأساتذة الكيمياء والمخابرات وهم جميعا يتآمرون على مئات الملايين من البشر حتى يحولوهم من نافخين للدخان إلى مدمنين ، فلم يعد التدخين هواء تنفخه فى الهواء . . وإنما هى مؤامرة عالمية محبوكة الأطراف من أجل أن يزداد عدد الذين يدخنون مليونا بعد مليون . . ومن الغريب أنه فى الوقت الذى تتفنن فيه الشركات فى تقليل نسبة النيكوتين والقطران ، نرى شركات أخرى تنتج سجائر بلا فلتر . . كأنها تريد أن تقول : إن الفلتر أكذوبة وأن السيجارة تفقد معناها إذا استبعدنا منها الفلتر . . الطعام بلا ملح ولا شطة! بل إن عدد اليائسين من إدمان التدخين ، هم الذين يشترون السجائر بلا فلتر . . والمعنى عندهم هو : سيجارة ضارة مثل سيجارة أقل ضررا . . إنها متعة ضارة . . وكل متع الدنيا ضارة جميعا . . فكيف يعيش بلا متعة . . وكيف

لا تدفع الثمن؟! إنها غلطتى عندما دخلت فى مناقشة حارة مع العالمة الأثرية د . دليدا ونحن نتفرج من أحد المقاهى على جمال مدينة طليطلة . . لقد تحمست لدرجة أنها أحرقت عشرين سيجارة فى ساعة واحدة . . وبقدر متعتى فى الاستماع إليها بقدر ضيقى من المدخنة التى أخفتها فى حلقها . . وقلت لها : لو تعلمين أن هذا الدخان سوف يضعف عينيك ويفسد بشرتك ويسوس أسنانك ويملأ صدرك بالهباب ويقصف عمرك! قالت : الأعمار بيد الله . . إن أطفالا لا يموتون قبل أن يولدوا . . وأطفالا يموتون بعد أن يولدوا . . وإن شيوخا يصلون إلى التسعين وإلى المائة والسيجارة فى أفواههم . .

- يعنى إيه؟

- هذه النصيحة جاءت متأخرة أربعين عاما .

(٩)

لابد أن نتساءل عن الكيفية التى انتقلت بها هذه الموجات الفنية البديعة إلى أسبانيا . . إن موقع أسبانيا من قارتى أفريقيا وأوروبا جعل عبور العادات والتقاليد ذهابا وإيابا أمرا سهلا . . ولذلك فالذى نسميه الفنون الأندلسية ليست عربية كلها ، فقد نقل العرب زخارفهم وذوقهم فى الخط الزخرفى والألوان وصفاء النفس والحدائق والنافورات . . وانتقلت أيضا موجات من الفنون البيزنطية وكذلك الأوروبية والرومانية والإغريقية وامتزجت كلها بالذوق الأسبانى ، ولكن المزاج العربى قد تغلب عليها . .

فالفنون الأندلسية عربية فى جوهرها ولكن الأسبان أضافوا إليها ، ولذلك فهم عند حفاوتهم الشديدة بهذه الفنون إنما يحتفلون بتاريخهم وبما أضافوا إليه أيضا . ولو فرضنا – نحن المصريين– أننا قررنا أن نحتفل بماضينا القديم جدا وطبعنا به البيوت والميادين لجعلنا الواجهات مثل واجهات شاليهات قرية «الرواد» على شاطىء البحر الأبيض . . ولكن عيب هذه القرية أنها اختارت من كل الملامح الفرعونية ملامح القبور وحتمت على الأحياء أن يعيشوا فيها وينعموا بالحياة . . كيف يواجهون الهواء والموج والضوء بفتحات لا يدخل منها لا الهواء ولا الضوء . . وهما مما لا يحتاج إليه الميت . . وكان لابد من تطعيم هذا الطراز الفرعونى بالطراز العربى أو الأوروبى . . ولذلك لم نفلح فى الاحتفاظ بتاريخنا القديم . . لأننا إما أن نحتفظ به كما هو دون تطوير أو تعديل . . أو نتجه إلى الطراز الأوروبى أو الأمريكى كما هو . . وهذا ما فعلنا . .

ولذلك يمكن إن نقول أن مدينة مثل القاهرة ليست مدينة وإنما هى «حالة عقلية» . . أو حالة «اضطراب عقلى» . . فأنت لا تعرف ما هى ملامح هذه المدينة . . وإذا نظرت إلى ملابس الناس فأنت لا تعرف ما هو زينا القومى . . ولكن إذا وقفت عند ناصية أى شارع وتطلعت إلى وجوه الناس وملابسهم ، فمن الصعب عليك أن تعرف أين أنت . . وإذا نظرت إلى البيوت أيضا . . فلن تجد فى الأحياء الحديثة ما يدل على أنها مصرية . . فقط عندما تذهب إلى الأحياء القديمة . . هناك تجد الطرازين الإسلامى والمملوكى والتركى والقبطى . . وفى الإسكندرية نجد الطرازين الرومانى والإغريقى .

ولكن الإسكندرية ليست حريصة على أن تحتفظ لنفسها بأى طراز قديم . . مع أن الإسكندرية كانت طاقة النور فى القصور القديمة . . كان فيها أعظم الفلاسفة والعلماء والمؤرخين . . وكانت فيها أروع وأعظم مكتبة أقامها الإنسان . . واحتراق هذه المكتبة بما فيها من مليونى كتاب كان أفدح خسارة منيت بها الحضارة الإنسانية!

ولكن هنا فى قرطبة نجد المسجد الذى شيده عبد الرحمن الأول (٧٨٤-٧٨٦م) فى ٧٥ عاما بعد فتح العرب لشبه جزيرة أيبريا . . وعندما توفى هذا الأمير لم يكن المسجد قد تم بناؤه . . وإنما أكمله ابنه الأمير هشام . . والمسجد مستطيل الشكل وجدرانه من الحجارة وينقسم إلى إحدى عشرة مقصورة ، كلها تتجه من الشمال إلى الجنوب عمودية على جدار القبلة ، وتفصل المقصورات بعضها عن بعض أعمدة من الرخام الرومانية والقوطية .

وليس هذا مسجدا بديعا فقط ، وإنما هو سجل تاريخى ملون رائع تقف أمامه وتتجول فيه وأنت تقرأ التاريخ والفن بكل مشاعرك .

(١٠)

الذى يذهب إلى أسبانيا ولم ير غرناطة ، لم ير تاريخ الإسلام فى هذه البلاد . . والذى يذهب إلى غرناطة ولم يزر (قصر الحمراء) ، فهو لم ير غرناطة ولا عرف الأندلس .

فليس فى كل التاريخ الأندلسى أثر يرقى إلى مستوى قصر الحمراء ، لا من ناحية البناء ولا الحدائق ولا الممرات ولا الأعمدة ولا السقف ولا البحيرات الداخلية ولا النافورات . . إن التاريخ الإسلامى كله لم يعرف مهندسا كالذى أقام هذ القصر الرائع فى بنائه وفى هندسته وفى تفاصيله الدقيقة .

شىء عجيب أن يكون المهندس رقيقا جدا هكذا . . وفى نفس الوقت شاعرا رومانسيا ، أنت تستطيع أن تسد عينيك وتستمع إلى موسيقى الألوان وموسيقى المياه وأن تهتدى بالنسيم الذى يهب عليك من كل باب ونافذة وبلكونة ومن وراء النوافذ . . وكانت العروس تقف وراء النوافذ . . وكان يدل على وجودها عطرها الذى يتولى النسيم نقله إلى العريس . . فلا يكاد يشم رائحة العطر حتى يحنى رأسه بما يدل على أنه قد بلغته الرسالة . . وقد صنع المهندس بحيرة صغيرة تقوم بدور المرآة . . فالعريس يجلس ينظر فى المرآة التى عكست صورة العروس . . يرى ويتأمل ويختار . . ثم يشير بيده . . إن هذه هى العروس . . كل ذلك يتم دون كلمة من أحد . . لا هى تنطق ولا هو يتنهد . . وإنما تتولى المرآة المائية نقل صورة الفتاة الجميلة . . ويتولى النسيم الذى استدرجه المهندس من فوق إلى تحت حتى يصل إلى العريس أمام المرآة . . كل ذلك يتم فى أدب

وفى رقة . . وحوله (كورس) من الألوان والهمسات وأصوات العصافير تنقر الليمون والبرتقال والتفاح فى الحديقة المتدرجة عند مداخل ومخارج القصر .

وكان المرشد السياحى إلى هذا القصر يقول وكنت أطلب إليه أن يكون هامسا حتى لا تنزعج الألوان فتقع من السقف . . وحتى لا يقلق الفسيفساء فتنهار تحت أقدامنا ، إنه متحمس . . ونحن أيضا . . ولكن طلبت إليه أن يترفق بالتاريخ وألا يوقظ هذه الفتنة النائمة .

وكما اعتدنا فى كثير من نافورات العالم أن يقف الإنسان بالقرب منها ويلقى فيها بعض العملات ويتمنى أن يعود ليراها مرة أخرى . . وقد فعلت ذلك . . تماما كما هى العادة فى مدينة روما أن يلقى الناس عملات إيطالية فى نافورة (تريفى) . . أى نافورة الطرق الثلاثة . . فعندها ملتقى ثلاث طرق . . ألقيت العملات وتمنيت أن أعود هذا العام أو الذي يليه . . المهم أن أعود وأرى وألمس وأتنهد وأتغنى بما فاتنى فى المرات السابقة .

قالت لى سائحة إيطالية : إذا أعطيت ظهرك للنافورة فضع يدك على المكان الذى يوجعك . . فالنافورة بما فيها من سحر قادرة على أن تشفيك . . فضحكت وقلت لها : لابد أن ألقى بنفسى فيها وأبقى تحتها . .

– يعنى إيه؟

– يعنى موجوع من أولى لآخري!

– ماذا تعمل فى هذه الدنيا؟

- مفكر . .

- إن نافورة واحدة لا تكفيك!

- ألم أقل لك!

- لماذا لا

- فكرت ، وحاولت . . وانقذونى فى آخر لحظة!

- إذن فالموت يرفضك . . لابد أن تتمسك بالحياة . . سوف تعود إليها . . سوف تعود!

- أشكرك!

(١١)

ربما كـان الروائى العظيم سـرفـانتس ينطقـونه «ثرفـانتس» هو صاحب أكبر عدد من التماثيل ، فهو أعظم الروائيين فى أسبانيا وأول من كـتب الرواية فى التاريخ وروايتـه الشـهيرة اسـمـها «دون كـخوته» وقـد ظهرت هذه الرواية الطويلة فى كل اللغات وظهرت بالعربية فى مصر مرتين مرة بترجمة د . عبد الرحمن بدوى ومرة ترجمة د . عبد العزيز الأهوانى وترجمة د . بدوى لها مقدمة طويلة وهوامش كثيرة .

والروائى الأسبانى سرفانتس «١٥٤٧-١٦١٦» لا نعرف الكثير عن طفـولته فـقط أنه كـان واحدا من إخـوة أربعـة لأب كـان يعـمل صيدليا ونعرف عنه أنه أيضا كان يعمل فى خدمة أحد الكرادلة ثم التحق بالجيش وأصيب بطلقات في يده اليسرى التى أصبحت مشلولة ثم وقع هو وأخوه أسيرين فى أيدى المغاربة عندما استولوا على السـفينة التى كـانت تنقلهـما إلى أشـبيليه وسـجنوه خـمس سنوات وقد حاول الهرب ولم يتركوه إلا بعد أن دفع فدية .

ثم دخل السـجن مرة أخرى عندما وجدوا فى بيتـه جثة رجل كان عشيقا لابنته ثم أطلقوا سراحه .

وقد عاش سوفانتس فقيرا ومات شهيرا فقيرا أيضا وحاول أن يتكسب من الأدب من نظم الشعر وكتابة الرواية القصيرة ولكنه ظل فقيرا .

وكـان فى أواخر سنوات عـمره مشغـولا بالجزء الأول من رواية

«دون كخوته» التى هى مغامرات أحد الفرسان المختل عقليا بين المدن والقرى الأسبانية وكل مغامراته كانت على ظهر حصانه «روزنانته» وهربا من ذكرى معشوقته دولثنيا وكان يرافقه صديقه وتابعه سانكو بانزا والرواية تصوير وسخرية من مفهوم الفروسية والبطولة فى العصور الوسطى وليس هذا هو المعنى الوحيد لها فالرواية بسبب المعانى الكثيرة التى بها يحتمل ألف تفسير وتفسير .

وقد ظهر الجزء الأول من «دون كخوته» سنة ١٦٠٣ وقد لقيت هذه الرواية رواجا عظيما وطبع الجزء الأول خمس مرات وصدر الجزء الثانى سنة ١٦١٥ وبهذا الجزء الثانى أصبح سرفانتس أعظم روائى فى أوروبا ولكن ظل فقيرا دائما وكان سرفانتس رجلا عبقريا تعيسا فهو لم يتفوق فى أى فن لا فى العسكرية ولا عندما عمل موظفا حبسوه لاتهامه بالتلاعب فى الحسابات ولا عندما حاول أن يكون زوجا مستقرا فقد كان زواجه قطعة من العذاب اليومى حتى أن ابنته الوحيدة كانت مصدر شقاء له وكانت توقعه فى مشاكل كثيرة وكان يحبها ولذلك كان شقيا بها .

يقول سرفانتس : إن أحدا لم يخيرنى بين أن أكون عبقريا وأن أكون فقيرا لو عرفت لاخترت أن أكون خنزيرا غنيا فعبقريتى هى تعاستى!

وقد توفى سرفانتس يوم ٢٣ أبريل سنة ١٦١٦ نفس اليوم ونفس السنة التى مات فيها عبقرى آخر هو شيكسبير .

إن مجسمات سرفانتس فى كل مكان هى قصائد من الشعر الجميل والحجارة الناعمة التى تفخر بالتعاسة والعظمة معا!

(١٢)

هذه عاصمة الأندلس ـ والأندلس هى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة . . الأرض ناعمة والوديان منبسطة والحدائق لا أول لها ولا آخر . . ومن حين إلى حين يظهر جبل ليختفى فى الوديان الغنية الألوان . . والطريق طويل ناعم جـدا . . وقـد اشـتـرطت اللجنة الأوليمبية لكى توافق على عقد الدورة الأوليمبية فى هذه البلاد أن تكون كل الطرق ناعمة وأن تكون كل المواصلات سهلة . فلما تقرر قيام المعرض الدولى لسنة ٩٢ كانت أسبانيا قد استعدت لذلك تماما ، فالفنادق كبيرة وكثيرة . . والشوارع حرير ، والإضاءة باهرة . . والخدمات متوافرة . . ولا شكوى لأحد من أى شىء .

وكل شىء فى الطريق إلى هذه المدينة يشير إلى أن حدثا عالميا قد استعدت له . . وهذا الحدث هو المعرض الدولى الذى تساهم فيه كل دول العالم . . وهناك عدة مناسبات :

المناسبة الأولى هى مرور ٥٠٠ سنة على اكتشاف كولمبوس الإيطالى لأمريكا . . ولكن الذى انفق على رحلته ذهابا وإيابا هو أسبانيا

المناسبة الثانية هى اختيار مدينة مدريد عاصمة للثقافة .

والمناسبة الثالثة إقامة الدورة الأوليمبية فى برشلونة ـ ينطقونها برثلونة ـ على البحر الأبيض والمناسبة الرابعة هى إقامة المعرض الدولى هنا فى عاصمة الأندلس .

المناسبة الخامسة ظهور أو كتاب عن النحو والصرف فى اللغة الأسبانية ومن خمسة قرون . . وتشاء المصادفة فى (يوم مصر) وقد ذهب الوزير الفنان فاروق حسنى ليفتتح الجناح المصرى ، أن يغتال الجزائريون رئيسهم (بوضياف) . . فنكست مصر علمها وامتنعت عن تقديم الحفلات الشعبية الغنائية فى هذا اليوم . .

أما الجناح المصرى فهو أيضا جميل العرض سهل الأداء . . وقد عرضت مصر آثارها الفرعونية النادرة . . فليس أعظم فى كل تاريخها مما أقامه الأجداد ، ويلقى عظيم الاحترام فى كل متاحف الدنيا . . وفى متاحف أسبانيا أيضا . . بل إن أسبانيا قد أقامت أثرا فى قلب مدريد . . وجعلت له ميدانا أكبر من ميدان السادات وأجمل وأروع وأنظف . . فقد اعتاد الأسبان على رؤية آثار مصر . . لا كل آثارها . . ولكن القليل الذى عرضوه فى متاحفهم يلقى الكثير جدا من التعظيم ، وهذا يدل على عمق الحس التاريخى عندهم وعلى سمو الذوق الفنى ورهافة الحساسية الجمالية فى الشعب الأسبانى .

وذهبنا بعد ذلك لنقدم واجب العزاء للجناح الجزائرى ثم ذهبنا نتفرج على الجناح العمانى والكويتى والمغربى . . وفى الجناح المغربى توجد فرق موسيقية تطبل وتزمر - ونحن نعرف العلاقات الجزائرية المغربية وموقف الجزائريين من المتمردين فى الصحراء المغربية ومساعدتهم بالمال والسلاح .

وكان الملك الحسن الثانى أول من أعلن أن القيادة الجزائرية هى التى اغتالت الرئيس بوضياف ، وكان هذا الرئيس يعيش فى مدينة القنيطرة المغربية منذ ٢٨ عاما . . سعيدا هو وأسرته . . ويملك مصنعا للطوب . . وكان الناس فى القنيطرة ينادونه (سى بوضياف) والقيادة الجزائرية استدرجت هذا الرجل الطيب وقتلوه!

ولذلك قررت زوجته وأولاده أن يقيموا له جنازة صامتة فى مدينة القنيطرة!

ورأينا الجناح السعودى الذى وضع آثارا قديمة لأول مرة . . ثم قدم السعوديون فى جناحهم مشاريعهم الجبارة فى توسعة وتطوير الحرم النبوى . . وتطوير الخدمات من كل نوع ، والتى ينعم بها المواطن السعودى . . وفى متناول حجاج بيت الله الحرام .

ميت أبو الكوم !

خلال زيارة الرئيس السادات لأمريكا ليلتقى بالرئيس كارتر لأول مرة مازحه الرئيس الأمريكى بأنه بحث فى الخريطة عن قرية ميت أبو الكوم فلم يجدها .

وضحك الرئيسان لذلك . . وقال الرئيس السادات : إنه لم يجد قرية «بليز» التى ولد فيها الرئيس الأمريكى .

فكلاهما فلاح من قرية مجهولة فى أمريكا وفي مصر وكلاهما من أشد الناس إيمانا بالله واعتمادا عليه .

وإن كانت خدمة كارتر العسكرية أطول من خدمة السادات فى الشارع السياسى ، فقد أمضى السادات أكثر حياته فى السياسة شابا قائدا ورجلا مكافحا وضابطا ثائرا ، ثم كان حاكما غير تقليدى .

وصاحب أجرأ القرارات التى اتخذها زعيم مصرى ، فهو صاحب أول صوت نسمعه عن ثورة يوليو ، وهو صاحب ثورة ١٥ مايو . . وصاحب قرار طرد الخبراء السوفيت . . وصاحب قرار حرب أكتوبر . . وصاحب قرار الحريات وإلغاء المعتقلات .

ثم إنه صاحب قرار المبادرة التى ليس لها نظير فى التاريخ ، فهو أول وأشجع وأجرأ وأصدق صوت نادى بالسلام ذهابا إلى القدس وعودة منها ولا يزال يدفع السلام إلى مجالات أوسع .

وقد أعلن السادات بعد لقائه بكارتر : إنه رجل فلاح مثلى . . وإننا تفاهمنا بسرعة . . فهو رجل صادق ويحفظ كلمته . . ثم إنه يريد السلام حقا .

وهذه المرة يذهب السادات إلى أمريكا وسبقته دعوته الحارة إلى السلام . . وتسبقه أيضا هذه المظاهرات العالمية التى تتغنى بالسلام ، وتسبقه أيضا كل الأقلام الشرقية والإعلام العالمية الرفيعة الى اتخذت الحياة طريقا وغاية .

والخطوة التالية يجب أن تقوم بها إسرائيل . . إن كانت تريد السلام حقا . . السلام فى داخلها ، والسلام على أرضها ومع جيرانها .

إن هذه هى الفرصة لمن يدعى أنه رجل سلام ، ولمن يؤمن أنه رجل سلام .

وعلى أمريكا التى أطعمت إسرائيل وسلحتها ودافعت عنها ، وسوف تفعل ذلك دائما : أن تتحمل مسئوليتها كاملة . . فأمريكا هى العملاق الذى يقف على كتفيه قزم إسرائيل . . فيبدو أطول من العملاق .

إن هذه هى الفرصة ليعرف العالم الحجم الحقيقى لإسرائيل ، كدولة صغيرة بين جيران يكرهونها ولكنهم فى نفس الوقت جادون فى إلقاء السلاح معا وبالتدريج ، من أجل حياة الأجيال القادمة على كل أرض ، فى سلام وأمان!

أكتوبر في كل مكان !

لم تظهر ورقة واحدة مطبوعة على الكرة الأرضية ليس فيها كلمة «أكتوبر» فى الأسابيع الأربعة الماضية .

لم تظهر نشرة إخبارية فى راديو أو تليفزيون وبكل لغات العالم ليست فيها كلمة أكتوبر فى الأسبوع الأخير .

لم يوجد جندى إسرائيلى واحد لم يضع يده على قلبه وقبل أن يقول : يا رب . . ردد كلمة «أكتوبر» .

والسبب هو الحديث الذى أدلى به الرئيس السادات لرئيس تحرير مجلة أكتوبر ، والذى قال فيه : ليس عندى أى أمل فى أن تسفر مفاوضات القدس السياسية عن إعلان للمبادىء!

وانقلبت الدنيا كلها فقد كان هذا التصريح قنبلة مسيلة للدموع قد فجرها السادات فبكت لها حمائم السلام وصقور الحرب فى وقت واحداً!

وأبرقت كل وكالات الأنباء إلى مندوبيها وكل محطات التليفزيون أن : اطلبوا المزيد عن تفاصيل هذه القنبلة .

ونفذت مجلة «أكتوبر» من كل الأسواق . . حتى ظن سكان القاهرة ومصر أن عدد الأحد الأسبق قد صودر . . ولم يحدث شىء من ذلك ولكن تهامست القاهرة بملايينها الثمانية .

ورددت همسها كل عواصم الدنيا . . وامتدت الأيدى فى فزع

تقرأ ما قاله صاحب مبادرات السلام فى المجلة التى تحمل اسم أعظم انتصاراته فى الحرب والسياسة ، وحققت مجلة «أكتوبر» انتصارا صحفيا عالميا ، وفى إسرائيل دارت عدسات التليفزيون والميكروفونات حول رئيس تحرير مجلة أكتوبر . ونشرت صورته فى الصفحات الأولى على أنه أجرى أخطر حديث مع الرئيس السادات ، ونشر الصحفى الإسرائيلى دافيد لنداوفى جيروسالم بوست أنه أول إسرائيلى قد أجرى حديثا مع الرئيس السادات وقال : إن رئيس تحرير مجلة أكتوبر كان يجلس معه .

وإن الرئيس السادات قال له : كفى . . فلاتزال عندى جلسة مع رئيس تحرير مجلة أكتوبر .

وفى هذه الجلسة أطلق الرئيس السادات قنبلته العالمية . . إنها قنبلة نظيفة تحذر وتنذر . . قنبلة نور وليست قنبلة نار . . ولترتفع بها ومعها مجلة أكتوبر . . ويتأكد امتنانها لملايين القراء!



قرأت فى صحيفة «اليونيون» التى تصدر بالفرنسية فى ليبرفيل عاصمة جابون ، حيث انعقد مؤتمر القمة منذ أيام : مقالا لكاتب ظريف ، وحتى يدافع هذا الكاتب عن تفاهة وسخافة ماجاء فى مقاله قال : لست وحدى فى هذا البلد ، بل نحن أغلبية فى العالم كله . فاحترس أن تتهم من هم أكثر منك عددا ، وهم لذلك أكبر منك قوة وسطوة !

قال الكاتب : نحن الآن نحتفل بأعظم المناسبات الدولية . . مؤتمر القمة ينعقد فى بلادنا . أربعون من رؤساء الدول وكبرائها فى بلادنا ، إنهم يشرحون قضية القارة كلها وعلاقتها ببقية القارات ، عظيم جدا ، إذن أنا كإنسان تافه لا ضرورة لى ، ولا معنى لأن أذهب إلى مكتبى ، فكل الوزراء فى المطار ولأن الوزراء فى المطار . . فوكلاء الوزراء والمديرون والسكرتيرون وسكرتيرو السكرتيرين جميعا فى المطار أو بالقرب منه . . عظيم جدا . إذن أنا لا داعى لأن أعمل ، وأفضل شىء يمكن أن أقوم به هو أن أطلب إجازة ، ولكنى لم أجد أحدا أطلب منه الإجازة ، فكل الناس الكبار فى المطار . . ولا توجد وسيلة مواصلات إلى المطار . . فالسيارات كلها فى خدمة الوفود . . إذن أنا لا أستطيع أن أترك بيتى وأذهب إلى عملى لكى أعود إلى البيت بصورة قانونية ثم إننى لا أستطيع أن أبقى فى البيت دون إذن ، وإلا كان ذلك امتناعا عن العمل سوف

يحاسبوننى عليه . . إذن لابد أن أذهب على قدمى . . وذهبت على قدمى وفى الطريق جعلت أفكر فى حالى . قلت لنفسى : إنهم جميعا ذهبوا كى يتفرجوا وصاحوا وصفقوا ، واتفقوا . . المهم أنهم اتفقوا فما الذى استفدته أنا . . كمواطن جابونى : لا شىء . . كمواطن أفريقى : كل شىء!

ويقول : لا تسخر منى فليس هذا رأيى وحدى ولكنه رأى مئات الملايين ولكنى أكثرهم شجاعة . فأنا واحد من هؤلاء التافهين الذين يقيسون الدنيا بمقياسهم الخاص ، ومصلحتهم الخاصة . . فاعذرنى . . ولكن احترم صراحتى!

عظيم الاحترام لك !

أبناؤها..

كان الشاعر العربى القديم يقول : إن المستحيل هو أن يكون للصحراء بابَ!

لأن الصحراء هى الرمال اللامتناهية العدد ، اللامتناهية المساحة ، إن الصحراء مثل السماء فى اتساعها وعدد نجومها . . وضياع الإنسان فيها . . فهى حارة جافة ، وإذا ظهر فيها ماء فهو سراب : والسراب هو انعكاس أشعة الشمس على ذرات الرمال ، فإذا تحرك الإنسان تحركت هذه الانكسارات الضوئية فبدت كأنها أمواج البحر . . والقرآن الكريم قد وصف ذلك بقوله تعالى : «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . حتى إذا جاءه لم يجده شيئا» .

ولكن الإنسان الذى أعطاه الله العلم . أى أعطاه العقل نظر إلى الصحراء فراح يحلم بأنها خضراء . .

ورأى الماء يخرج من تحتها من تلقاء نفسه . فاستعجل خروج الماء فحفر الآبار ومد الأنابيب . . أنابيب الماء وأنابيب البترول وأنابيب الغاز الطبيعى . . واستخرج معادن الذهب والفضة والنحاس والفوسفات والماس . .

وهيرودوت المؤرخ الأغريقى القديم عندما وصف مصر قال : إنها هبة النيل . .

أى أن مـاء النيل هو الذى وهبنا الحيـاة على الأرض الخضـراء التى يعيش عليها الإنـسان والحيوان والطيور . . فلولا ماء النيل ما كانت مصر . .

ولكن لو تركنا أرضنا للنيل يرويهـا ، وفى نفس الوقت نزداد عـددا فإن هذه الأرض مـهمـا كـانت واسـعـة فسوف تضيق بنا ، وسوف تضيق عنا أيضا ، ولذلك كان من الضرورى أن نعلم النيل أن يعطى أكثر . . إنه ليس بخيلا ، ولكنه نهر سفيه . . فهو يحمل الماء والطمى ويجرى بهـمـا من الحبشة والسـودان ثم يلقى بهـمـا جميعا فى البحر .

ولذلك كـان لابد أن نضع البنوك على ضفتيـه . . وهذه البنوك هى خزان أسوان والسد العالى وقناطر إسنا والقناطر الخيرية . . إنها جـميعـا بنوك تدخر أموال النيل . . وتنفق منها بحساب . . فإذا غضب النيل من هذا التضييق على حريته تحول غضبه إلى طاقات كهربية . فإذا غضبه يضىء ولا يحرق . . ويروى ولا يغرق ويعطى عند الحاجة ، ولا يرمى بخيراته ومعادنه فى البحر .

إنه نهر قد تقدمت به السن ، وليست هذه السدود إلا نوعا من «الحجر» عليه حتى لا يبدد أمواله على حسناء لعوب اسمـها : البحر الأبيض!

ولذلك سوف تخضر الصحراء وسوف تكون خضـرتهـا هى حياتنا – هى مزيد من الحيـاة لنا ولأجيال من بعدنا ، وأعظم مـا تملكه مصر حقا هو : أبناؤها . . أى طاقتها البشرية وهى صحراؤنا أيضا .

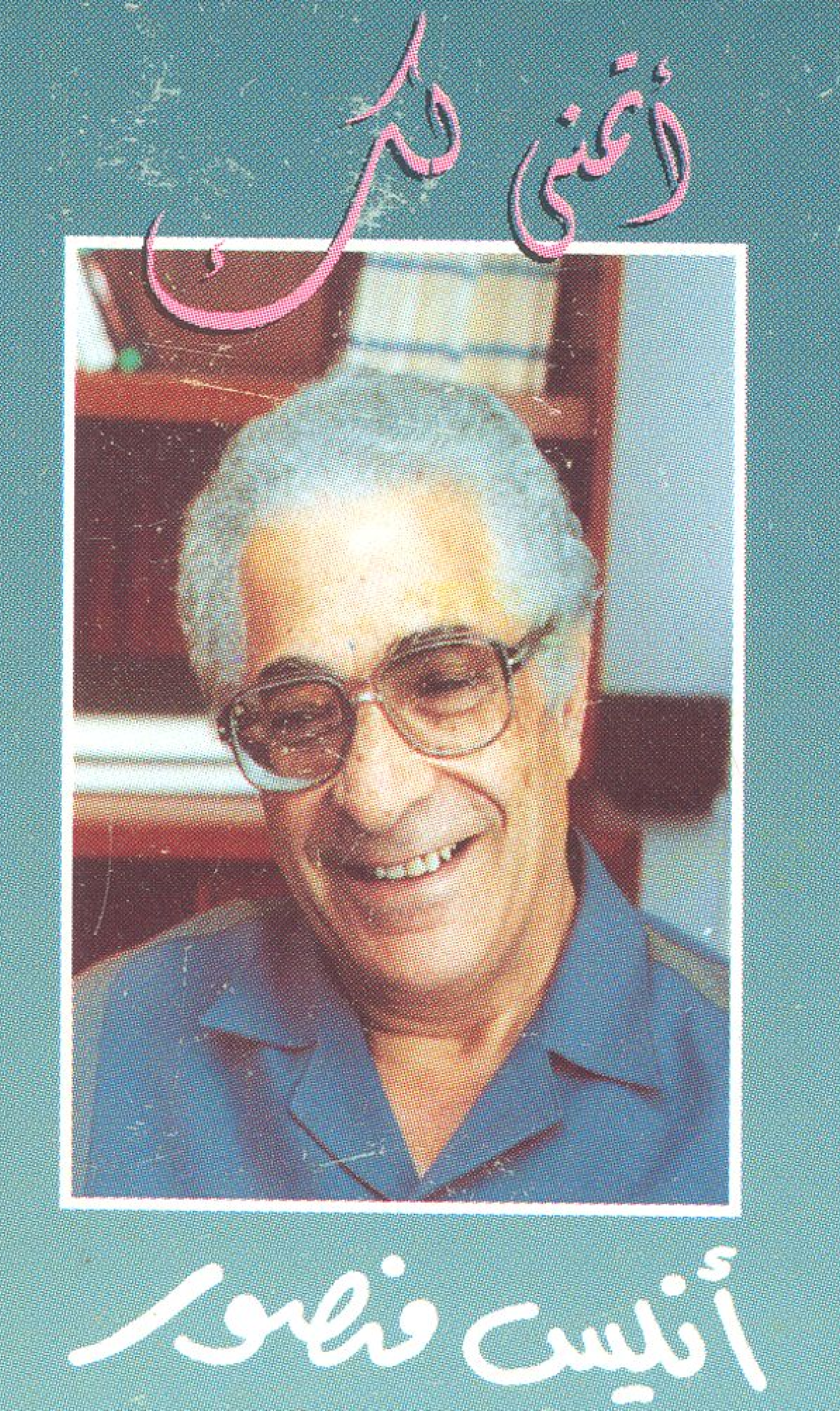
الفهـرس

كتب للمؤلف

١- وحدى مع الآخرين
٢- عذاب كل يوم
٣- طريق العذاب
٤- يسقط الحائط الرابع
٥- كرسى على الشمال
٦- ساعات بلا عقارب
٧- مع الآخريين
٨- بقايا كل شيء
٩- نحن أولاد الغجر
١٠- من نفسى
١١- شيء عن الفكر
١٢- حتى أنت يا أنا
١٣- لوكنت أيوب
١٤- أضواء وضوضاء
١٥- كل شيء بشيء
١٦- الحنان أقوى
١٧- إنها الأشياء الصغيرة
١٨- يعيش . . .يعيش
١٩- مواقف١
٢٠- مواقف٢
٢١- مواقف٣
٢٢- عزيزى القارىء
٢٣- هى وغيرها
٢٤- يوم بيوم
٢٥- يا من كنت حبيبى
٢٦- قلوب صغيرة
٢٧- شارع التنهدات
٢٨- فوق الركبة
٢٩- هذه الصغيرة وقصص أخرى
٣٠- الأظافر الصغيرة
٣١- عريس فاطمة
٣٢- الغرباء
٣٣- أثنين . .أثنين
٣٤- الوجودية
٣٥- الخبز والقبلات
٣٦- التاريخ أنياب وأظافر
٣٧- من أول نظرة
٣٨- الحائط والدموع
٣٩- الصابرا
٤٠- وجع فى قلب إسرائيل
٤١- ديانات أخرى
٤٢- على رقاب العباد
٤٣- محمد ﷺ أعظم الخالدين
٤٤- دراسات فى الأدب الأمريكى

٩١- أين الأراضى البور
٩٢- من أجل سواد عينيها
٩٣- بعد السقوط
٩٤- فوق الكهف
٩٥- الأمبراطور جونز
٩٦- تعب كلها الحياة
٩٧- الباب والشباك
٩٨- ملح على جرح
٩٩- أنتم الناس أيها الشعراء
١٠٠- مذكرات شاب غامض
١٠١- كتاب من كتب
١٠٢- غرباء فى مصر
١٠٣- لحظات مسروقة
١٠٤- أيها الموت لحظة من فضلك
١٠٥- السيدة الأولى
١٠٦- عبد الناصر
١٠٧- شباب . . شباب
١٠٨- الذين هاجرو
١٠٩- جسمك لا يكذب
١١٠- مالاتعلمون
١١١- الا فاطمة
١١٢- شباب حائر
١١٣- دعوة للأبتسام
١١٤- عندى كلام
١١٦- الحيوانات ألطف كثيراً
١١٧- أحب وأكره
١١٨- النجوم تولد وتموت
١١٩- ثم ضاع الطريق
١٢٠- هناك أمل
١٢١- مصباح لكل إنسان
١٢٢- اتمنى لك
١٢٣- لعل الموت ينسانا
١٢٤- اقرأ أى شىء
١٢٥- ولكنى اتأمل
١٢٦- نحن كذلك
١٢٧- اللهم أنى سائح
١٢٨- الحب والفلوس والموت . . وأنا
١٢٩- حتى تعرف نفسك
١٣٠- آه لو رأيت
١٣١- تعال نفكر معاً
١٣٢- كائنات فوق
١٣٣- الناى السحرى
١٣٤- الماضى يعيش
١٣٥- زِى الفل أو أحزان هذا الكاتب .





هذا الكتاب

سمعت كل أمنـ[illegible] الناس فى الإذاعة والتلفزيو[illegible] عام .. أو لا معنى لها على الإط[illegible] واحد يقول لك : أن يكون الناس جميعا فى صحة تامة !

كيف ؟ .. أهو كلام !

وأن يكون الناس جميعا من الأغنياء .. وأن تزول الفوارق بين الناس .. وأن يحب الجار جاره ..

وأن تكون قلوب الناس فى لون القشدة .. كيف ؟!

وألا يذهب إلى المستشفى مريض ! .. فما رأى الدكاترة فى ذلك ؟!

ونفرض أن أحدا لم يمرض ، ما القول فى الموت الذى هو نهاية كل سليم ومريض وكل طفل وشيخ والأجنة فى بطون أمهاتهم .. كيف ؟!

إن مثل هذه الأمنيات لا يمكن أن تكون جادة .. وإنما هى هلوسة طيبة هلوسة مشجعة .. بعض الناس يتفاءل بها كما يتفاءل قراء البخت فى الصحف والمجلات ..

أما الذى أتمناه لك أيها القارئ العزيز فهو بعض السعادة وبعض الملايين فى البنوك أنت وبعض أولادك وأولاد أولادك ؟!

وأن تسافروا جميعا إلى الدنيا الواسعة .. نظرة إلى السماء ونظرة إلى الأرض ونظرة فى كتاب ونظرة إلى مصر ..


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨